الفصل الثاني

تأسيس الجيش منذ فجر الحضارة الإسلامية

إذا كنا قد قدمنا الطرح الإسلامي فيما يتعلق بشرعية تأسيس الجيش ككيان ذى خصوصية ، تتمثل مهمته في حماية الحضارة وحمل القيم وتوصيلها إلي المخاطبين بها ، فسوف نعكف في هذا الفصل علي متابعة تأسيس الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر ، ثم تطويره في عهد الخلفاء الراشدين ، ووصوله إلي أقصى قوته في عهد الأمويين ، وتوقفه عند درجة معينة من النضج في عهد العباسيين ، وسنكتشف من خلال المتابعة والتحليل أن الجيش في كل مرحلة من هذه المراحل التاريخية ، قد لعب دوراً معيناً فيما يتعلق بالحضارة الإسلامية ، وكان لنشاطه وتطوره مؤشر ذو دلالة في تلك الحضارة ، ونتابع ذلك من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : تأسيس الجيش في عهد النبوة الزاهرة .

المبحث الثاني : الجيش في عهـــــد الخلفاء الراشدين .

المبحث الثالث : الجيش الإســـلامي في العصر الأموي .

المبحث الرابع : الجيش الإســلامي في العصر العباسي .

المبحث الأول

تأسيس الجيش في عهد النبوة الزاهر

كيف تأسس الجيش في الدولة الإسلامية الأولى ؟ كيف تم استنفار واستقطاب العنصر البشري الذي يمثل قوام الجيش ؟ وما علاقة ذلك بفريضة الجهاد ؟ وهل الجهاد فرض عين أم فرض كفاية ؟ وهل كان هناك جيش بالمعنى المتعارف عليه في عهد الرسول الكريم ؟ وماذا كانت علاقة الجيش بالدعوة الإسلامية في عهد الرسول الكريم ؟ وماذا عن دور الجيش في الحضارة الإسلامية في عهد النبوة الزاهر ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها سوف نتناولها في هذه الجزئية من خلال الآتي :

أولاً : فكرة الأمة المجاهدة في عهد الرسول الكريم :

فكرة الأمة المجاهدة طرح مستنبط من المصادر الشرعية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ونماذج الممارسة في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين ، ونتصدى لهذه الفكرة في هذا الموضوع بوصفها قد لعبت دوراً مهماً في تقرير وبلورة الجانب الشرعي وحتى التنظيمي فيما يتعلق بالجيش الإسلامي ، ولم تكتف بذلك بل تطرقت إلي شرعية الحرب ، فكانت من أهم الحجج والأسانيد التي أمكن التعويل عليها للبحث في شرعية الحرب في الإسلام ، وسوف نعالج فكرة " **الأمة المجاهدة** " من خلال جملة الأطاريح التالية :

- الدلالات العامة لفكرة " الأمة المجاهدة " :

ولكي نلج إلي لب الفكرة نستفتح بتناول الدلالات العامة ، والتي ترد في أكثر من تعبير، نتناولها في ما يلي :

- إن فكرة الأمة المجاهدة تدل علي أن الأمة الإسلامية تحمل رسالة إنسانية خاصة بها ، تتمثل في التبليغ والدعوة ، وعلي أفرادها جميعاً أن يشاركوا في هذه الرسالة ، كل حسب طاقته وبما تيسر له .

- تقود فكرة الأمة المجاهدة إلي عمومية التفاعل وشمولية الأداء ، وهنا يعنى الجهاد كل أنواع المجاهدة ، التي تعنى استفراغ أو استقصاء الجهد من أجل تقديم النموذج لأعلى درجات الكمال والفضيلة ، وتتمثل تلك الأنواع من المجاهدة في جهاد النفس ، وجهاد الآخرين [الأعداء] ، وجهاد عناصر الوجود ، وجهاد أوجه النشاط والحركة في الكون .

- تعد فكرة الأمة المجاهدة من أهم ما يميز الأمة الإسلامية ، ويضفي عليها صفتي التفرد والخصوصية ، فيما يتعلق بمنطلقات الحركة ومساراتها ومقاصدها .

- كذلك للفظة " الأمة " دلالتها المحددة في الإسلام ، فهي تعنى العلاقة الخاصة التي تربط بين من ينتمون إلي الإسلام ، والتي تسمو فوق أية علاقة أخرى حتى ولو كانت علاقة الدم ، ومعلوم أن الإسلام يرتب كافة العلاقات الإنسانية في مرتبة تالية لعلاقة الإسلام ، وينتهي إلي أن الأمة هي مجموع من يدينون بالإسلام بغض الطرف عن أصولهم وأعراقهم .[1]

- تضفي فكرة الأمة المجاهدة علي الحضارة الإسلامية سمة الكفاحية والنضال من أجل العطاء والازدهار ، ونشر نماذجها الحضارية في كافة أنحاء العالم .

- كما تسم الثقافة الإسلامية بدأب التفاعل مع الواقع ودوام الإفراز ، بما يمكّنها من التحوّر والتجدد لتحتوى المتغيرات وتكتنف المستجدات .

---

[1] . من أجل تفصيل أكثر فيما يتعلق بالطرح الإسلامي الخاص بالأمة والدولة يمكن الرجوع الى : المجلد الأول ، السياسة والحكم في الإسلام، الجزء الثاني . نحو صياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة .

- فكرة الأمة المجاهدة في مصادر الطرح الإسلامي :

تعرض القرآن الكريم الذي يعتبر أهم مصادر الطرح الإسلامي لفكرة " الأمة المجاهدة " ولعله الأساس الذي استُنبطت منه هذه الفكرة ، وأوضح الذكر الحكيم أن هذه الفكرة هي طرح عام وشامل يلازم الأمة ويقترن بسماتها وخصائصها .

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ، لقد نزلت هذه الآية الكريمة في واقعة بذاتها ، فقد أخرج بن جرير وابن حاتم والطبراني في الكبير والبيهقي في سننه ، عن جندب بن عبد الله ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رهطاً وبعث عليهم عبد الله بن جحش ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جماد الآخر ، فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام ، فأنزل الله تعالى " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه " الآية ، فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر ، فأنزل الله " إن الذين آمنوا والذين هاجروا " الآية ، وبالرغم من خصوصية النزول في هذه الآية إلا أنها تحمل أحكاماً عامة :

- إن تخصيص الذين آمنوا بالتوكيد في صدر الآية ليدل على أن الإيمان هو أساس كافة الأعمال الصالحة من هجرة وجهاد .. الخ .

- إن جمع الهجرة والجهاد باستخدام حرف العطف " الواو " الذي لا يفيد أفضلية أو ترتيباً أو تعقيباً يجعل الهجرة تستوي مع الجهاد أو أنها نوع منه ، ومن شأن هذا أن يوسّع من دائرة الجهاد بمعنى القتال ، ويدخل في كنفها أعمالاً أخرى منها الهجرة .

---

[1] . سورة البقرة : ٢١٨ .

وقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] ، ووفق السياق الذي نزلت فيه هذه الآية الكريمة ، يتضح أن الجهاد قد قصد به القتال ، أما الصبر فقد قصد به الصبر في القتال ، وفي كافة أنواع الجهاد الأخرى ، وبصفة خاصة أن أخوات هذه الآية اللاتي سبقنها واللاتي أعقبنها ، جئن في شأن موقعة أحد وما أصاب المسلمين من قرح وانكسار ، إذن يمكن استخلاص ما مفاده أن الصبر نوع من الجهاد .

وقال تعالى ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2] ، تحمل هذه الآية مجموعة أحكام خاصة بفكرة الأمة المجاهدة ، ويمكن تناول هذه الأحكام فيما يلي :

- إن الجهاد بمعنى القتال هو فرض كفاية ، حتى ولو كان المسلمون يدافعون عدواً قد اعتدى عليهم ، وأصل ذلك أن الآية قد ذكرت أن القاعدين عن الجهاد أي القتال بإذن من القائد اكتفاءً بغيرهم ، لهم الحسنى بمعنى الثواب والجزاء الحسن .

- إن هناك من المسلمين من هم أصحاب أعذار تمنعهم من القتال ، وهؤلاء يرخص لهم بالقعود عن القتال ، ولهم أيضاً الحسنى كما نصت الآية صراحة .

- إن هناك من المسلمين من يقعد عن القتال ، ولكنه يجاهد بوسائل أخرى تمكن المقاتلين من البلاء في القتال ، وتحفظ المجتمع في زمن الحروب والكروب ، وهؤلاء ممن وعدتهم الآية بالحسنى لقاء جهادهم بدون قتال .

---

[1] . سورة آل عمران : ١٤٢ .
[2] . سورة النساء : ٩٥ .

• إن المسلمين الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم ، ثم بأنفسهم في قتال الأعداء ، قد فضلهم الله درجة علي الأقوام المذكورة أعلاه لجودهم في سبيل الله بالمال والنفس .

• لقد أوضحت الآية الكريمة أن هناك جهاداً بالمال ، إضافةً إلي الجهاد بالنفس الذي هو القتال ، وأن الجهاد بالمال والنفس أفضل أنواع الجهاد لأنه جمع بين أعز وأغلى ما يملك الإنسان .

• إن هناك من المسلمين من يقعدون عن الجهاد بغير إذن القائد أو ولى الأمر ، ولم تجرم الآية الكريمة فعل هؤلاء ولم تصفهم بالإثم ، بل جعلت لهم أجراً ولكنه أقل .

• فاضلت الآية الكريمة بين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم ، وبين القاعدين بدون إذن القائد أو ولى الأمر . ووعدت للمجاهدين أجراً عظيماً . والمفاضلة هنا تعنى أن هناك تفضيلاً في جنس الأجر ، فالمفضل قد أصاب الأجر العظيم ، والمفضل عليه قد أصاب من الأجر ما هو أقل ، وهذا يعطى دليلاً آخر علي أن القتال فرض كفاية .

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] ، حملت هذه الآية الكريمة ثلاثة أوامر للمؤمنين : الأمر الأول هو تقوى الله ولزوم طاعته ، والأمر الثاني هو طلب الوسيلة إلي الله بالعمل الصالح والقربان والنوافل ، والأمر الثالث هو الجهاد في سبيل الله بكافة صوره وأشكاله التي ذكرناها سلفاً والتي سترد فيما بعد .

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] ، لقد ورد الجهاد في سبيل الله في هذه الآية ليعنى الجهاد بجميع صوره وأشكاله التي منها القتال .

---

[1] . سورة المائدة : ٣٥ .
[2] . سورة المائدة : ٥٤ .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1] ، لقد أوردت الآية الكريمة الجهاد بمعناه الواسع الذي يتجاوز القتال ، ليشمل الجهاد بالنفس والمال والهجرة في سبيل الله .

وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[2] . توضح هاتان الآيتان الكريمتان أن الجهاد في سبيل الله لا يقتصر علي القتال فقط ، وإنما يتجاوز ذلك إلي أنواع أخرى من الجهاد مثل الهجرة في سبيل الله بعد الإيمان .

وقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3] ، في هذه الآية الكريمة ورد الجهاد ليعني كافة أنواعه بما فيها قتال الأعداء .

وقال تعالى ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[4] . في هاتين الآيتين أمور في الجهاد عظيمة وأحكام قيمة : ففي الآية الأولى مفاضلة ابتدرت صدر الآية باستفهام تقريري جاء حكمه في عجزها ، فالمفاضلة كانت بين الجهاد في سبيل الله بكافة صوره ، وبين القيام بأعمال هي من قبيل أعمال الخير والبر ، متحققة في سقاية الحاج ، وعمارة

---

[1] . سورة الأنفال : ٧٢ .
[2] . سورة الأنفال : ٧٤ ـ ٧٥ .
[3] . سورة التوبة : ١٦ .
[4] . سورة التوبة : ١٩ ـ ٢٠ .

المسجد الحرام ، والحكم الذي حملته الآية جاء لمصلحة الجهاد حيث رجحت كفته على تلك الأعمال ، وفي الآية الثانية تفصيل وتأكيد الحكم الذي انتهت به الآية الأولى ، حيث حددت الآية بعض لزوميات الجهاد في تلك الأثناء ، وهي الإيمان بالله والهجرة في سبيله ، ثم رصدت شكلين أو صورتين من صور ونماذج الجهاد مُعيّنة إياهما في الجهاد بالأموال والجهاد بالأنفس ، وأعقبت ذلك بالتأكيد على الحكم في الآية السابقة مع بيان درجة الأفضلية ومستوى الأجر .

وقال تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1] ، تحمل هذه الآية الكريمة موازنة بين أعراض الحياة الزائلة مثل كثرة الأهل والأموال والتجارة والمساكن ، وبين حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله بكل صوره ونماذجه ، ثم تقرر أن من فضلّ العرض الزائل على الأصيل الباقي فقد فسق عن أمر الله ، وترتب الآية الجهاد في سبيل الله في المرتبة الثالثة بعد حب الله ثم حب الرسول الكريم .

وقال تعالى ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2] ، تذكر هذه الآية الكريمة الجهاد في أشهر صورتيه ، وهما الجهاد بالمال والجهاد بالنفس ، وتحض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله لما فيه من الخير الكثير .

وقال تعالى ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3] ، تبين هذه الآية الكريمة حال المؤمنين بالله واليوم الآخر ، فهم

---

[1] . سورة التوبة : ٢٤ .
[2] . سورة التوبة : ٤١ .
[3] . سورة التوبة : ٤٤ .

ماضون في الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، لا يستأذنون الرسول في القعود أو التخلف ، والله أعلم بهم .

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] ، تحمل هذه الآية الكريمة أمراً من الحق تبارك وتعالى إلي رسوله الكريم بأن يجاهد الكفار والمنافقين ، ويستفرغ في ذلك كل جهده بوسيلتين : الأولى : بإقامة الحجة عليهم ، والثانية : بقتالهم ، وهنا يتضح أن جهاد الرسول الكريم ضد الكفار والمنافقين ، وهو يتسم بالخصوصية والتفرد ، قد جمع بين الجهاد بالحجة والمنطق والعقل ، والجهاد بالصراع العضوي الذي هو القتال ، وترتيب النموذجين من الجهاد ذو دلالة في هذا الموضع .

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] ، تبين هذه الآية الكريمة أن الجهاد علي قدر الطاقة والوسع ، فكل يجاهد بما قدر له من المال والجهد العضلي أو الذهني .

وقال تعالى ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾[3] ، تركز هذه الآية الكريمة كذلك علي الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾[4] ، وتحمل هذه الآية الكريمة كذلك دلالة علي أشكال الجهاد في

---

[1] . سورة التوبة : ٧٣ .
[2] . سورة التوبة : ٧٩ .
[3] . سورة التوبة : ٨١ .
[4] . سورة التوبة : ٨٦ .

سبيل الله ، وهي النفس والمال ، يستنبط ذلك من لفظة " أولى الطول " ، التي تعني أصحاب القدرة على الجهاد بالنفس والمال .

وقال تعالى ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] ، تؤكد هذه الآية الكريمة على الجهاد بالمال والنفس .

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] ، قرنت هذه الآية الكريمة الجهاد بالصبر .

وقال تعالى ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[3] ، تحمل هذه الآية الكريمة أمراً من الخالق سبحانه بالجهاد في سبيله بكل ما أوتي المسلم من طاقة مادية وجهد جسماني .

وقال تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[4] ، تبين هذه الآية نموذجاً آخر للجهاد ، لم يذكر من قبل ، وهو الجهاد بالقرآن ، حيث يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بأن يجاهد الكافرين بما في القرآن من حجج وبراهين وعبر ، حتى يتبين لهم أنه الحق من عند ربهم .

---

[1] . سورة التوبة : ٨٨ .
[2] . سورة النحل : ١١٠ .
[3] . سورة الحج : ٧٨ .
[4] . سورة الفرقان : ٥٢ .

وقال تعالى ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] ، ترشد هذه الآية الكريمة إلي جهاد النفس بمحاربة شهواتها ، وهذا نموذج آخر من نماذج الجهاد في سبيل الله ، وقد يكون من أهم النماذج ومدخلها إلي النماذج الأخرى .

وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] ، وتشير هذه الآية الكريمة إلي الجهاد بكافة صوره ونماذجه المذكورة .

وقال تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾[3] ، تبين هذه الآية الكريمة أن الله يختبر عباده المؤمنين بالتكاليف الشاقة ، حتى يعلم الذين يجاهدون أنفسهم ويجبرونها علي الطاعة ويصبرون علي ذلك ، وبذا يكون الجهاد في هذه الآية هو جهاد النفس .

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[4] ، تحدد هذه الآية الكريمة أهم صفات المؤمنين بأنهم هم الذين آمنوا بالله ورسوله وتأصل الإيمان ووقر في قلوبهم ، ثم جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وهما أشهر صور الجهاد .

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[5] ، تورد هذه الآية الكريمة الخروج وترك الديار أو الهجرة علي أنه جهاد في سبيل الله .

---

[1] . سورة العنكبوت : ٦ .
[2] . سورة العنكبوت : ٦٩ .
[3] . سورة محمد : ٣١ .
[4] . سورة الحجرات : ١٥ .
[5] . سورة الممتحنة : ١ .

وقال تعالى ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1] ، رتبت هذه الآية الكريمة الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس في الدرجة الثالثة بعد الإيمان بالله ورسوله .

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[2] ، في هذه الآية الكريمة ورد جهاد الكفار والمنافقين بالحجة والبرهان علي أنه أمر النهي من الله لرسوله .

- مقترح الأمة المقاتلة في مصادر الطرح الإسلامي :

بعد أن عرضنا لما ورد في كتاب الله العزيز حول فكرة " **الأمة المجاهدة** " ، نتصدى في هذه الجزئية لمقترح آخر تداخل مع فكرة " الأمة المجاهدة "،وهو مقترح " **الأمة المقاتلة** " ، وسوف نتابع هذا المقترح في القرآن الكريم ، ثم في سنة الرسول العظيم ، وبعد ذلك نعمد إلي إيضاح العلاقة بين الفكرة الأولى والمقترح الثاني ، وموقع كل منهما في الطرح الإسلامي المعاصر الذي يتعامل مع مستجدات الزمن ومتغيرات العصر .

• مقترح " الأمة المقاتلة " في القرآن الكريم :

كما تابعنا آيات الذكر الحكيم التي وردت بخصوص الجهاد ، نتابع الآيات التي وردت بخصوص القتال ، الذي هو شكل من أشكال الجهاد ، أو بالأحرى هو آخر درجات الجهاد وأكثرها عنفاً . وأداة الصراع العضوي .

قال تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[3] ، لعل هذه الآية الكريمة هي أول آيات الأمر الإلهي المباشر للرسول الكريم

---

[1] . سورة الصف : ١١ .
[2] . سورة التحريم : ٩ .
[3] . سورة البقرة : ١٩٠ .

وللمسلمين بالقتال ، وقد نزلت في صلح الحديبية . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صُدَّ عن البيت ، ثم صالحه المشركون علي أن يرجع عامه القابل ، فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء ، وخافوا أن لا تفي قريش بذلك ، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم ، وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام ، فأنزل الله ذلك .

وبالرغم من خصوصية الواقعة التي نزلت بشأنها هذه الآية الكريمة ، إلا أنها قد حملت أكثر من مبدأ عام يرسخ الطرح الإسلامي فيما يتعلق بمسألة القتال ومقترح الأمة المقاتلة . ونبسط لهذه المبادئ فيما يلي :

○ إن هناك أمراً من الحق تبارك وتعالى بالقتال في " وقاتلوا " ، والأمر من الخالق واجب وفريضة حال تحقق الشروط التي تستلزم تحققه ، وسترد تلك الشروط حالاً .

○ إن القتال ينبغي أن يكون في سبيل الله خالصاً ، لا من أجل عرض من عوارض الحياة أو مأرب شخصي أو مجد ذاتي .

○ إن أول الشروط التي تستوجب قيام المسلمين بقتال المشركين والكافرين . هو أن يبادر هؤلاء بقتال المسلمين فعلياً أو يتهيئون لذلك ، وهنا قال سبحانه " الذين يقاتلونكم " أي الذين يباشرون فعلياً أفعال القتال المعروفة ويدخل في ذلك الاستعداد لها ، ولو قال سبحانه قاتلوا في سبيل الله الكفار والمشركين ، لكان قرار القتال مطلقاً في يد المسلمين دون شروط ، ولكان بإمكانهم مبادرة الكافرين والمشركين بالقتال في أي وقت ولأي سبب من الأسباب ، ولكنه سبحانه قال " الذين يقاتلونكم " وهنا شرط علي المسلمين أن يقاتلوا المشركين والكافرين إذا أقدموا علي القتال .

○ لقد أكد الحق تبارك وتعالى الشرط السابق بأسلوب إنشائي جاء في صيغة النهي ، حيث قال " ولا تعتدوا " أي لا تبدءوا بالقتال تعدياً وجوراً ، ولا تلتمسوا الذرائع والسبل التي تبرر لجوؤكم إلي القتال .

○ ثم أكد رب العزة التأكيد بتأكيد من نوع آخر يخشاه المسلمون ويرجون نقيضه ، وهو بغض الله وكرهه للمعتدى ، فالمسلمون يرجون حب الله ويبتغون إليه الوسيلة ، ومن ثم فهم لا ينبغي لهم أن يعتدوا حتى يفوزوا بذلك الحب ويتقوا كره الرب وبغضه .

وقال تعالى ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[1] ، تواصل هذه الآية الكريمة وضع المبادئ والأسس التي تنظم مسألة القتال وشرعية اللجوء إليه من قبل المسلمين . وذلك من خلال ما يلي :

○ إن المسلمين قد انجروا إلي القتال واضطروا إليه لرد العدوان الذي وقع عليهم من قبل المشركين ، وفي هذه الحالة عليهم أن يقتلوا أعداءهم حيث وجدوهم ، وأن يخرجوهم من حيث أخرجوهم وفي ذلك جزاء بالمثل .

○ لقد حاول المشركون أن يفتنوا المسلمين عن دينهم ، بتعذيبهم وإخراجهم من ديارهم، وأحكام العدالة تقضى بالمعاملة بالمثل ، والفتنة في الدين أشد وأكبر من القتل .

○ لقد نهى الله المسلمين عن القتال في الحرم إلا إذا اضطروا إلي ذلك اضطراراً ، وقاتلهم المشركون في الحرم ، في هذه الحالة عليهم أن يقاتلوهم ويقتلوهم في الحرم .

---

[1] . سورة البقرة : ١٩١ .

وقال تعالى ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ، تأتى هذه الآية الكريمة لتؤكد علي أن القتال من قبل المسلمين هو لرد العدوان ، فتحمل نوعاً من التواقف ، حيث أن توقف المؤمنين عن القتال متوقف علي انتهاء المشركين عن العدوان .

وقال تعالى ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] ، تبرز هذه الآية الكريمة سبباً من أسباب القتال ، وهو اتقاء الفتنة ، ففي قتال المشركين وكسر شوكتهم الحؤول بينهم وبين السيطرة علي المسلمين وفتنتهم عن دينهم ، ثم تردف هذا السبب بشرط يلغي وقوعه قيام ذلك السبب ، وهو انتهاء الكفار عن العدوان وكذا عن الفتنة ، عندئذ يتوقف المسلمون عن قتالهم ، ثم تؤكد ذلك بأن العدوان لا يكون إلا علي الظالمين ، الذين يظلمون المسلمين بالاعتداء عليهم وفتنتهم عن دينهم .

وقال تعالى ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3] ، تجمل هذه الآية الكريمة جملة الأسباب التي تُلجئ المسلمين إلي القتال ، وهي أن يُعتدى علي حرماتهم ، وهو ما يعنى كل ما يجب المحافظة عليه واحترامه ، وفي هذه الحالة عليهم أن يردوا العدوان ، ويعتدوا علي المعتدى بمثل عدوانه موضوعاً وقوةً وحجماً ، وتوصى هذه الآية المسلمين بألا يبالغوا في الاعتداء ويُزيدوا عن مثله ، وعليهم أن يتقوا الله في ذلك حتى يظل معهم يمدهم بعونه ونصره .

وقال تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[4] ، توضح هذه الآية الكريمة جانباً من

---

[1] . سورة البقرة : ١٩٢ .
[2] . سورة البقرة : ١٩٣ .
[3] . سورة البقرة : ١٩٤ .
[4] . سورة البقرة : ٢١٦ .

طبيعة النفس البشرية التي تكره القتال ، لأنه مقترن بالموت ، وهي بفطرتها تحب الحياة ، وبالرغم من كراهية المسلم للقتال إلا أن فيه خيراً كثيراً ، فهو رد للعدوان ، وصون للحرمات ، والعيش في عزة ووقار ، أما الشهادة ففيها الجنة والقرب من الله .

وقال تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] . جاءت هذه الآية الكريمة في واقعة بعينها ، فعن جندب بن عبد الله أن رسول الله صلي الله عليه وسلم أرسل بعثة وعليها عبد الله بن جحش ، فقاتلهم بن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام ، فأنزل الله تعالى " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه " الآية ، فقال بعضهم إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] . وبالرغم من خصوصية المناسبة التي نزلت فيها الآية الأولى ، إلا أنها تسير في نفس السياق الخاص بأسباب لجوء المسلمين إلي القتال ، وهي المتمثلة في الصد عن سبيل الله ، والكفر به ، والصد عن المسجد الحرام ، والاعتداء علي أهله وإخراجهم من ديارهم ، وفتنة المسلمين عن دينهم ، لأجل ذلك أباح الله للمسلمين القتال في شهر رجب الحرام وغفر لهم وأثابهم ، لأنهم لم يعتدوا ، بل جاهدوا في سبيل الله لرد العدوان ويرجون رحمة الله .

---

[1] . سورة البقرة : ٢١٧ .
[2] . سورة البقرة : ٢١٨ .

وقال تعالى ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] . يأتي الأمر من الحق تبارك وتعالى بالقتال في هذه الآية في سياق ما قدمنا من جملة الأسباب التي تُلجئ المسلمين إلي القتال لرد العدوان وصون حرماتهم .

وقال تعالى ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2] . تحمل هذه الآية الكريمة ترغيباً من الحق تبارك وتعالى للمؤمنين بالقتال في سبيله للدفاع عن دينه وحرمات المسلمين . وبوضح ذلك ويفسره الآية التالية .

حيث قال تعالى ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[3] ، فالقتال في هذه الآية الكريمة لدفع العدوان علي دين الله وحماية المستضعفين من المسلمين الذين كانوا في مكة وفتنوا عن دينهم .

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[4] . تبين هذه الآية أن المسلمين يقاتلون دفاعاً عن دين الله وصوناً لحرماتهم ، أما الكافرون فإنهم يقاتلون عدواناً وظلماً .

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[5] . نزلت هذه الآية الكريمة في

---

[1] . سورة البقرة : ٢٤٤ .
[2] . سورة النساء : ٧٤ .
[3] . سورة النساء : ٧٥ .
[4] . سورة النساء : ٧٦ .
[5] . سورة النساء : ٧٧ .

واقعة بعينها ، فقد روى بن عباس ، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا نبي الله ، كنا في عز ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، قال : إني أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوّله الله إلي المدينة أمره بالقتال فكفوا ، أي امتنعوا فنزلت هذه الآية الكريمة ، حيث تحضهم علي القتال دفاعاً عن دين الله وصون حرمات المسلمين .

وقال تعالى ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾[1] ، في هذه الآية الكريمة أمران للرسول الكريم : الأول : أن يقاتل في سبيل الله لنصرة دينه ودفاعاً عن المسلمين ، والثاني : أن يحرض المؤمنين علي القتال معه ، وعلة ذلك أوضحتها الآية ، حيث ذكرت أن قتال المسلمين سيخيف الكافرين ويكف بأسهم ويردعهم .

وقال تعالى ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[2] ، نزلت هذه الآية في شأن كفار قريش الذين ناصبوا الرسول والمسلمين العداء، وكرروا الاعتداء عليهم رغبة في القضاء علي الدين ، فحذّر الحق تبارك وتعالى المسلمين من أن يتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا ويهاجروا في سبيل الله ، فإذا لم يفعلوا ذلك وأعرضوا وأصّروا علي العدوان والاعتداء عليكم ، فقاتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم أولياء أو أصفياء .

وقال تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا

---

[1] . سورة النساء : ٨٤ .
[2] . سورة النساء : ٨٩ .

جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾[1] . نزلت هذه الآية الكريمة في حادثة بعينها ، ولكنها تحمل مبادئ عامة تتعلق بالقتال . فلقد بيّن الحق تبارك وتعالى شأن القوم الذين يلتجئون إلي قوم بين المسلمين وبينهم ميثاق وعهد ، ولم يبادءوا المسلمين بالقتال، بل طلبوا مسالمتهم فعلى المسلمين أن ينتهوا عن قتالهم ويبادلوهم السلام .

وقال تعالى ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾[2] . توضح هذه الآية الكريمة شأن قوم آخرين يطلبون أمان قومهم وأمان المسلمين . ولكنهم قوم سوء وكفر يحاولون الدس للمسلمين والإيقاع بهم ، فإذا لم ينتهوا عن سلوكهم المشين ويكفوا عن التحرش بالمسلمين ، فعلى المسلمين أن يطلبوهم ويقتلوهم في أي مكان وجدوهم فيه .

وقال تعالى ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[3] ، في معرض حديثنا عن القتال عرضنا لهذه الآية الكريمة التي توضح عظم الجرم وجسامة الذنب لمن يقتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض ، فقد شبّهته الآية بمن يقتل الناس جميعاً ، وفي هذا تنبيه إلي ضرورة أن تتحرى الجيوش الدقة وتتحقق من موجبات القتال قبل لجوئها إليه .

---

[1] . سورة النساء : ٩٠ .
[2] . سورة النساء : ٩١ .
[3] . سورة المائدة : ٣٢ .

وقال تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] ، كذلك تأتى هذه الآية الكريمة لتوضح النهى المطلق من الحق تبارك وتعالى عن قتل النفس إلا بالحق .

وقال تعالى ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2] ، تبدأ هذه الآية الكريمة بحض المسلمين على قتال المشركين الذين يعتدون عليهم ، ولذلك جاء فعل الأمر " قاتلوهم " وليس " اقتلوهم " ، فالقتال بين طرفين والقتل من طرف واحد ،وبعد الأمر بالقتال الذي جاء في صدر الآية أوضح الحق تبارك وتعالى علة ذلك القتال وسببه في جب الفتنة التي يثيرها المشركون بالإساءة إلى المسلمين وتعذيبهم حتى يرتدوا عن دينهم ، وعندئذ يكون الدين كله لله .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[3] ، تأمر هذه الآية الكريمة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يحث المؤمنين ويحضهم على القتال ، والقتال هنا ليس للاعتداء بل دفاع عن الدين واتقاء الفتنة .

وقال تعالى ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] ، نزلت هذه الآية الكريمة من سورة التوبة في المشركين الذين نقضوا العهد مع رسول الله

---

[1] . سورة الأنعام : ١٥١ .
[2] . سورة الأنفال : ٣٩ .
[3] . سورة الأنفال ٦٥ .
[4] . سورة التوبة . ٥ .

والمسلمين ، وقد كان نقضهم لعهدهم كفيلاً بأن يبيح للمسلمين قتال المشركين ، إلا أن الأشهر الحُرُم حالت بين المسلمين وبين القتال ، فأرشدت الآية إلي أنه بانقضاء الأشهر الحُرُم علي المسلمين أن يبادروا بقتل المشركين ، ويبحثوا عنهم في كل مكان لأنهم قوم معتدون .

وقال تعالى ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾[1] ، توضح هذه الآية الكريمة في جلاء أن لجوء المسلمين لقتال المشركين لا يأتي إلا مترتباً علي تعديات يقوم بها المشركون ، أولها : نكث العهد ، وثانيها : الطعن في الإسلام ، وإذا كانت هذه هي أسباب قتال المسلمين للمشركين ، فإن هدف ذلك القتال يتمثل في إجبار المشركين علي عدم التعرض للإسلام والطعن فيه .

وقال تعالى ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] ، تواصل هذه الآية الكريمة التأكيد علي أن قتال الكفار لم يأت اعتداءً وتعدياً ، ولكنه جاء بسبب نكثهم أيمانهم وإخراجهم الرسول من مكة ، ومبادأتهم بالاعتداء علي المسلمين وإيذائهم ، فكان حقيقاً علي المسلمين أن يقاتلوهم ولا يخشوهم .

و قال تعالى ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] ، نزلت هذه الآية الكريمة في خزاعة حلفاء النبي ، حيث أمروا بأن يقاتلوا بني بكر في مكة ، وهم كانوا قد اعتدوا عليهم وآذوا المسلمين .

---

[1] . سورة التوبة : ١٢ .
[2] . سورة التوبة : ١٣ .
[3] . سورة التوبة : ١٤ .

وقال تعالى ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[1] ، تعد هذه الآية الكريمة هي الوحيدة التي وردت في أمر المسلمين بقتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وهذا القتال ليس هدفاً أو غاية في حد ذاته ، ولكنه دفعاً لعدوان هؤلاء ومكرهم ودسهم للمسلمين ، كما أن القتال لا يستهدف فرض الإسلام عنوة على أهل الكتاب ، وإنما جاء لتخييرهم بين الإسلام أو الجزية ، والجزية ليست عوضاً عن الإيمان ، ولكنها مقابل تكفل الدولة بحماية الأنفس والأموال والأعراض والعقيدة التي كفلت حريتها ، فالذمي لا يكلف حرباً ، ولا يدفع للدولة زكاة ، فالجزية تجب عنه كل ذلك ، كما أن الآية قد نصت على ضرورة مقدرة الذمي على دفع الجزية بما لا يشق عليه فذكرت "عن يد" ، وقد كان الخلفاء ومنهم عمر بن الخطاب يعفى غير القادرين من الذميين من دفع الجزية ، بل إن ابن الخطاب كان يعطى فقراء اليهود من الزكاة ، إذن فقتال أهل الكتاب لم يكن هدفه فرض الإسلام ، ولو كان الأمر كذلك لما خيّرهم بين الإسلام والجزية ، ولما كفل لهم حرية العقيدة ، وحماية تلك العقيدة في كنف دولة الإسلام .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2] ، تحمل هذه الآية الكريمة أمراً من الخالق سبحانه بقتال المشركين كافة ، وفي ذلك معاملة بالمثل أساسها أن المشركين يقاتلون المسلمين كافة ، وهنا يطرح سؤال : هل تعنى هذه الآية أن

---

[1] . سورة التوبة - ٢٩ .
[2] . سورة التوبة - ٣٦ .

أمة المسلمين جميعها أمة مقاتلة ؟ لقد قامت هذه الآية علي قاعدة المثلية أو المعاملة بالمثل ، فالمناسبة أو الواقعة التي نزلت فيها الآية ارتبطت بوضعية بذاتها ، وهي أن المشركين يقاتلون المسلمين كافة ، فعلي المسلمين أن يقاتلوهم كافة، وإذا انتقلنا إلي الواقع الراهن لأيقنا باستحالة تحقق هذه الصورة من القتال " القتال كافة " ، ومن ثم فمبدأ المثلية التي دعت إليه الآية قائم ومقبول ، ولكن شروط تحققه التي أولها وأهمها أن يبدأ العدو " بالقتال كافة " قد لا تتحقق في الوقت الراهن .

وقال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1] ، لقد كان المسلمون أحرص ما يكونون علي الجهاد في سبيل الله ، وعندما نزلت الآية الكريمة الخاصة " بالقتال كافة " ثم الآية الكريمة ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] ، كان المسلمون إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة خرجوا فيها، وتركوه بالمدينة في عدد قليل من الناس غير القادرين علي الجهاد ، فنزلت " وما كان المؤمنون لينفروا كافة " الآية " وهذا يعود بنا مرة أخرى إلي السؤال الذي طرحناه أعلاه والخاص بصعوبة تحقق " القتال كافة " الذي جاء في ظروف ذات خصوصية في كل الأحوال، وإذا كانت تلك الصعوبة قد برزت في زمن الرسول الكريم ، واستوجبت نزول الآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها ، فمن باب أولى أن تكون تلك الصعوبة أكثر بروزاً وتأثيراً في الوقت الراهن .

---

[1] . سورة التوبة : ١٢٢ .
[2] . سورة التوبة : ٣٩ .

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ، تحمل هذه الآية الكريمة أمراً من الخالق سبحانه بقتال الكفار الذين يتتبعون المسلمين للإيقاع بهم والاعتداء عليهم .

وقال تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[2] ، نزلت هذه الآية الكريمة في رسول الله حال خروجه من مكة مهاجراً إلي المدينة وبرفقته الصديق أبو بكر ، فعن بن عباس قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ، فقال أبو بكر : اخرجوا نبيهم ليهلكن ، فنزلت هذه الآية ، وهي من الآيات الكريمة التي تأذن للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم بشتى السبل ومنها القتال .

وقال تعالى ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾[3] ، نزلت هذه الآية الكريمة في غزوة الأحزاب ، وفي يهود بني قريظة الذين عاونوا الأحزاب ضد المسلمين ، فلم يكن أمام المسلمين من بد إلا قتال هؤلاء فقُتل منهم من قتل وأُسر من أُسر .

وقال تعالى ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[4] ، هذه الآية جاءت في حق الأعراب الذين تخلّفوا عن الجهاد مع رسول الله والمسلمين ، وهي اختبار لإيمان هؤلاء وتمحيص لما في قلوبهم ، حيث تدعوهم إلي قتال قوم هم أصحاب شدة وقوة في الحرب تعرضوا للمسلمين ، فصار قتالهم فرضاً لا مناص منه ، ونتيجة هذا القتال لابد أن تنتهي بمقتل هؤلاء أو دخولهم الإسلام .

---

[1] . سورة التوبة : ١٢٣ .
[2] . سورة الحج : ٣٩ .
[3] . سورة الأحزاب : ٢٦ .
[4] . سورة الفتح : ١٦ .

وقال تعالى ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1] ، توضح هاتان الآيتان الكريمتان كيف يتعامل المسلمون مع غيرهم . وترتكز هذه الكيفية على أساسين : الأساس الأول : من لم يتعرضوا للمسلمين . ولم يعتدوا عليهم ، ولم يمسوا دينهم ، ولم يخرجوهم من ديارهم ، ولم يناصروا من يعتدي عليهم ، هؤلاء لا جناح على المسلمين في أن يتعاملون معهم بالرفق واللين ، ويقيمون معهم العلاقات الطيبة ، الأساس الثاني : من تعرضوا للمسلمين واعتدوا عليهم ، وأساءوا إلي دينهم وأخرجوهم من ديارهم، وناصروا من اعتدى عليهم ، هؤلاء لا ينبغي للمسلمين أن يتعاملوا معهم أو يحسنوا إليهم، ويقيموا معهم علاقات طيبة ، إلا إذا اقلعوا عن كل ما يفعلون ، ويأتون بعكسه ، حتى يتثبت المسلمون من صدقهم وحسن نيتهم .

– فكرة "**الأمة المجاهدة** "الأمثل والأبقى والأقدر على التعامل مع الواقع :

بعد أن استعرضنا مدركي " الأمة المجاهدة " و " الأمة المقاتلة " في القرآن الكريم ، نخلو في هذه الجزئية إلي المقارنة بين المدركين واستخلاص : أيهما الأمثل والأبقى والأقدر على التعامل مع الواقع المعاصر ، وذلك من خلال الآتي :

- من خلال العرض المتقدم تبيّن أن الجهاد أكثر اتساعاً وشمولاً لنماذج وصور عديدة من العمل في سبيل الله ، يبدأ بمجاهدة النفس ، والجهاد في سبيل تلبية متطلبات الأسرة والأهل ، والجهاد بالقرآن وإقامة الحجة ، والجهاد في سبيل تأمين متطلبات الجيش المقاتل ، وحفظ كيان الجبهة الداخلية والمجتمع ، والجهاد بالمال ، وفي ذلك يروى أن

[1] سورة الممتحنة : ٨-٩ .

رجلاً أقبل علي نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبايعك علي الهجرة والجهاد ، أبتغي الأجر من الله تعالى فقال : " هل لك من والديك أحد حي ؟ قال : نعم ، بل كلاهما ، قال : " فتبغي الأجر من الله تعالى " ؟ قال : نعم ، قال : " فارجع إلي والديك فأحسن صحبتهما " ، وكان الرسول يقول عقب عودته من البعثات : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلي الجهاد الأكبر " ، أي رجعنا من القتال الذي هو شكل واحد من أشكال الجهاد إلي جهاد الحياة الذي هو كل أشكال الجهاد في سبيل الله .

في حين أن القتال هو شكل واحد ، يتمثل في إدارة الصراع العضوي ، ويعد هو آخر درجة من درجات الجهاد وهو الجهاد بالنفس .

• إن الجهاد بكافة صوره مطلوب في كل الأوقات والأحيان ، فالأمة الإسلامية بطبيعتها أمة مجاهدة ، تجاهد في سبيل تقديم الأنموذج والمثال في كل أمور الحياة ، وهذه أجلّ وأسمى صور وأساليب الدعوة إلي الله بإعلاء دينه وترقية شرعه .

أما القتال فله وقت محدد وهو حالة الحرب أو الصراع العضوي ، وإن كان للقتال أهميته التي لا يمكن التغافل عنها ، إلا أنه يظل استثناءً علي المعتاد .

• الجهاد في شموله وعموميته يدعم موقف المقاتلين عندما يتم اللجوء إلي القتال ، فهو الذي يشكل الأرضية الصلبة والخلفية المتينة للجيوش المحاربة ، وبدونه لا يقدّر لتلك الجيوش تحقيق أهدافها في الدفاع عن الحمى وصيانة الحرمات .

• الجهاد يعني التقوّى ، ويفيد الاستعداد الدائم ، ويوفر جانباً كبيراً من الردع والتخويف ، وينتهي بإقامة جيش قوى ، ويساهم كل ذلك في صياغة ما ندعو إليه من فكرة " الردع الشامل "[1] ، التي تبدأ بالجهاد وتنتهي بالقتال .

---

[1] . لتحصيل أكثر حول نظريتنا في الردع الإسلامي الشامل التي تبدأ بالجهاد وتنتهي بالقتال لرجع إلي المجلد التاسع ، الحرب في الإسلام ، الجزء الثاني : الحرب المعاصرة .

- الجهاد هو خط الدفاع الأول عن الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية ، فهو الفعل الدائم والحركة الدائبة من أجل تقديم الأنموذج والمثال في الحضارة والثقافة ، أما القتال فهو خط الهجوم الأخير ، ولا يُلجأ إليه إلا في حالة تهديد الذات الحضارية للإسلام ، أو التعدي علي منطقه الثقافي الخاص ، والأول دائماً وأبداً يقوي الأخير .

- الجهاد محبب للنفس ، يتلاقى مع طبائع النفس البشرية حول الرغبة في العطاء والاجتهاد وينسجم مع الإرادة الإنسانية في الوئام والتفاهم والسلام ، أما القتال فهو كريه إلي النفس ثقيل عليها ، ومن ثم فهو يمثل الاستثناء ، أما الجهاد فيمثل الاعتياد .

- ينبغي التفرقة الواضحة بين الجهاد والقتال في الطرح الإسلامي ، وهذه التفرقة ينبغي أن تكون واضحة لدى أبناء الإسلام ، حتى يقدّر لهم الفهم الدقيق والواضح لإمكانيات ومنطلقات وأهداف حركتهم في المعترك الدولي ، فأمتهم أمة مجاهدة بطبيعتها وأصولها وتكوينها ومقاصدها ، مقاتلة عندما تضطرها الظروف وتجبرها التطورات للدفاع عن ذاتها ومقدراتها .

- لقد سبق وأوضحنا أن الإسلام قد انتشر وترسخ في عقول وقلوب الأمم والشعوب بالجهاد وليس بالقتال ، وقد تعرض الإسلام لانتكاسة حضارية وثقافية مروعة عندما تخلى عن فكرة الجهاد وأساء فهمها ، وهاهو الآن أحوج ما يكون إلي فهم دقيق وعميق لفكرة الجهاد ، حتى يمكنه أن يقيم تواصلاً حضارياً وثقافياً يربط به ما انقطع ، ويعيد به ما سلف .

- مما تقدم يمكن الانتهاء إلي أن فكرة " الأمة المجاهدة " هي الأمثل والأبقى والأقدر على التعامل مع الواقع ، وهي تبدأ بالجهاد بكافة صوره وأشكاله ، حيث السعي الدؤوب نحو بناء الحضارة وإنتاج الثقافة ، وهذا السعي يمكن أن ينتهي " بالأمة المجاهدة " إلي " أمة مقاتلة " إذا تعرضت للعدوان أو التعدي .

- الجهاد " كعطاء فعّال " :

بعد أن أجرينا مقارنة بين " فكرة الأمة المجاهدة " و " مقترح الأمة المقاتلة " ، نقترب مرة أخرى من فكرة الجهاد ، حيث نحاول أن نتتبعها في منطلقاتها المتدرجة ونصل معها إلي نهايتها ، ونحاول إجلاء الغيم عن هذه الفكرة علها تفيد الأمة :

• في معنى الجهاد :

الجهاد هو استفراغ كل ما في الوسع ، وهو أيضاً بذل أقصى الجهد ، والمجاهدة تعد مرادفاً للجهاد ، وكل منهما يعنى أو كلاهما يعنى تحفيز مقدرات ومكنات الإنسان ، وتوجيهها نحو هدف محدد ، فللجهاد إذن منطلقات ، وله كذلك مسارات ، وله آليات وأدوات ، وله أخيراً أهداف ومقاصد ، ومعنى ذلك أن الجهاد عملية مركبة ، لها أبعاد نفسية خفية تتعلق بالتعبئة الذاتية والتحفيز الداخلي ، ولها كذلك أبعاد عقلية فكرية ترتبط بالفكر الرشيد الذي ينبغي أن يقود ذلك التحفز والاستعداد ، ولها أيضاً أبعاد مادية ملموسة تتجسد في سلوكات تعبيرية ذات مدلولات خاصة ، ولها أخيراً أبعاد مثالية قيمية تتمثل في الأهداف التي تتوخاها تلك العملية .

• جهاد النفس والصبر علي المشاق :

جهاد أو مجاهدة النفس هي أولى درجات ومراتب الجهاد في سبيل الله ، ومضمونها إجبار النفس وإلزامها علي اتباع الأوامر الإلهية واجتناب النواهي ، وتبلغ المجاهدة والمشقة أقصاها كلما كانت النفس مارقة جامحة في طريق الغواية والهوى ، وكلما اقتربت النفس من الطريق القويم ، كلما خفت هذه المجاهدة ، ويصل جهاد النفس إلي منتهاه عندما تطمئن وتسكن وتستقر علي الإيمان والتقوى ، وجهاد النفس وفق الوصف المتقدم هو تمحيص للإيمان وترسيخ له في القلب والعقل .

وجهاد النفس يشكل المنطلق الأول الذي منه تتدرج المنطلقات الأخرى ، فهو إعداد وتهيئة للنفس الإنسانية ، كي تنتقل إلي مرحلة أخرى من مراحل الجهاد ، ولابد للمسلم الذي أزمع الجهاد في سبيل الله ، أن يمر بهذه المرحلة ، وبدونها لن يتمكن من الترقي للمراحل الأخرى ، وقد تكون هذه المرحلة هي أكثر المراحل مشقة وصعوبة .

ولذلك فقد ارتبطت هذه المرحلة بالصبر والجلد ، نظراً لما يكتنفها من عسر ونصب ومكاره شتى ، ويجتاز أصحاب العزائم القوية هذه المرحلة بسهولة ويسر ، وينتقلون إلي المراحل التي تليها ، وما أحوج أبناء الأمة في هذه **الأيام إلي** جهاد النفس .

- الجهاد بالقرآن :

المرحلة التالية لجهاد النفس هي الجهاد **بالقرآن** ، والجهاد الأخير يتطلب علماً عميقاً وراسخاً بكتاب الله ، ظواهر المعاني وبواطنها ، أسباب النزول ، خصوصية المناسبات وعمومية المبادئ والأحكام ، ما عجز العقل البشري عن تفسيره في الذكر الحكيم فقد احتفظ الله سبحانه بعلمه ، علاقة القرآن بالسنة ، فالسنة مفسرة لما خفي أُحجب ، ومفصلة لما أُجمل ، ومكملة لما سكت عنه الذكر الحكيم .

إن الجهاد بالقرآن هو جهاد الخاصة بل وخاصة الخاصة ، وإمام هؤلاء هو الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فقد جاهد الكفار والمشركين بالقرآن ، وتبعه في ذلك خلفاؤه الراشدون ، وتبعهم العلماء الأجلاء من أبناء هذه الأمة ، والذين يتناوبون حمل لواء الجهاد بالقرآن جيلاً بعد جيل .

لقد كثرت وتباينت الهجمات الشرسة في عصرنا الراهن علي الذكر الحكيم ، وهذه الهجمات دليل واضح علي كثرة المتربصين المرجفين ، الذين يضمرون الشر لهذه الأمة ، والذين يحسدونها على نعمة الإسلام ويتمنون زوالها ، وعليه فنحن نهيب بمجاهدينا

الذين رفعوا لواء الجهاد بالقرآن ، أن يتصدوا لتلك الهجمات ليردوا كيدها في نحرها ، والانتصار لكتاب الله وبكتاب الله .

• الجهاد بالحجة والبرهان :

المرحلة التالية هي الجهاد بالحجة والبرهان ، وهذه المرحلة تتم علي جبهتين : الأولى : جبهة الرد علي المرجفين الهادفين إلي الإساءة إلي الإسلام وحضارته وثقافته وأمته ، والثانية : جبهة الدعوة إلي دين الله ونشر الإسلام ، والعمل علي هاتين الجبهتين يتم من خلال تقديم الطرح الإسلامي المستنبط من الأصول والمصادر الشرعية ، المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ونماذج الممارسة في دولة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين ، وإقران ذلك الطرح بأدوات وآليات الحركة ، التي تنقل ذلك الطرح من طور الفكر والنظر إلي طور الفعل والحركة ، وتثبت للمرجفين والمدعوين معاً أن الإسلام هو سبيل الحياة الطيبة ، حيث تسمو الروح علي المادة وتعلو القيمة وترتفع الفضيلة .

إن الجهاد بالحجة والبرهان أو الحكمة والموعظة الحسنة يعني أن نبذل أقصى الجهد وطاقة ما في الوسع من أجل تقديم إنجازين ثمينين : الأول : الطرح الإسلامي الذي ذكرنا سلفاً فيما يتعلق بكافة نشاطات الإنسان وأوجه حركته في الكون والحياة ، والثاني : التجارب أو نماذج الممارسة العملية التي تنقل الطرح من الفكر والنظر إلي الواقع ، وتقيم الحجة علي الذين يشككون في صلاحية الطرح الإسلامي لأن يشكل نظاماً ، ثم يقدحون في النظام الإسلامي إذا قام وأنتصب !! ، إن الجهاد بالحجة والبرهان هو الجهاد الذي يبني الحضارة ويفرز الثقافة ، ويعد من أهم أدوات وآليات التواصل الحضاري والثقافي الإسلامي في الوقت الراهن .

- الجهاد بالمال :

ثم يأتي الجهاد بالمال كأحد أشكال وصور الجهاد في سبيل الله ، ولقد اختلف أمر الجهاد بالمال في الوقت الراهن عنه في فجر الإسلام وعهد الرسول الكريم ، ففي بداية الدعوة كانت الدولة ناشئة وتنقصها الموارد المالية والمصادر الاقتصادية التي تمكّنها من الإنفاق علي الجيش وتجهيزه، فكان إنفاق الأفراد مورداً أساسياً ومصدراً رئيسياً لتجهيز الجيش الإسلامي ، وتمكينه من أداء مهمته في الدفاع عن الدولة الناشئة ، وحمل الدعوة إلي بقاع الأرض ، ولذلك تعددت الآيات الكريمة التي ورد فيها الجهاد بالنفس مسبوقاً بالجهاد بالمال .

وبعد أن اتسعت مساحة الدولة الإسلامية ، وامتدت رقعتها ، تعددت وتنوعت مصادر الثروة فيها ، وبات الاعتماد علي الإنفاق المباشر من الأفراد يتم في أضيق الحدود ، وفي الظروف والأحداث ذات الخصوصية مثل الأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية ، إلا أن الاعتماد علي الإنفاق غير المباشر من الأفراد في شكل ضرائب ظل هو السمة المميزة لمعظم فترات تاريخ الدولة الإسلامية بعد انتهاء الخلافة الراشدة ، فكانت الدولة تلجأ إلي فرض الضرائب إضافة إلي الزكاة لتجهيز الجيوش وتمويل الحروب ، وازدادت وطأة هذه المسألة في فترة التفكك والانهيار .

وفي العصور الحديثة والمعاصرة تعمد الدول الإسلامية ذات الموارد المحدودة إلي فرض أنواع وصنوف شتى من الضرائب علي أفراد المجتمع ، وتخصيص قدر كبير منها للإنفاق علي الجيوش وتجهيزها ، فكل فرد في المجتمع يساهم في تجهيز الجيش ، من خلال ما يدفعه من ضرائب للدولة .

بالإضافة إلي ما تقدم ثمة وجوه أخرى للجهاد بالمال ، تتمثل في إنفاق المال في وجوه الخير التي تعود علي أفراد المجتمع بالنفع والفائدة ، مثل إنشاء دور العبادة والمؤسسات التعليمية ودور تحفيظ القرآن ودور كفالة الأيتام ودور كفالة ذوى الحاجة ، والمشاريع الاستثمارية التي تسعى لاستثمار الموارد البشرية والقضاء علي البطالة ودور الرعاية الصحية والاجتماعية .. الخ ، وهذه الوجوه تمثل في وقتنا الراهن أهم أشكال الجهاد بالمال .

لقد أصبح من أجّل وأعظم أشكال الجهاد بالمال في الوقت الراهن المساهمة ممن يملكون المال في حل مشاكل المجتمع الإسلامي ، ويتبلور لب هذه المشاكل في العمل علي تفعيل الطاقات المهدرة والمعطلة في ذلك المجتمع ، وتحويلها إلي عناصر منتجة ، وآلية ذلك التحويل تتمثل في التوزيع العادل لمقدرات الإنماء قبل توزيع ثماره ونتائجه ، إن توفير فرصة عمل منتج لفرد من أفراد المجتمع يحقق له " نطاق الغنى " ويكفل له " الحياة الطيبة " ، لهو جهاد في سبيل الله ، وما أعظمه من جهاد .

- الجهاد علي قدر الطاقة والوسع :

لقد أقر الشرع الحنيف قيمة العدالة ، وخص منها العدالة الاجتماعية ، ومفادها عدالة توزيع المقدرات والإمكانات حسب القدرة علي العمل والعطاء ، وكذا عدالة توزيع الأعباء وفق الطاقة والوسع ، والجهاد بكافة صوره وأشكاله التي قدّمنا لها إن هو إلا عبئاً ومجاهدة ، ولا تحّمل نفس فوق طاقتها ، ولا تكلف إلا وسعها .

فكل فرد من أفراد المجتمع مطالب بأن يجاهد بأي صورة من صور الجهاد شاء ، والمشيئة تعنى المقدرة والوسع ، وله كذلك أن يقدم القدر الذي يستطيع تقديمه دون إرهاق أو إعسار ، ولكن الجهاد فرض علي الجميع إلا ذوى الأعذار .

• فضل الجهاد :

جعل الله الجهاد بكافة صوره وأشكاله التي تناولناه من أعظم الأعمال وأجلّها ، فالجهاد في سبيل الله يأتي في المرتبة الثالثة بعد حب الله ثم حب الرسول ، لأنه تصديق بالعمل علي هذين الحبين ، فالجهاد بناء للمجتمع علي أفضل صورة وتقديم النموذج والمثال للحياة الطيبة ومجتمع المتقين ، وهو دفاع عن ذلك المجتمع وتلك الحياة ضد العدوان والتعدي ، ثم هو نشر للإسلام بالحجة والبرهان ، وتقديم نموذجه في كل مكان .

• الجهاد " عطاء فعّال " :

إن ما تقدم لينتهي بنا إلي خلاصة مؤداها أن الجهاد " عطاء فعّال " ، عطاء مؤثر ، محسوس وملموس في كافة المجالات والنشاطات ، يمارسه أفراد المجتمع ، كلٌ وفق ما يتيسر ويقدّر له وقدر طاقته وجهده ، فالكل يجاهد لكي يعطى ، وجميع العطاء يصب في معين المجتمع الذي لا ينضب ، هكذا كان وسيظل الجهاد في الإسلام " عطاءً فعّالاً " ، يحرك فعاليات المجتمع ويحفز طاقاته نحو بناء الحضارة وإفراز الثقافة .

– الجهاد " كصراع عضوي " :

الجهاد " كعطاء فعّال " يتدرج — كما سبق الإيضاح — في منطلقات متتابعة تبدأ بجهاد النفس والصبر علي المشاق ، ثم الجهاد بالقرآن ، فالجهاد بالحجة والبرهان ، ثم الجهاد بالمال ، وبعد ذلك تأتي آخر مراحل الجهاد وأشد درجاته ميلاً للعنف وهي مرحلة الصراع العضوي ، والجهاد كصراع عضوي لم يفهم في الشريعة الإسلامية حق الفهم ، ولم يُضع في سياقه الصحيح من الدعوة الإسلامية ، ولم يصنف بدقة في مفردات الحضارة والثقافة الإسلامية ، وسوف نقدم في هذه الجزئية محاولة لتصحيح الأوضاع الخاصة بفكرة " الجهاد كعطاء فعّال " و " الجهاد كصراع عضوي " ، من خلال الطروحات التالية :

• تدرجية نماذج الجهاد :

للجهاد نماذج وصور عديدة أحدها هو الصراع العضوي ، وهذه النماذج تمثل آليات ووسائل للجهاد ، وقد يأتي الجهاد محصوراً في نطاق هذه النماذج والأشكال دون أن يصل إلي الصراع العضوي .

• المسلمون لا يعرفون الجهاد إلا من نهايته :

لقد اعتاد المسلمون بعد عصر الخلافة الراشدة التعامل مع الجهاد من نهايته ، ومن أقصى درجاته ميلاً للعنف وهي الصراع العضوي ، فلقد أساء المسلمون أنفسهم خلال أواخر عصر الخلفاء وطيلة العصر الأموي فهم الجهاد ، واعتبروا أن الفتوحات التي تمت خلال تلك الفترة هي من قبيل الجهاد كصراع عضوي أو قتال ، إلا أن الواقع كان غير ذلك ، فالفتوحات التي تمت خلال عصر الخلفاء وكذا العصر الأموي جاءت في مسلكين يكمل كل منهما الآخر :

○ المسلك الأول : كان الجهاد بمثابة عملية إزاحة لمعوقات تبليغ ونشر الدعوة ، تلك المعوقات التي تمثلت في الحكام والسادة والمتنفذين ، الذين قهروا الشعوب وأعاقوا وصول الدعوة إليها .

○ المسلك الثاني : أن الجيش حمل الدعوة وأوصلها إلي الشعوب ، ولكن الدعاة هم الذين تولوا التبليغ ، والتبليغ قام علي التخيير والاختيار ، ولم يُفرض الدين تحت أي ظرف من الظروف .

ومفاد ما تقدم أن الجهاد كان بالقرآن وبالحجة والبرهان ، ولم يُلجأ إلي الصراع العضوي إلاّ في حالة الحؤول دون وصول الدعوة والتبليغ .

• الانتكاسات هي سبب إساءة فهم الجهاد :

لقد كان للانتكاسات التي مرت بها الدولة الإسلامية ومن ثم حضارتها وثقافتها ، وما نتج عنها من تفكك وانهيار أثر بليغ في تشويه صورة الجهاد وتركزه حول نموذج واحد فقط ، هو الصراع العضوي كمحاولة للخروج بالأمة من كبوتها ، وذلك أدى إلي إساءة فهم الجهاد وأصبح مقترناً بالعنف والقتال .

• الجهاد خِلعة سياسية وذريعة لتحقيق مآرب شخصية :

لقد تحول الجهاد خلال فترات غير قصيرة من تاريخ الدولة الإسلامية إلي أداة سياسية أو خِلعة يتزي بها كل من يريد تحقيق مآرب شخصية ، وساهم ذلك بشكل مباشر ورئيس في عدم فهم الجهاد ، واختلاط معناه بمفاهيم ومدركات أخرى ، وكل ذلك خلق نوعاً من التشويش الفكري والالتباس العقلي لدى المسلمين حول مفهوم الجهاد ، كما كان لدى نماذج الممارسة العملية في دولة الرسول وخلفائه الراشدين ، وكما جاء في مصادر الشريعة الإسلامية .

• الصراع العضوي هو الاستثناء والعطاء الفعّال هو المعتاد :

إن الجهاد في حقيقته بمثابة عطاء فعّال يحمل صفة الاستمرارية ، وهو واقع حياة الأمة ونهجها الطبيعي ، أما الصراع العضوي فهو الاستثناء والظرف الطارئ العارض في حياة الأمة ، والدائم الثابت له الأفضلية علي المؤقت العارض .

• الجهاد كعطاء فعّال يفيد الخلق والإبداع :

كما سبق وأوضحنا فإن كافة صور ونماذج الجهاد " كعطاء فعّال " تفيد الخلق والإبداع ، أما الصراع العضوي فهدفه الدفاع ورد الأعداء ، والحفاظ علي ما يحرزه الجهاد كعطاء فعّال من نماذج حضارية وإفرازات ثقافية .

• الأمة الإسلامية أمة مجاهدة وليست أمة مقاتلة :

لقد كانت الأمة الإسلامية منذ وجودها أمة مجاهدة ، خبرت كافة صور ونماذج الجهاد ، ولم تكن تلجأ إلي وضعية الجهاد كصراع عضوي إلا للدفاع عن مقدراتها ، أو لمحاولة النهوض من التردي ، حتى عندما كانت تلجأ إلي القتال لم تكن تكف عن مباشرة نماذج الجهاد الأخرى .

• الإسلام يملك حضارة مجاهدة وثقافة مكافحة :

كانت الحضارة الإسلامية حضارة مجاهدة والثقافة الإسلامية ثقافة مكافحة لا تميلان إلي الصراع العضوي ، ولعل ظهور الصراع في الموروث الحضاري والثقافي الإسلامي جاء أولاً لحمل الدعوة ، ثم للدفاع عنها وعن الذات الحضارية للإسلام ومنطقه الثقافي الخاص .

• الواقع المعاصر يفرض إبراز حقيقة مفهوم الجهاد في الإسلام :

إن التعامل مع الواقع المعاصر ومستجدات الزمن والرغبة في إضفاء صفات العالمية والإنسانية والموضوعية علي الطرح الإسلامي وهي صفاته الأصيلة ، يتطلب من المسلمين البحث عن الخصائص الحقيقية للجهاد والدلالات الأساسية له حتى لا يتجنوا علي الإسلام ويسيئون إليه .

– الجهاد " كصراع عضوي " فرض كفاية حتى في حالة الاعتداء علي المسلمين :

لقد جاءت كافة التشريعات الإلهية بما يتواءم مع قدرة وطاقة المكلفين بها ، وعندما تفوق أعباء التكليفات طاقات وقدرات المكلفين ، يتدخل التشريع الإلهي بالترخيص بالإعفاء الكلي أو الجزئي ، والدائم أو المؤقت ، وهكذا كان الحال بالنسبة للجهاد " كصراع عضوي " ، إلا أن ثمة اختلافاً فيما يتعلق بالجهاد " كصراع عضوي " ، ومكمن هذا الاختلاف أن الجهاد كصراع عضوي لم يُفرض في مصادر التشريع الإسلامي فرض عين ،

إلا في آية واحدة ، وقد جاءت علي سبيل المثلية أو المعاملة بالمثل ، ومعنى ذلك أنه لم يكن دأباً ونمطاً ثابتاً في نموذج الجهاد كصراع عضوي ، مفاد ما تقدم أن فرض الجهاد كصراع عضوي علي كل أبناء الأمة لم يكن مبدءاً راسخاً وأساساً ثابتاً يرتكز عليه الطرح الإسلامي فيما يتعلق بشرعية الجهاد ، وإنما ترك الأمر ليُقرر من جانب جماعة المسلمين وفقاً لظروفهم وأحوالهم . ولم يتم هذا التخيير بشكل عفوي ، ولكنه كان نتاجاً لعوامل كثيرة نذكر منها ما يلي :

- تأسيس الجيوش النظامية العاملة المتخصصة :

لقد عمدت الدول في جميع أنحاء العالم إلي تأسيس الجيوش النظامية المتخصصة التي تسلح بأحدث الأسلحة ، ويتم تدريبها علي أرقى الأساليب والوسائل ، والمفترض أن الدول الإسلامية لا تشذ عن هذا الإجماع ، فالجيوش الإسلامية باتت هي الأخرى جيوشاً نظامية متخصصة ومتطورة تسليحاً وتدريباً وعقيدة قتالية ، ومن شأن ما تقدم أن يجعل من مسألة فرض الجهاد كصراع عضوي علي أبناء الأمة كافة [فرض عين] محل نظر ، وذلك لأن الخدمة في الجيوش الحديثة تحتاج إلي مقدرات ذهنية وعقلية وربما عضلية بمواصفات خاصة ، ثم أن تطور الأسلحة قد يغنى عن العامل البشري الكثيف . وهكذا أصبحت مسألة حتمية انضمام كافة أبناء الأمة إلي الجيش الإسلامي الحديث مسألة غير مقبولة منطقياً وغير قابلة للتحقيق عملياً . ومن ثم فقد ترك التشريع الإسلامي فراغاً في هذه المسألة يُسد من خلال ما يراه أولو الأمر محققاً لمصلحة المسلمين .

- عدم توفر القدرة علي الجهاد " كصراع عضوي " :

آلى الحق تبارك وتعالى علي نفسه ألا يكلف نفساً إلا وسعها ، وألا يحملها فوق طاقتها ، وهو سبحانه إذا كان قد اختص الأمة الإسلامية بهذه الميزات ، فلأنها الأخير والأمثل

والأوسط والشاهدة علي الأمم الأخرى ، وهذه الأمة لا تنسب لنفسها هذه الصفات والخصائص ولا تزكى ذاتها ، ولكن الله هو الذي رفعها وزكّاها ، فمن الحري بها أن تنظر في كل أمورها بروية وإمعان ، وكانت مسألة الجهاد عموماً ونموذج الصراع العضوي منها خاصة جدير بكل تأمل ونظر ، فليس كل أفراد الأمة مؤهلين للجهاد في شكله النهائي [الصراع العضوي] لأسباب شتى ، فمنهم من لا تمكنه قدراته الجسمانية أو الذهنية أو الاجتماعية علي مباشرة ذلك النموذج من الجهاد ، وهنا كانت حكمة الخالق تقضي بالإعفاء من هذا النموذج تخفيفاً ورحمة ومراعاة للظروف ، وإناطة الأمر إلي من تتجمع لديهم المقدرة والوسع .

• الجيش يحتاج إلي من يوفرون له مستلزماته المدنية :

الجيش في الإسلام مؤسسة لها طابع الدوام والاستمرارية ، وتحتاج بشكل مستديم إلي ما يحقق لها المقدرة والجاهزية ، والمقدرة ترتبط بعناصر ومقومات أداء المهام الموكلة إلي الجيش ، والجاهزية تتعلق بالاستعداد والتهيؤ المستمر لخوض الصراع العضوي ، وهذه وتلك تحتاج إلي قوي أخرى مساندة وداعمة هي قوة المجتمع ، أو ما درج علي تسميته بالجبهة الداخلية ، والجيش لا يمكنه بحال أن يؤدي مهامه دون دعم ومساندة من المجتمع ، وعليه فهو في احتياج دائم إلي من يوفرون له مستلزماته المدنية ، والآخرون لا يقلون أهمية عن من يخوضون الصراع العضوي ، فهناك تلازم وتكتل بين الفريقين يفضي إلي تحقيق نموذج الجهاد الإسلامي في أروع معانيه .

• ضبط وإحكام المجتمع والحياة حال الصراعات العضوية :

المجتمع الإسلامي لابد أن يكون متماسكاً ، وهو في مسيس الحاجة إلي التماسك والقوة والصلابة في حالة الصراعات العضوية [الحروب] فالمجتمع – كما المحنا — هو سند

الجيش، وأرضيته التي يتحرك عليها ، وبعبره إلي الظفر وتحقيق الأهداف ، من أجل ذلك لابد من تأمين المجتمع ، وتسيير حياته بشكل منضبط ومحكم في حال خوض الصراع العضوي ، وذلك يفرض فكرة " توزيع الأدوار " ، حيث يعمد أولو الأمر في المجتمع إلي توزيع الأدوار الاجتماعية بين أبنائه ، فمنهم من توكل إليه مهمة مباشرة الصراع العضوي ، ومنهم من توكل إليه مهمة دعم ومساندة المقاتلين ، ومنهم من توكل إليه مهمة ضبط المجتمع وإحكام تسيير الحياة الاجتماعية بأسلوب يدعم الجيش ولا يضعفه .

صفوة القول أن كافة أبناء الأمة الإسلامية في حالة جهاد ، فكل يجاهد بما قُدّر له وتيسر ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم " قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : نعم ، حبسهم العذر " ، وينطبق حديث رسول الله علي من يجاهد في سبيل الله متوخياً أحد نماذج الجهاد مثله في ذلك مثل المقاتل في ميدان القتال .

– الجهاد " كعطاء فعّال " فرض عين حتى في حالة السلم :

أوضحنا آنفاً أن الجهاد " كصراع عضوي " فرض كفاية علي المسلمين ، حتى في حالة الاعتداء علي المسلمين ، وقيامهم برد العدوان والدفاع عن الدين والوطن ، وعلي الجهة المقابلة وباستقراء ما سلف يتبين أن الجهاد " كعطاء فعّال " هو فرض عين علي كل مسلم ذي مِرّة ، وتفصيل ذلك فيما يلي :

• كافة نماذج الجهاد لا تتوقف في زمن السلم إلا صورة الصراع العضوي :

الجهاد بكافة نماذجه هو دأب الأمة الإسلامية في زمن السلم ، إلا نموذج الجهاد كصراع عضوي ، فالأمة الإسلامية أمة عمل وجهاد وعطاء متواصل فعّال ، لا تكف عن الأخذ بالأسباب والتوكل علي الله ، هكذا أمة الإسلام كما أرادها الخالق سبحانه ، وكما كانت

في عهد النبوة الزاهر وعهد الخلافة الراشدة ، قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] ، فالجهاد في الله بنصرة دينه وإعلاء شأنه ، وتقديم النموذج والمثال للمجتمع الإسلامي القويم لا يتوقف ، وقد أكد الحق تبارك وتعالى علي عاقبة الجهاد في سبيله بكافة السبل والوسائل، وهي الهداية إلي طريق الله والتحصن في معيته.

• كافة أبناء الأمة مجاهدون :

إذا كان الجهاد بكافة صوره هو دأب المسلمين في زمن السلم إلا القتال ، فانهم جميعاً مجاهدون حسب الصلاحية والقدرة . فالأمة الإسلامية خبرت مبدأ توزيع الأدوار ، وجميع أبنائها مجاهدون كل حسب صلاحيته وقدرته ، فله أن يختار أية صورة من صور الجهاد يصلح لها ويقدر علي تحمل تبعاتها ، فمن المسلمين من يجاهد نفسه فيجبرها علي فعل الخيرات وترك المنكرات . فيقدم بذلك النموذج والمثال الرشيد ، ومنهم من يجاهد بالقرآن ، ومنهم من يجاهد بالحجة والبرهان والدعوة إلي دين الله ، ومنهم من يجاهد بأمواله فينفقها في أعمال الخير والبر وما يصلح من شأن المسلمين ، ومنهم من يجاهد بإعمار الأرض وإنماء موارد المجتمع . ويعفي المسلمين من الاحتياج إلي غيرهم ، وهكذا قد اختار كل مسلم نموذج الجهاد الذي يتوافق مع مقدراته ويتماشى مع ما يصلح له ، قال تعالى ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] . وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾[3] .

---

[1] . سورة العنكبوت : ٦٩ .
[2] . سورة التوبة : ١٠٥ .
[3] . سورة العنكبوت : ٥٨ .

- لا يتخلف عن الجهاد " كعطاء فعّال " إلا ذوى الأعذار :

الجهاد " كعطاء فعّال " هو مجال رحب وميدان فسيح يستوعب جميع أبناء الإسلام ، ولا ينبغي أن يتخلف عن الجهاد أي مسلم ، إلا إذا كان ذو عذر يقعده شرعاً عن الجهاد ، قال تعالى ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1] .

- الجهاد " كعطاء فعّال " فرض عين في حالة السلم :

مفاد ما تقدم أن الجهاد " كعطاء فعّال " فريضة على كل مسلم ، لا يسقط عنه إلا بعذر شرعي – كما قدمنا في البند أعلاه – ، فالمسلم الذي لم يجند ويؤهل للجهاد " كعتراع عضوي " عليه أن يتوجه إلي الجهاد " كعطاء فعّال " إذا لم يكن من ذوى الأعذار ، وكان الرسول الكريم يقول بعد عودته من البعثات " رجعنا من الجهاد الأصغر إلي الجهاد الأكبر " .

- الجهاد " كعطاء فعّال " هو أساس فكرة " الردع الإسلامي الشامل " :

تقوم فكرة " الردع الإسلامي الشامل " على أساس بناء قوة إسلامية ضاربة ترهب العدوان وتصون الأوطان وترفع الأديان ، وتبدأ هذه القوة بأول نماذج الجهاد ، وتنتهي بنموذج الصراع العضوي ، وهي في سبيل ذلك تجند كافة عناصر القوة العقيدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وأخيراً العسكرية .[2]

---

[1] . سورة الفتح : ١٧ .

[2] . لتفصيل أكثر حول فكرتنا عن الردع الإسلامي الشامل يمكن الرجوع إلي : المجلد التاسع ، الحرب في الإسلام ، الجزء الثاني ، الحرب المعاصرة .

– الدلالات الخاصة لفكرة " الأمة المجاهدة " في بداية الدعوة :

كان لفكرة " الأمة المجاهدة " التي رسختها مصادر الطرح الإسلامي المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ونماذج الممارسة العملية في دولة الرسول ودولة خلفائه الراشدين دلالات خاصة في بداية الدعوة الإسلامية ، وقد تمثلت تلك الدلالات في الآتي :

• كانت الفكرة ضرورية لتأمين قوة دفع مستمرة لنشر الدعوة :

مثلت فكرة الأمة المجاهدة رافداً مهماً وضرورياً لتأمين قوة دفع مستمرة لنشر الدعوة الإسلامية ، من خلال الجهاد بالقرآن ، وكذا بالحجة والبرهان ، وأخيراً حمل الجيش الإسلامي للدعوة وتوصيلها إلي الأمم المختلفة ليتولى الدعاة تبليغها ، وكان ذلك الرافد مهماً في بداية الدعوة ، حيث كانت لا تزال محدودة جغرافياً وبشرياً ، كما كان ضرورياً أيضاً لاستمرار توفير زخم من الحماس والقدرة علي الانتشار في كافة الأرجاء .

• كانت الفكرة كفيلة بتأمين العنصر المادي :

كانت الدولة الإسلامية في بدايتها محدودة الموارد ، ولم يكن في مقدورها توفير المقدرات الاقتصادية المادية للإنفاق علي الجيش ، ومن ثم جاءت فكرة " الأمة المجاهدة " لتسد هذه الثغرة ، من خلال الجهاد بالمال ، فكان المسلمون المقتدرون مادياً يعمدون إلي تجهيز المقاتلين ، بالإضافة إلي من يتطوع للجهاد بما يملك من مال ثم يقاتل بنفسه .

• كانت الفكرة كفيلة بتأمين العنصر البشري :

كذلك كانت فكرة الأمة المجاهدة كفيلة بتأمين العنصر البشري الذي ينضم تلقائياً إلي صفوف الجيش الإسلامي ، فإذا نادى المنادي " حي علي الجهاد " ، أجاب الجميع بالمال والنفس ، وكان لذلك أهميته في تلك الأثناء التي نشأت فيها الدولة الإسلامية ، حيث كانت محدودة العدد ، وكان جيشها بالتالي قليل الأفراد ، ولم يكن هناك من بد

من إشراك النساء في القتال ، ليقمن بأعمال تتوافق مع مقدراتهن سواء بالقتال أو بالأعمال المساندة .

• كانت الفكرة نواة لفكرة " الردع الإسلامي الشامل " : [إحالة]

منذ بداية الدعوة الإسلامية ونشأة الدولة في المدينة المنورة وفكرة " الردع الإسلامي الشامل " مصاحبة لهما ، فلقد سعت الدولة الإسلامية بشكل حثيث من خلال فكرة " الأمة المجاهدة " إلي بناء قوة ضاربة عقيدياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، وبعد فترة وجيزة أصبحت تلك القوة واقعاً فرض نفسه علي الظروف الإقليمية السائدة آنذاك ، وبات المحيطون بالدولة الإسلامية يرهبون جانبها ولا يجرؤون علي الاعتداء عليها ، بل حتى لا يفكرون في ذلك ، وتبلورت فكرة " الردع الإسلامي الشامل " واحتلت موقعها المتميز في الفكر الاستراتيجي للمخطط الإسلامي ، ونحيل إلي تفصيل هذه الفكرة في الجزء الأول من المجلد الحادى عشر .

• كانت الفكرة اختباراً للإيمان وترسيخاً له :

يتضح مما أوردناه بشأن دلالات فكرة " الأمة المجاهدة " في بداية الدعوة الإسلامية ، أن هذه الفكرة كانت بمثابة اختبار لإيمان المسلمين الذين اعتنقوا الدين حديثاً ، كما كانت في ذات الوقت ترسيخاً لذلك الإيمان في قلوبهم وعقولهم ، وبرزت تعبيرات ذلك واضحة جلية في كافة نماذج الجهاد التي بدأت بجهاد النفس وانتهت بالجهاد " كصراع عضوي " .

ثانياً : تنظيم الجيش :

بعد مناقشة " الأمة المجاهدة " كإطار عام احتوى جملة المفردات والأفكار المتعلقة بالجيش كأحد عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية ، ننتقل في هذه الجزئية إلي عرض تنظيم

الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم ، وكيف تم التعامل مع فكرة الأمة المجاهدة كأساس لذلك التنظيم :

❖ أساس الجيش من الناحية الصراعية :

سنتحدث عن الجيش مجرداً من أية تداخلات أو ارتباطات أخرى ، بوصفه عنصراً فاعلاً في الظاهرة الصراعية ، والجيش وفق هذا الوصف لا يعدو أن يكون أداة لإدارة الصراع العضوي من جهة وإخضاع إرادة الآخر من جهة ثانية . وإيضاح ذلك فيما يلي :

- الجيش أداة لإدارة الصراع العضوي :

للصراع بين الجماعات البشرية دواعيه وأشكاله ، والظاهرة الصراعية قديمة قدم الوجود الإنساني ، والصراع يتخذ أشكالاً وتعبيرات متصلة ومترابطة ، وتسير في اتجاه تصاعدي تنتهي دائماً بالصراع العضوي إذا لم تتوقف أو تحل بأساليب اتفاقية ، والجيش الإسلامي بعيداً عن أهدافه وغاياته ورسالته ذات الطبيعة الخاصة هو أداة لإدارة الصراع العضوي ، وإدارة الصراع العضوي بالنسبة للجيش الإسلامي تتم وفق أصول وأسس مستنبطة من مصادر تشريعية محكمة لا مجال للحيد عنها أو الخوض فيها ، ولا يلجأ الجيش الإسلامي إلي الدخول في الصراعات العضوية ، إلا بعد استنفاد كافة الوسائل التي تحول دون وصول الصراع إلي مرحلة الصراع العضوي والتصادم الجسدي .

وما ينبغي التأكيد عليه في هذا الصدد أن الجيش الإسلامي في خلال الفترة التي تبدأ منذ البعثة المحمدية ، وتبلور الرسالة الإسلامية في شكل دولة وحتى نهاية العصر العباسي ، لم يكن جيشاً محترفاً لإدارة الصراع العضوي . هذا علي الرغم من أنه كان أقوى الجيوش في العالم خلال الفترة التاريخية المذكورة ، وتحقيق ذلك أن الجيش الإسلامي لم يدخل صراعاً عضوياً البتة من أجل الصراع في ذاته أو لتحقيق أهداف ذاتية ، وإنما كان هدفه رد

عدوان أو إزاحة طغيان ، قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[1] ، والطواغيت هم الذين استعبدوا الناس وأذلوهم وحالوا بينهم وبين دين الله ، الذي يحررهم من ذل العبودية وهوان الطغيان إلي حرية اختيار العقيدة والإيمان عن قناعة وقبول ، ومن ثم كان الجيش الإسلامي جيش عتق وتحرير ، ولم يكن جيش سلب وتدمير .

- إخضاع إرادة الآخر :

الجيش في خضم الصراع لا يبتغي إلا هدفاً واحداً هو إخضاع إرادة الآخر ، والآخر هو الجيش المقابل ، والجيش الإسلامي لم يستهدف أبداً إلا الجيش المقابل ، وإخضاع إرادة الجيش المقابل كانت تعنى بالنسبة إلي الجيش الإسلامي ما يلي :

• التسليم للجيش الإسلامي والإذعان له وإنهاء الصراع ، ولهذا التسليم نتائجه التي نظمها الشرع الإسلامي في تشريعاته الخاصة بإدارة الحرب .

• الهزيمة ، وانتهاء الصراع العضوي بهزيمة الخصم نظمها الشرع الإسلامي كذلك ، ونظم نتائجها بإبداع لم يسبق له مثيل في القوانين الوضعية .

• تحرير الشعوب الواقعة تحت استبداد الطواغيت ، ولعل هذا يمثل أهم نتائج الصراع العضوي الذي يخوضه الجيش الإسلامي وأهم أهدافه التي من أجلها خاض الصراع ، والتحرير يعنى انتهاء خضوع الشعوب لحكم واستبداد الطواغيت ، وتملكها زمام أمرها في اختيار المعتقد الذي يحفظ لها كرامتها ويحترم إنسانيتها .

---

[1] . سورة النساء : ٧٦ .

❖ الجيش الإسلامي في عهد الرسول كان جيشاً بالمعنى المتعارف عليه:

الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم كان جيشاً بالمعنى المتعارف عليه في الوقت الراهن ، فالجيش كيان منظم محكم وصارم ، موضوعياً وعملياً لا يشترط فيه التنظيم المؤسسي المستمر والدائم ، ولكن يكفي ذلك وقت إدارة الصراع . ويهدف ذلك الكيان إلي تحقيق غايات ومقاصد ، تمثلت في ردع الأعداء والدفاع عن الدين والوطن وحمل الدعوة ، إذن فالجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم تجمعت له كافة عناصر الجيش بمعناه المعروف ، والتي يمكن أن نزيدها تفصيلاً وتحليلاً في العرض التالي :

- أهداف الجيش الإسلامي :

تمثلت أهداف الجيش الإسلامي في الأهداف المتعارف عليها لأي جيش تعارف عليه البشر ، إلا أن الجيش الإسلامي تفرد ببعض المهام التي لم تجد لها مكاناً في اهتمامات الجيوش الأخرى ، وقد تحددت مهام الجيش الإسلامي في مصادر التشريع ، وكانت كالآتي :

• ردع الأعداء : من أول مهام الجيش الإسلامي ردع الأعداء ، حيث حث الله المسلمين وأمرهم بأن يتزودوا بالقوة ويتسلحوا بالمكنة ، حتى لا يفكر أحد في الاعتداء عليهم ، وإذا فكر وسولت له نفسه القيام بذلك فلابد أن يذوق وبال أمره .

• الدفاع عن الوطن والدين : الجيش الإسلامي جيش دفاع وحماية وتأمين وليس جيش اعتداء ، فهو حامي حمى الأوطان ورافع راية الأديان ، لا يقبل أن ينتهك الحمى أو تهان الأديان .

• حمل الدعوة : الجيش الإسلامي منذ عهد الرسول الكريم كان ولا يزال جيشاً عقائدياً ، وُجد ليحمل عقيدة التوحيد إلي شعوب الأرض ، ثم استمر لحمايتها وحماية معتنقيها ، فكما ذكرنا في مواضع متفرقة أن جيش الإسلام منذ عهد الرسول الكريم كان يحمل الدعوة

ويوصلها إلي الشعوب التي يفتح بلادها ، ثم يعهد إلي الدعاة بتبليغها فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، واستمر ذلك هو حال الجيش الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي ، وبعد أن توقفت الفتوحات الإسلامية والبعثات الإسلامية مع بداية العصر العباسي ، تحول الجيش إلي حامي حمى الأوطان والأديان ، ولكنه ظل جيشاً عقائدياً يعمل أساساً من أجل عقيدة التوحيد وباسمها .

- غياب التنظيم المؤسسي حل محله فكرة " الأمة المجاهدة " :

أشرنا إلي أن الجيش في ذاته كيان محكم الترتيب صارم التنظيم ، وكان ذلك هو حال الجيش الإسلامي . ولم يكن الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم في حاجة إلي ديوان يضفي عليه صفتي المؤسسية والاستمرارية ، لأن فكرة الأمة المجاهدة كانت قد سدت هذه الثغرة . فالأمة الإسلامية في حالة جهاد مستديم ، عبر نماذجه المختلفة التي تنتهي بالصراع العضوي . فالجهاد في كافة نماذجه لا يتوقف ، وكل مسلم يجاهد وفق ما تيسر له ، وعندما يؤذن مؤذن النموذج الأخير من نماذج الجهاد وهو الصراع العضوي ينبري القادرون ليلبوا النداء ، ويأتلف علي الفور جيش يعرف مهامه بكل دقة وإحكام ، وينصرف إلي تحقيق أهدافه التي لا يتوقف إلا بعد إنجازها علي أكمل وجه . وهكذا كان جيش الإسلام في عهد الرسول الكريم جيشا بالمعنى المتعارف عليه من حيث الأساس الذي قام عليه ، والمهام التي وكّل بها . وأخيراً التنظيم الذي كان يبدو في أجلى صوره فور سماع داعي الجهاد . أما عن استمرارية الجيش في شكله المؤسسي ، فكانت فكرة الأمة المجاهدة تحل محلها .

❖ الاستنفار [الدعوة إلي الجهاد] :

في إطار تنظيم الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم تناولنا أساس الجيش من منطلق الظاهرة الصراعية ، ثم بروز الجيش الإسلامي في ذلك العهد الزاهر بشكله وتنظيمه ومهامه التي جعلت منه جيشاً بالمعنى المتعارف عليه ، وفي هذه الجزئية نعرّج علي تناول أول مراحل تأسيس الجيش ككيان ذى طبيعة خاصة ومهام محددة ، وتتمثل هذه المرحلة فيما يعرف بالاستنفار أو الدعوة إلي الجهاد ، والاستنفار عملية ذات أبعاد تنظيمية ونفسية وعقيدية ، وسوف نولى هذه الأبعاد تحليلاً وتفصيلاً فيما يلي :

- الأمة المجاهدة في حالة استنفار دائم :

المتأمل لفكرة الأمة المجاهدة -كما أوردناها فيما أنف- يمكنه أن يلحظ أن المراحل المتتالية والمترابطة للجهاد في صوره المختلفة تجعل من أفراد الأمة جنوداً في حالة جهاد مستمر ، وهم علي أهبة الاستعداد لينتظموا في جيش مقاتل حال سماعهم مؤذن الجهاد ، ومن هنا قيل أن الأمة الإسلامية في عهد الرسول الكريم وحتى خلفائه الراشدين كانت كلها جيشاً ، ومفاد ذلك أن عملية الاستنفار لم تكن إلا مجرد إذن للتجمع والانتظام في جيش يعرف مهامه وأهدافه .

- البعد التنظيمي لعملية الاستنفار :

بالرغم مما تقدم وما مثلته فكرة " الأمة المجاهدة " من إطار ملائم وضروري لتأسيس الجيش الإسلامي في بداية الدعوة الإسلامية ، إلا أن عملية الاستنفار لم تكن تخلو من الاعتبارات التنظيمية التي تمثلت في تحديد سن من يجب عليهم الجهاد بالقتال ، وتوفر المقدرة والقوة والمكنة الذهنية والجسمانية ، ومراعاة الظروف الاجتماعية لكل مقاتل الخاصة بأسرته ووالديه ، وتشكيل هيئة مكونة من كبار الصحابة تتولى المسائل التنظيمية لعملية الاستنفار .

- البعد العقيدي لعملية الاستنفار :

ذكرنا أن الجيش الإسلامي كان جيشاً عقائدياً منذ تأسيسه وحتى أهدافه ومقاصده ، وقد أنسحب ذلك علي عملية الاستنفار ، فلم يكن الاستنفار يتم تحت دعوى القتال أو الحرب مطلقاً ، ولكن يتم تحت الدعوة للجهاد وحمل رسالة التوحيد إلي العالمين ، وكان لذلك وقعه المؤثر في نفسية المقاتلين وحماسهم ، فكان الاستنفار مغلفاً بدعوة عقيدية ذات تأثير علي كافة أبناء الأمة وبصفة خاصة المقاتلين .

- البعد النفسي لعملية الاستنفار :

كذلك كان لفكرة الأمة المجاهدة أثرها الواتي علي نفسية المقاتلين ، فالمقاتلون قبل أن ينضووا تحت لواء الجيش الإسلامي كانوا في حالة جهاد دائم ولكن بوسائل أخرى ، فهم قد انتقلوا من طور من أطوار الجهاد إلي الطور النهائي له وهو الصراع العضوي ، وكان ذلك يعنى بالنسبة لهم أنهم سيختمون جهادهم المتواصل في سبيل الله بإحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة ، ولم يكن يزدهم ذلك إلا تثبيتاً ويقيناً ، وكان ذلك هو السر الذي كمن وراء قوة وصلابة الجيش الإسلامي ، حيث كان مقاتلوه يتمتعون بروح معنوية عالية ونفس مطمئنة إلي إحدى الحسنيين ، مما منحهم شجاعة وإقداماً ، وكان أساس كل ذلك نابعاً من عقيدة التوحيد التي يحملونها ويبتغون نشرها بين العالمين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم أنها تخلُفُ من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون . ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " ، وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد : " أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : " في الجنة " فألقى تمرات كن في يده ثم قاتل حتى قُتل .

❖ تمويل الجيش الإسلامي :

إنتهينا مما سبق إلي أن الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم كان جيشاً بالمعنى المتعارف عليه ، من حيث أسسه التي ارتكز عليها ، ومهامه التي كُلّف بها ، وتنظيمه الذي يتم بموجب دعوة داعي الجهاد ، وهنا يثار تساؤل عن تمويل الجيش الإسلامي ، بعبارة أكثر دقة كيف كان يتم الإنفاق علي جيش المسلمين في بداية الدعوة ونشأة الدولة الإسلامية ، إن هذه المسألة جديرة بالدراسة والبحث ، ويمكن التصدي لها من خلال الآتي :

- موارد الدولة الإسلامية الناشئة :

عندما تأسست دولة المدينة انتصبت بشرياً علي الأنصار الذين استقبلوا الرسول في المدينة ، وعلي المهاجرين الذين لحقوا به وتركوا أموالهم وأهليهم في مكة ، وارتكنت اقتصادياً علي ممتلكات الأنصار الذين تصدقوا بقسط منها لمصلحة الدولة الناشئة ، وقسط آخر لإخوانهم من المهاجرين ، الذين دفعوا أموالهم لقريش في سبيل أن يخلوا بينهم وبين الهجرة إلي الرسول الكريم ، واشتروا أنفسهم بتلك الأموال ، وقسط ثالث احتفظوا به لأنفسهم وأهليهم ، بالإضافة إلي ممتلكات الأنصار كانت هناك أموال المهاجرين الأقوياء المتنفذين ، أمثال عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق ، والذين هاجروا بها وتصدقوا بمعظمها لدولة الإسلام الناشئة .

وكانت الأموال تشمل الأموال السائلة [النقدية] ، كما تشمل الأنعام ، إلي جانب الأرض الزراعية والحيطان [البساتين] ، وكل ذلك من الصدقات التي تصدق بها الأنصار والمهاجرين حتى قبل أن تفرض الزكاة ، وكان قسط من هذه الأموال ينفق علي الجيش الإسلامي .

- المقاتل المسلم يجهّز نفسه :

إعمالاً " لفكرة الأمة المجاهدة " كان المقاتل المسلم إذا أذن مؤذن الجهاد لبى النداء بماله ونفسه ، فجهز عدة الحرب وعتادها ، وانضوى تحت لواء الجيش الإسلامي ، وكان هذا هو المعتاد في بداية الدعوة ونشأة الدولة الإسلامية ، ومن ثم كان الجيش الإسلامي جيشاً يعتمد علي التمويل أو الإنفاق الذاتي ، وهذه رحمة من الله بهذه الدولة البسيطة الناشئة التي تشق طريقها الوعرة وسط بيئة قاسية .

وتجلت حكمة الخالق سبحانه في دعم الجيش الإسلامي الذي نشأ في ظل ظروف اقتصادية ومادية صعبة ، حيث حث المسلمين من خلال تسع آيات علي الجهاد بالمال والنفس معاً ، وكان ترتيب المال قبل النفس في هذه الآيات التسع ذو دلالة واضحة ، وكان لذلك أثره الجلي في التغلب علي العامل الاقتصادي المادي بالنسبة للجيش الإسلامي ، وكذا في إعفاء الدولة الناشئة من قسط كبير من أعباء الجيش كان يمكن أن يؤثر عليها ، وأيضاً في إضفاء صفات القناعة والاعتدال في الإنفاق علي الجيش الإسلامي .

- صدقات المقتدرين من المسلمين :

إضافةً إلي ما تقدم من قيام المقاتل المسلم بتجهيز نفسه للقتال عدة وعتاداً ، كانت هناك الصدقات التي يقدمها المقتدرون من المسلمين للإنفاق علي الجيش الإسلامي ، وكانت هذه الصدقات تلعب دوراً مهماً في تأمين نفقة الجيش المسلم ، ولم يكتف المسلمون أصحاب تلك الصدقات بما يقدمونه من أموال كانت في بعض الأحيان كافية لتجهيز بعثة من البعثات ، بل كانوا في طليعة جيش المسلمين يجاهدون بأنفسهم ، بل وكانوا قواداً وأمراء .

لأجل ذلك كان حض المولى سبحانه علي الجهاد بالمال والنفس في التسع آيات علي النحو التالي :

قال تعالى ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .[4]

وقال تعالى ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ .[5]

وقال تعالى ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ .[6]

---

[1] . سورة النساء : ٩٥ .
[2] . سورة الأنفال : ٧٢ .
[3] . سورة التوبة : ٢٠ .
[4] . سورة التوبة : ٤١ .
[5] . سورة التوبة : ٤٤ .
[6] . سورة التوبة . ٨١ .

وقال تعالى ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .[3]

- تقسيم الغنائم علي المقاتلين :

عمد الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه إلي توزيع أو تقسيم الغنائم علي المقاتلين ، ووقف وراء هذا الإجراء الحكيم أمور عدة ، نذكر منها :

• تنفيذ لأمر الله تعالى ، حيث نزل الأمر الإلهي علي الرسول الكريم بتوزيع الغنائم التي لم تحل من قبل إلا للمسلمين علي الوجه التالي :

○ خمس الغنائم لله ورسوله ، أي تصرف فيما يرضي الله من مصالح المسلمين العامة ، بعد أن يأخذ منه الرسول كفايته ثم يوزع الباقي علي ذوى القرابة واليتامى والمساكين وابن السبيل .

○ أربعة أخماس تقسم علي المقاتلين الذين قاتلوا الأعداء ، وكان الرسول الكريم يقسم بالتساوي بين المقاتلين ، ولم يكن يفرّق في القسمة كما حدث لاحقاً .

---

[1] . سورة التوبة : ٨٨ .
[2] . سورة الحجرات : ١٥ .
[3] . سورة الصف : ١١ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لم تحلّ الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم : كانت تنزل نار من السماء فتأكلها ، فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم : فانزل الله تعالى ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] .

وقال تعالى في تحليل الغنائم للمسلمين ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] .

- الترغيب في الجهاد كصراع عضوي [القتال] ، كذلك كان لتوزيع الغنائم علي المقاتلين بعد نفسي يستهدف إيجاد نوع من الترغيب في الجهاد كصراع عضوي ، وكان ذلك ضرورياً حيث كان الإسلام في بداية عهده ولم يكن قد رسخ في قلوب وعقول بعض أصحابه .

- إنفاق المقاتلين علي أنفسهم وعلي ذويهم ، حيث كانت أسر المقاتلين تعتمد علي هذه الغنائم في نفقتها ومؤنتها .

- بروز موارد الدولة الإسلامية ونموها :

في مرحلة لاحقه برزت موارد الدولة الإسلامية وكان من أهمها الزكاة ، وقد خصص في الزكاة نصيب للإنفاق علي الجيش الإسلامي ، وفي ذلك قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [3] ، وبعد انتقال الرسول الكريم إلي الرفيق الأعلى ، ثم تحويل حصة المؤلفة قلوبهم للإنفاق في سبيل الله ، وفي أعقاب انقراض ظاهرة الرق

---

[1] . سورة الأنفال : ٦٨ .
[2] . سورة الأنفال : ٤١ .
[3] . سورة التوبة : ٦٠ .

تحولت كذلك حصة فك رقاب الأرقاء إلي الإنفاق علي الجيش الإسلامي ، ومن ثم كان الجيش الإسلامي منذ تأسيسه في عهد الرسول الكريم موضع اهتمام المسلمين والدولة من جهة الإنفاق عليه وتجهيزه .

❖ تسليح الجيش الإسلامي :

من الأمور الجديرة بالذكر والاعتبار فيما يتعلق بالجيش الإسلامي علي مدى تاريخ الدولة الإسلامية وفي عهد النبوة الزاهر بالذات مسألة تسليح الجيش ، فبالرغم من الفتوحات التي قادها ذلك الجيش العظيم وبلائه فيها وتفوقه الكاسح فكراً وحركة ، إلا أنه اعتمد في تسليحه علي سلاح العقيدة أكثر من اعتماده علي سلاح العتاد ، فأسلحة الجيش الإسلامي كانت دائماً أسلحة تقليدية ، بل إن أسلحته في عهد النبوة كانت بدائية وبسيطة ، ولكنها كانت ماضية وفتّاكة ، لأن من حملوها أضافوا إليها من عزمهم وإقدامهم وصدقهم ما جعلها مبتكرة وفعّالة .

- بدأ المسلمون بالأسلحة التقليدية البدائية المتعارف عليها عند العرب :

لم ينشأ الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم جيشاً محترفاً همه القتال وحرفته التفنن في وسائل الحرب وأسلحتها ، ولكنه بدأ بسيطاً وبأسلحة بدائية ، وكل اهتمامه منصرفاً نحو حماية الدعوة الناشئة ، ثم حملها وأوصلها إلي شعوب الأرض حيث يتولى الدعاة تبليغها .

وفيما تقدم دحض بليغ للحجة الواهية التي طالما رددها الكثيرون والقائلة بأن الجيش الإسلامي كان جيشاً محترفاً حرفته القتال ، وعمد إلي نشر الإسلام بحد السيف ، فذلك الجيش لم يكن يملك من السلاح والعتاد إلا أبسطه ، ولم يكن يخبر من فنون الحرب إلا أعمها وأكثرها شيوعاً وانتشاراً ، لأنه لا يرغب في الهجوم والتعدي ، ولا ينبغي السيطرة

علي مقدرات الآخرين ، فأسلحته من ثم كانت دفاعية ولم تكن أبداً هجومية ، إلا عندما تضطره الظروف وتفرض عليه الحرب فرضاً .

لقد كانت إمكانات الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم متواضعة وبسيطة ، وكانت البعثات الدعوية إلي القبائل والحواضر العربية تستخدم الأسلحة التقليدية المتعارف عليها عند العرب في ذلك الوقت ، وفي كثير من الأحيان كان معظم جيش المسلمين من المشاة ، نظراً لقلة بل ندرة الخيل التي كانت تعد من أهم وسائل الحرب في ذلك الوقت ، وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[1] ، وقد نزلت هذه الآية الكريمة حسب رواية بن عباس قال " أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبدالله بن معقل المزني ، فقال : يا رسول الله احملنا ، فقال : والله لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا ولهم بكاء ، وعزّ عليهم أن يُحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً " ، فنزلت هذه الآية ، ودلالتها واضحة حيث تعنى عدم توفر المركب، وهو إحدى أدوات الحرب التي يعوّل عليها ، وعلي الرغم من ذلك فقد كانت قوة الجيش الإسلامي في عقيدة رجاله ، ورسوخ تلك العقيدة في قلوبهم وإقدامهم علي القتال لا يبغون إلا إحدى الحسنيين .

- تابع الجيش الإسلامي تطوير أسلحته من احتكاكه بالجيوش الأخرى :

لقد تعلم الجيش الإسلامي أن يأخذ بالأسباب في غير مبالغة أو إفراط ، فهو صاحب الوسطية والاعتدال ، فلم يحدث على مدى المعارك التي خاضها الجيش الإسلامي خلال عهد النبوة الزاهر وعهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي أن تفوق في عدته وعتاده علي

---

[1] . سورة التوبة : ٩٢ .

الجيوش التي إلتقاها ، بل كان دائماً هو الأقل عدة وعتاداً ، ولكنه الأكثر إيماناً والأشد عقيدة ويقيناً بنصر الله ، قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ .[3]

وقال تعالى " ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ .[4]

ولكن الجيش الإسلامي لم يكف عن تطوير أسلحته طمعاً في إحراز النصر ، الذي لا يتحقق إلا من خلال مضاهاة العدو عدة وعتاداً . والتفوق عليه في العزم والعقيدة ، ودأب المسلمون علي تطوير أسلحتهم بفعل احتكاكهم بالجيوش التي إلتقوها ، فأخذوا عنهم الكثير من الأسلحة والعديد من أساليب ووسائل القتال وأضافوا إليها وطوروها .

ومع ذلك لم يعتد المسلمون أن يستخدموا غريب الأسلحة مثل الفيلة التي استخدمها الفرس والروم ، وغيرها من الأسلحة التي تبالغ في التدرع والاحتماء خوفاً من القتل ، بل ألف الجيش الإسلامي الأسلحة المعتادة من عدة وعتاد ولباس ، فجنود المسلمين لم يخشوا الشهادة في سبيل الله ، فهم علي يقين بقول الله عز وجل ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً

---

[1] . سورة الحج : ٤٠ .
[2] . سورة الروم : ٤٧ .
[3] . سورة الصافات : ١٧١ – ١٧٣ .
[4] . سورة غافر : ٥١ .

ثُعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [1].

- عرف المسلمون تصنيع السلاح :

منذ عهد الرسول الكريم والمسلمون يقومون بتصنيع معظم أسلحتهم من سيوف ورماح ودروع ، وكانوا يستعينون في ذلك ببعض أهل الذمة من اليهود الذين برعوا في تصنيع أنواع من هذه الأسلحة ، وقد كان الرسول الكريم يشجع ذلك ويحض عليه ، إضافةً إلي ذلك فقد كان المسلمون يحصلون علي الكثير من الأسلحة في عداد الغنائم ، وكان لذلك أهميته في التعرف علي أسلحة العدو واقتناء الكثير منها ، بل وتصنيعها واستخدامها كأنواع جديدة .

وعرف المسلمون كذلك شراء السلاح من مصادر عديدة اشتهرت بتصنيع نوعيات معينة منه مثل السيوف من الهند ، ومع تطور الدولة الإسلامية واتساع رقعتها وزيادة مقدراتها الاقتصادية ومواردها المالية تطورت صناعة السلاح وأصبح الجيش الإسلامي يحصل علي جميع أسلحته من تصنيع المسلمين ، وفي أواخر عهد الرسول الكريم كانت صناعة السلاح قد بدأت تتسم بسمات اقتصادية شبه متخصصة ، إلا أنه في عهد الخلفاء الراشدين كانت هناك مصانع بالمعنى المناسب لتلك الأزمنة ذات طبيعة متخصصة في تصنيع السلاح للجيش الإسلامي ، إضافة إلي كافة مستلزمات الحرب من مؤن ومواد مساندة .

---

[1] . سورة آل عمران : ١٥٤ .

❖ تدريب الجيش :

سبق أن حددنا مهمة الجيش الإسلامي في الدفاع عن الدعوة ، وعن الدولة الناشئة ، وفي حمل الدعوة وتوصيلها إلي شعوب الأرض ليتولى الدعاة تبليغها ، وهذه المهام لم تكن لتتم بشكل ارتجالي عشوائي ، بل كانت تحتاج إلي التخطيط الدقيق والتنظيم المحكم والتنفيذ الجاد ، وذلك عبر آليات معينة نتابعها في الآتي :

- وضع الخطة العامة لحركة الجيش ، ولكل معركة علي حدة [الإستراتيجية] :

اعتاد المسلمون وبرعوا في صياغة الخطة العامة لحركة الجيش ، ولكل معركة يستعد لخوضها ، وذلك ما يعرف الآن بالاستراتيجية ، وكان الرسول الكريم يجتمع بصحابته ومعهم قواد الجيش حيث يتم رسم خطة المعركة ، فيحدد الهدف الرئيسي منها ، وكذا دراسة قوة العدو ومدى استعداداته ، ونقاط القوة في قواته ومكامن الضعف ، ومن ثم دراسة مقدرات وإمكانات جيش المسلمون ، وكيف يمكنه كسر نقاط قوة الخصم ، واستثمار مكامن ضعفه ، إلي غير ذلك من استراتيجيات فرعية عن كيفية الهجوم ووقته وفجاءته ، وكيفية الدفاع ووسائله .

- إدارة العمليات الميدانية :

أما بالنسبة إلي إدارة العمليات المدينة والتي تعرف بالتكتيك ، فقد تركت لقواد الجيش وقت المعركة ، فلكل معركة ظروفها وتطوراتها ، وكان الرسول يعين أمير الجيش أي قائده ونائبه ، وكان الرسول قبل تحرك الجيش وانطلاقه يوصي بوصايا معينة تحدد حركة الجيش أثناء القتال ، وهذه الوصايا كانت بمثابة توجيهات عامة كان القواد يلتزمون بها ، ويعتبرونها ثوابت حركتهم أثناء القتال .

- تدريب الجيش علي السلاح :

كان الرسول الكريم في كثير من الأحيان يشرف بنفسه علي تدريب المقاتلين المسلمين علي السلاح ، ويشجعهم ويدعو لهم بالنصر ، وكان تدريب الجيش الإسلامي علي السلاح يتم بطريقتين ، الأولى : قبل الخروج أو المسير للقتال وبعد الاستنفار والتجمع ، الثانية : في ميدان المعركة وقبل الالتحام مع العدو ، حيث كان مقاتلو المسلمين يواصلون تدريبهم في معسكرهم استعداداً للقاء العدو .

- التدريب علي فنون القتال :

منذ وقت مبكر والجيش الإسلامي يجيد فنون المناورات ، وكان يقوم بتلك الفنون أثناء مسيره إلي ميدان المعركة ، وكانت تلك المناورات تتم تحت قيادة وتوجيهات أمراء الجيوش ، الذين كانوا يضعون قواعد وأسس تلك المناورات ، كذلك كان الجيش الإسلامي في معسكره يستعمل أساليب المناورة لعدم إطلاع العدو علي حقيقة عدده وعدته وخططه الهجومية والدفاعية .

❖ قيادة الجيش الإسلامي :

كانت قيادة الجيش الإسلامي من أهم وأسمى المسئوليات في الدولة الإسلامية منذ تأسيسها ، ومن ثم فقد تولى الرسول الكريم بنفسه قيادة الجيش الإسلامي في العديد من البعثات والمعارك، كما كان يوكل بهذه المسئولية إلي أهل القوة والمكنة من رجال الدولة ، وتفصيل ذلك فيما يلي :

- قيادة الرسول للجيش :

قلنا أن الرسول كان يقود الجيش بنفسه ، وقد كان الجيش تحت قيادته في تسعة غزوات هي : بدر وأحد وحمراء الأسد وحنين وتبوك والخندق والحديبية وبنى النضير وفتح مكة

، وكان يتابع استعدادات المقاتلين ، ويوزع القوات ، ويسدد الصفوف وينزلها مواقعها حتى تتهيأ للقتال ، ويتقدم الصفوف ، ويقاتل بحماس حتى يلهب حمية مقاتليه ، بل كان منهم من يحتمي به عند اشتداد وطيس المعركة .

وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى في شأن قيادة الرسول للجيش يوم أحد ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] ، وتوضح هذه الآية الكريمة كيف أن الرسول الكريم قد خرج من المدينة مع جيشه في أول النهار ، لكي يُنزل ويُرتب المقاتلين، ويتخذ لهم مصافاً ومعسكراً ومواطن ومواقف للقتال ، حتى يحسنوا الاستعداد للقاء العدو .

وقال تعالى في يوم بدر ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] ، وقال تعالى في معركة حنين ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[3] .

إن قيادة الرسول الكريم للجيش الإسلامي في هذه الفترة المبكرة من نشأة الدولة والدعوة معاً كانت لها دلالتها ، حيث رسخت من فكرة توحد القيادة الدينية والسياسية والعسكرية في شخص النبي الكريم ، وأنه رسول الله وفرد من أفراد المجتمع يقود الدولة وينشر

---

[1] . سورة آل عمران : ١٢١ .
[2] . سورة الأنفال : ٤٢ .
[3] . سورة التوبة : ٢٥ ـ ٢٦ .

الدعوة ويجاهد في سبيل الله فهو إذن القدوة والأسوة ، قال تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .[1]

– تفويض قيادة الجيش إلي الصحابة :

كما قاد الرسول الكريم الجيش بنفسه أوكل مهمة قيادته إلي كبار الصحابة المعروفين بصفات الشجاعة والإقدام وإتقان فنون القيادة والحرب من أمثال خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة عامر بن الجراح وأسامة بن زيد وغيرهم .

وكان يتابع أخبار الجيش وحياً أو عن طريق الرسل ، وكان يرسل بالتوجيهات والوصايا ، كما كان يحث المقاتلين علي القتال ، ويرغبهم في الانتصار لدين الله وإعلاء شأنه ، ومن أشهر أدعيته في الحرب والقتال ، في يوم بدر رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال :" يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً " فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين " .

وفي غزوة الأحزاب كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :" اللهم لا اله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء قبله ولا شيء بعده "، ودعا صلى الله عليه وسلم علي الأحزاب فقال :" اللهم منزل الكتاب مجري السحاب سريع الحساب اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم " .

---

[1] . سورة آل عمران : ١٤٤ .

- تشكيل الجيش :

حدثت موقعة أحد في الثالث من شوال في السنة الثالثة من الهجرة ، وقبل هذه الموقعة شكّل الرسول الكريم الجيش الإسلامي إلي ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة وساقه ، ومن هذه الأقسام الخمسة سمى الجيش بالخميس ، ومنذ ذلك التاريخ والجيش الإسلامي يأخذ هذا الشكل ، وإن كانت متطلبات المعركة ومقتضيات القتال في ميدان العمليات قد تفرض شكلاً آخر فلا ضير في ذلك ، وقد حدث ذلك في مواقع عديدة .

❖ دعم ومساندة الجيش :

نستحضر في هذه الجزئية - ما سبق وقدمناه — من مفهوم أو مدرك " الأمة المجاهدة " ، فهذا المفهوم يعنى قيام عملية توزيع للأدوار بشكل بديع ، يتولى من خلالها كل مسلم مهمة الجهاد في سبيل الله وفق جهده ووسعه وحسب معرفته وخبرته ، فالمقاتل في ميدان المعركة يجاهد بنفسه ، ومن خلفه جميع أفراد الأمة يجاهدون كلٌ في موقعه ، وقد ارتسمت ملامح هذا المدرك منذ زمن الرسول الكريم ، ويمكن الإشارة إلي تلك الملامح من خلال الآتي :

- قيادة الرسول المباشرة للجيش :

كان الرسول الكريم هو المجاهد الأول في أمة الإسلام ، وقد حدد لنفسه دوراً بالرغم من منزلته الرفيعة ومكانته السامية ، فقاد الجيش بنفسه وقاتل وجُرح في المعركة ، وحينما يفوض صحابته في قيادة الجيش ، كان يتابع أخباره ويدعو له بالنصر والظفر .

- عمليات الإمداد والتموين :

كان المجتمع المسلم يقف وراء جيشه فيمده بحاجته من الأفراد والسلاح والعتاد والمؤن حتى يتقوى علي المعركة ويحقق أهدافه ، ويحتاج الجيش المقاتل إلي جبهة أخرى في

الداخل لا تقل أهمية عن جبهة القتال ، فطالما أنها تمد الجيش بحاجته فينبغي أن تظل متماسكة قوية ، حتى يقدّر لها أن تؤدي دورها في الجهاد مثلها مثل جبهة القتال .

ثالثاً : في عهد الرسول الكريم كان توصيل الدعوة سلماً أكثر فعالية من توصيلها عن طريق الجيش :

بالرغم من أهمية الجيش في كيان الدولة الإسلامية الناشئة والدعوة الواعدة ، إلا أن وجود الجيش في عهد النبوة الزاهر كان مقترناً بثوابت أخرى لها دلالتها التي أوضحت بجلاء المهام الأساسية للجيش ، وكذا علاقته بالدعوة الإسلامية ، وأكدت علي حقيقة أن الجيش الإسلامي لم يفرض الدعوة الإسلامية ولكنه حملها وأوصلها فقط ، وأوكلت مهمة تبليغها إلي الدعاة ، ويمكن توضيح ذلك وتفصيله من خلال ما يلي :

❖ **تركيز الرسول علي الدعوة السلمية :**

منذ عهد الرسول الكريم أتضح أن هدف الدعوة لم يكن الجبر والإلزام ، بل كان التخيير والاختيار ، فالجيش في عهد الرسول كان خط الدفاع الأول عن الدعوة وخط الهجوم الأخير، فقد كان الجيش يحقق أهدافه دون الدخول في صراع عنوي ، فمن مجموع (٢٧) بعثة قادها الرسول الكريم بنفسه ، كان (١٩) منها قد تحققت أهدافها دون قتال ، ومعنى ذلك أن الجيش لم يكن وجوده تحت إمرة الرسول يعنى القتال بالضرورة .

❖ **تحددت منذ البداية مهمة الجيش الإسلامي :**

إن ما تقدم يعنى أن الجيش الإسلامي قد تحددت مهمته منذ بداية تأسيس دولة الإسلام في الدفاع عن الدولة وعقيدتها وحمل الدعوة وتوصيلها فقط ، ومن شأن ذلك أن يدحض الفكرة القائلة بأن الجيش الإسلامي نشر الدعوة بحد السيف ، وسنفصل ذلك بعد قليل .

رابعاً : الجيش والحضارة الإسلامية :

قد يتبادر إلي الذهن تساؤل مؤداه : ما هي علاقة الجيش بالحضارة الإسلامية خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الدولة والدعوة الإسلامية ؟ لقد كانت العلاقة واضحة وقوية منذ البداية ، حيث برز التلازم والمساندة بين الكيانات الثلاث التي تكتلت لتنطلق في كلية واحدة يدعم بعضها بعضاً ، وذلك علي النحو التالي :

❖ أين الحضارة في الدعوة الناشئة :

الدعوة الإسلامية الناشئة التي تجسدت في دولة المدينة هي في ذاتها دعوة حضارية تحمل أدوات وآليات التعامل مع عناصر الوجود وموجودات الكون ، وشرعت منذ تمثلها في تلك الدولة في صياغة نماذج الممارسة العملية لتلك الأدوات والآليات مثل التنظيم والنظام الاجتماعي والجيش .. الخ ، ومن ثم فالدعوة هي أهم عناصر ومحاور الحضارة الإسلامية ، إذا لم تكن هي الحضارة ذاتها ، وصعوبة الفصل بين الدعوة والحضارة الإسلامية هي إحدى أهم خصائص تلك الحضارة . وهذا التلاقي إلي درجة الذوبان بين الدعوة والحضارة يؤكد طبيعة الإسلام كدين وحياة وحضارة .

وبالرغم من أن الدعوة كانت ناشئة ، ولم تكن تملك نماذج ناضجة للممارسة العملية لتقدمها كأدوات وآليات التعامل مع عناصر الوجود ، إلا أن الأطر المرجعية الفكرية التي جاءت بها كانت كافية لأن تمثل منطلقات فكرية مهمة تعبر عن الذات الحضارية لتلك الدعوة في صراحة ووضوح .

وحقيقة الأمر أن الأطر المرجعية الفكرية التي مثلت منطلقات فكرية مهمة عبرت عن الذات الحضارية للدعوة الإسلامية ، لم تكن كذلك إلا في وعي وإدراك الرسول الكريم وصحابته الإجلاء ، وبصفة خاصة قبل أن تتحول إلي نماذج للممارسة العملية ،

أما في وعى وإدراك عامة المسلمين فهي لم تتجاوز الدين والشعيرة ونمط الحياة العادية ، وهذا التمايز المبكر في الوعي والإدراك بالمحتوى الحضاري للدعوة الإسلامية ، بين القيادات الإسلامية وعامة المجتمع الإسلامي الناشئ ، كان أمراً طبيعياً ولا يعبر عن قصور أو ضعف في المخمون الإيماني لعامة المسلمين ، الذين استوعبوا فيما بعد المحتوى الحضاري للدعوة عندما تحول إلي نماذج للممارسة العملية ، بل وعبّروا عن تلك النماذج أبدع تعبير .

❖ الجيش يحمل الدعوة نواة الحضارة :

إذا كانت علاقة الارتباط العضوي بين الدعوة الإسلامية والحضارة قد اتضحت منذ البداية في كون الدعوة ذات محتوى حضاري يجعل منها نواة الحضارة ، فإن علاقة الجيش بكل من الدعوة والحضارة هي أيضاً علاقة ارتباط عضوي ولكنها تحتاج إلي إيضاح .

فالجيش يدافع عن الدعوة وهي لا تزال في المهد ، ويدافع كذلك عن نموذجها البسيط المتمثل في دولة المدينة ومضامينها الحضارية البسيطة ، ثم هو يحمل الدعوة الإسلامية بما تحويه من مضمون حضاري ، ويسعى إلي توصيلها إلي كل بقاع الأرض ، حيث يتولى الدعاة تبليغها ، وعندئذ تتحول الدعوة إلي عقيدة وبصحبتها نموذج حضاري من الحضارة الإسلامية ، وعليه فقد قام الجيش بدور مزدوج تمثل في حمل الدعوة والحضارة معاً ، ومن جهة أخرى فالجيش يمثل أحد مقومات وعناصر الحضارة .

هكذا كان الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر كياناً مهماً له أصوله وقواعده وأهدافه وغاياته وتنظيماته وتشكيلاته ، وجمع بين مدركي " الأمة المجاهدة " و " الأمة المقاتلة " في تناسق بديع ، ثم قام بدور مهم في حمل الدعوة والحضارة معاً وتمكين الدعاة من نشرهما ، وبعد ذلك يتحول الجيش والدعوة إلي مقومين أو عنصرين من مقومات الحضارة الإسلامية .

المبحث الثاني

الجيش في عهد الخلفاء الراشدين

أخذت رقعة الدولة الإسلامية في الاتساع السريع ، وترامت أطرافها ، واستتبع ذلك أن دخل أناس شتى في دين الله أفواجاً ، وحدث أن زادت متطلبات الدولة واحتياجات المجتمع ، وشرعت الحضارة الإسلامية تحدد معالمها ، وتفرز نتاجها ونماذجها مرتكزة علي عناصر ومقومات بذاتها ، وكان الجيش الإسلامي أحد تلك المقومات والعناصر التي كان لابد أن يشملها التطور ويعتريها التقدم ، وعليه فمتابعة تطور الجيش الإسلامي كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ، هو موضوع هذه الجزئية التي سنفصلها فيما يلي :

أولاً : فكرة الأمة المجاهدة في عهد الخلفاء الراشدين :

لم يزد عهد الخلفاء الراشدين فكرة الأمة المجاهدة إلا ترسيخاً وتفعيلاً ، فاتساع نطاق الدولة عدّد حاجات أفراد المجتمع ونوّع نشاطاتهم ، وارتسمت شبكة من العلاقات والتفاعلات الاجتماعية آخذة في الكثافة ، وكان من شأن ذلك أن يعدد الأدوار الاجتماعية وينوعها ويجعلها متوافقة ومعتمدة علي بعضها البعض ، ولم يعد من الممكن مجرد التفكير في أن تتحول الأمة الإسلامية إلي أمة مقاتلة ، بل بات من المؤكد أن فكرة الأمة المجاهدة هي الأكثر قبولاً وتواؤماً مع تطورات المجتمع ومستجداته ، ووقف وراء ذلك علي الأرجح عاملان :

❖ العامل الأول : تطور الدولة الإسلامية :

تطورت الدولة الإسلامية بشكل شامل وفعّال ، ويمكن حصر اتجاهات هذا التطور في الآتي :

- التطور الجغرافي والعمراني :

في عصر الخلافة الراشدة توسعت الدولة الإسلامية وامتدت حدودها لتشمل مناطق وأقاليم جديدة في قارتي أسيا وأفريقيا ، وصاحب هذا التطور الجغرافي تطور عمراني ، حيث تعددت حواضر الدولة ومدنها الهامة ، وباتت هذه الحواضر والمدن نموذجاً لمدنية الإسلام وحضارته، وتنوعت العناصر والأعراق البشرية التي انضوت تحت لواء الدولة الإسلامية ، وتنوعت معها الموروثات الثقافية والحضارية لتلك العناصر والأعراق ، ولكنها انصهرت جميعها في بوتقة الإسلام ، لتنتج إفرازاً جديداً كان هو الذات الحضارية للإسلام ومنطقه الثقافي الخاص .

- التطور الجيوستراتيجي :

كان من شأن الامتداد الجغرافي الذي طرأ علي إقليم الدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة أن يؤدي إلي نشوء وضعين علي النحو التالي :

- تعدد منطلقات الحركة وحمل الدعوة في اتجاهات عديدة في قارتي أسيا وإفريقيا ، وبالفعل لم تتوقف الدعوة الإسلامية عن الانتشار في هذه الاتجاهات سلماً أو فتحاً خلال العهد الأموي الذي شهدت فيه الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها .

- تعدد نقاط التماس ومحاور الاحتكاك بالكيانات الأخرى المجاورة في قارتي أسيا وإفريقيا وأوربا ، وتمثلت تلك النقاط والمحاور في حدود مجاورة أو ثغور . وكانت دائماً مصدر قلق وإزعاج كما كانت في ذات الوقت منطلقات للحركة كما سبق الإيضاح .

وكانت تلك الأوضاع الجغرافية مدعاة للتخطيط الاستراتيجي القائم علي أساس استثمار الامتداد الجغرافي للدولة وتحويله من نقطة ضعف تتمثل في صعوبة الدفاع عن ذلك الفضاء وأعبائه الجسيمة إلي مكمن قوة اقتصادية ومنطلقات للحركة ونشر الدعوة الإسلامية .

وتمثلت أهم مرتكزات الاستراتيجية الإسلامية في ذلك الوقت في تقوية مركز الدولة ، لكي يتمكن من السيطرة علي الأقاليم الممتدة والمترامية ، وكذا مواجهة أية اعتداءات علي الحدود والتماسات القاصية .

وكل ما تقدم كان لابد أن يفضي إلي ضرورة تأسيس جيش قوى ، يتمكن من إخضاع كافة الأقاليم والأطراف للمركز ، وكذا من صد أي هجوم يستهدف الدولة الإسلامية ، وفي حقيقة الأمر أنه لم يكن يخشى علي الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء من مغبة هذين الاحتمالين لقوة الدولة وجاهزيتها لصد أي هجوم وإخضاع جميع حواضرها ، ولكن كان المهم هو الانطلاق لمواصلة نشر الدعوة في كافة الاتجاهات .

وتنوعت حدود الدولة الإسلامية بين الحدود المتمثلة في الموانع الطبيعية مثل الجبال والصحراء والأنهار والحدود المتمثلة في الشواطئ البحرية ، وقد تطلب هذا وذاك تعدد الثغور والمنافذ التي تحتاج إلي تكتيل وتجميع الجيوش بها للدفاع عنها أو الانطلاق منها ، ومنذ ذلك العصر بدأت الدولة الإسلامية في تنويع مخططاتها الاستراتيجية للدفاع عن حدودها ، حيث شملت تلك المخططات الترتيبات البرية الأرضية ، ولأول مرة تشمل الترتيبات البحرية التي لم تفعّل إلا في بداية خلافة عثمان بن عفان علي يد معاوية بن أبي سفيان ، الذي أسس أول أسطول حربي إسلامي ، وتمكن ذلك الأسطول من السيطرة المطلقة علي البحرين المتوسط والأحمر ، حيث أصبحا بحرين إسلاميين تماماً .

- التطور الاجتماعي :

بفعل التوسع الجغرافي للدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة وما صحبه من تعدد وتنوع العناصر والأعراق التي شملها فضاء الدولة ، زخر المجتمع الإسلامي بتركيبة فريدة من الأخلاط البشرية وممتلكاتها من الموروثات الحضارية والثقافية والعادات والتقاليد ،

التي مثلت جميعاً علامات فارقة ينبغي التعامل معها بحرص وروية عند صياغة وتشكيل النظام الاجتماعي للدولة الناشئة ، والتي تنمو بشكل غير معتاد ، وذلك ما فعله الرسول الكريم طيلة حياته علي رأس الدولة .[1]

إلا أنه فيما يتعلق بعصر الخلفاء اختلفت الأوضاع بشكل يمكن ملاحظته ، حيث حدثت انحرافات عن النهج النبوي نمت ببطء منذ عهد الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب ، وأميط اللثام عن وجهها الحقيقي في عهدي الخليفتين الثالث والرابع ، وقادت إلي ما عُرف في تاريخ الدولة الإسلامية بالفتنة الكبرى ، وما أدت إليه من تحول محوري في تاريخ تلك الدولة .

ومهما يكن من أمر فإن القضية الجوهرية التي تستوجب الاهتمام والعناية هي أن التطور الاجتماعي الذي شهدته الدولة الإسلامية ، ابتداءً من عصر الخلفاء الراشدين كان يحمل في ثناياه معضلات كامنة ، أساسها التفرد والخصوصية التي هُذّبت وخُزّنت متراكمة في اللاوعي الجماعي الخاص بالعناصر والأعراق ، التي انضوت تحت لواء الدولة الإسلامية والتي كان ينبغي إلا تغيب عن أذهان ولاة الأمور في هذه الدولة ، وكانت تستوجب ضرورة التمسك بالنهج النبوي الحكيم والبديع والبليغ ، الذي يدأب علي تذويب كتل التفرد والخصوصية في بوتقة الدولة الجديدة عبر نسق من القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإدارية .. الخ ، يسانده ويدعمه نمط من المنطلقات الحركية والسلوكية يسيران في اتجاه تغليب الإسلام علي كل ما عداه واستيعابه لكل ما سواه .

وقد قدّر لكل عصر من العصور في تاريخ الدولة الإسلامية أن يحافظ علي الكيان السياسي والاجتماعي للدولة الإسلامية بقدر فهمه لهذه القضية الجوهرية ومدى تمكنه من معالجتها

---

[1] . يمكن الرجوع إلي الجزء السابق من هذا المجلد .

، واستعداده للمضي بعزم ومضاء في سبيل الحفاظ علي ذلك الكيان عبر نسق القيم ونمط السلوكات ، التي تعمل علي تغييب الفروق والخصوصيات ، وتغليب المساواة والقواسم المشتركة للإسلام الذي ينبغي أن يستوعب الجميع !! .

يضاف إلي ما تقدم تعدد شرائح المجتمع الإسلامي وتداخلها ، وزيادة وتيرة التفاعلات الاجتماعية ، وتنوع إفرازات تلك التفاعلات ، وتعقد شبكة العلاقات الاجتماعية ، وبروز الجديد من الظواهر الاجتماعية داخل النسيج الاجتماعي الإسلامي ، وكانت نتائج ذلك انبعاث مستجدات مهمة ومؤثرة كان ينبغي أن تعالج بدقة وفهم وصرامة ، ولكنها تُركت لتفرز سموماً أخذت تنخر ببطء في عظام المجتمع الإسلامي وجاءت آثارها بعد حين .

وبالرغم من أن الجيش كان بعيداً طيلة فترة الخلافة الراشدة عن آثار التطورات الاجتماعية ، إلا أنه لم يظل بمنأ عن تلك الآثار في الفترات التالية في العصرين الأموي والعباسي ، بل إن تلك الآثار اندفعت بقوة وعنف إلي الجيش لتبسط فيه يد العبث والتخريب ، وسنأتي علي تفصيل ذلك في حينه .

- التطور الاقتصادي :

ومن الناحية الاقتصادية التي تتعلق بالموارد المتاحة للدولة الإسلامية الناشئة في مقابل الحاجات المتنامية للمجتمع الإسلامي المتطور اجتماعياً وسكانياً ، برزت ثلاثة مستجدات كان لها آثارها في تحديد علاقة الجيش بالدولة والحضارة الإسلامية ، وكذا بمأثورة " الأمة المجاهدة " :

• زيادة موارد الدولة وتعدد مصادرها : لقد حدثت طفرة نوعية وكمية فيما يختص بموارد الدولة الإسلامية نتيجة التوسع الكبير والمتسارع في مساحتها ، وعلي الجهة المقابلة ارتبط بما تقدم زيادة في أعباء الدولة ونفقاتها .

• بروز الحاجة إلي إنماء الموارد وتطويرها والبحث عن موارد جديدة : منذ نشأتها والدولة الإسلامية صاغت لنفسها نموذجاً في الإنماء والإحداث مستنبطاً من إطار مرجعي ثابت ركين تمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وأضيف إلي ذلك الإطار نموذج عملي تجريبي تمثل في دولة الرسول الكريم ودولة الخلفاء الراشدين ، وهذا النموذج وضع أدوات إنماء موارد الدولة وتطويرها والبحث عن موارد جديدة [1] ، وإضافةً إلي الضرورات الشرعية المستمدة من الإطار المرجعي ، كان هناك كذلك الضرورات الموضوعية التي فرضتها التطورات الاجتماعية ، التي مرت بها الدولة وأوجبت عليها مواجهة الاحتياجات المتزايدة لأفراد المجتمع ، والتي أدت بالتالي إلي زيادة أعباء الدولة وتضخم نفقاتها .

• تزايد الأعباء الاقتصادية للجيش : في حقبة الخلافة الراشدة تزايدت الأعباء الاقتصادية للجيش نتيجة كبر حجمه ، وتواصل فتوحاته وبعثاته في سبيل حمل الدعوة وتوصيلها إلي شعوب الأرض ، وقد استلزم ذلك ضرورة البحث عن موارد لمواجهة تلك الأعباء ، ومن ثم زادت أعباء الدولة وتبعاتها الاقتصادية ، وحدا بها ذلك إلي التوجه بقوة نحو الإنماء الاقتصادي لمواردها والسعي الدائم لاكتشاف موارد جديدة .

– التطور النظمي والتنظيمي :

في حقبة الخلافة الراشدة تطورت الدولة الإسلامية نظمياً وتنظيمياً في سبيل المؤسسية والاستقرار ، ويمكن متابعة ذلك علي النحو التالي :

• علي المستوى النظمي : ترسخت أركان المنهاج الإسلامي [النظام السياسي] ، وتوطدت عملياته وتفاعلاته مع المجتمع ، واستقر نموذج الإسلام في السياسة والحكم .[2]

---

[1] . بخصوص نموذج الإسلام في الإنماء الاقتصادي يمكن الرجوع إلي : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الثاني ، الاقتصاد الإسلامي ونموذج الإسلام في الإنماء الاقتصادي ، الجزء الثاني ، نموذج الإسلام في الإنماء الاقتصادي .

[2] يمكن الرجوع إلي : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الأول ، السياسة والحكم في الإسلام ، الجزء الثاني: نحو صياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة .

• علي المستوى التنظيمي :كذلك تحددت معالم نموذج الإسلام في الإدارة العامة والإدارة المحلية في شكل نظم وتنظيمات ، فبرز النظام الإداري الإسلامي ، وبرز كذلك نظام الإدارة المحلية في الأقاليم والأمصار[1] ، كما أن التنظيم ذاته تطور بشكل جيد وفعّال خلال عصر الخلفاء بوصفه عنصراً من عناصر الحضارة الإسلامية .[2]

كانت نتائج التطورات المذكورة قوية وحاسمة ، وذلك لاتسام تلك التطورات بالعمومية والشمول ، فقد شملت كافة نواحي الحياة وعمت جميع نشاطات المجتمع ، وإذا قصرنا نتائج هذه التطورات علي الجيش الإسلام لوجدناها تتحدد في الآتي :

• لقد برز للجيش الإسلامي دور أكثر تخصصاً وحرفية ، والحرفية لا تعنى أنه جيش مهنته القتال ، ولكن تعنى أنه جيش مدرب ومعد لخوض الحروب ويخبر فنونها ، وقد أضفى كل من التخصص والحرفية علي الجيش مزيدا من المؤسسية والتنظيم ، إلا أن الملاحظ أن الأسس الشرعية لوجود الجيش وأهدافه ومقاصده ، وكذا دوره واعتماده كآلية من آليات إدارة الصراع العقوي ، كل ذلك لم يتغير عما كان عليه الحال في دولة الرسول الكريم .

• لقد بات من الضروري بفعل التطورات سالفة الذكر طرح فكرة توزيع الأدوار ، وتخصيص جزء من أفراد المجتمع تتحدد مهامهم في تسيير أمور المجتمع . بما يضمن استمرار الحياة . وتلبية حاجات ومتطلبات الجيش حتى يتمكن من مواصلة مهامه وتحقيق أهدافه .

❖ **العامل الثاني : بروز الطروحات الإسلامية [اجتهادات الخلفاء إزاء مستجدات الحياة] :**

---

[1] . يمكن الرجوع الي : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الثالث ، الإدارة العامة والمحلية في الإسلام ، الجزء الاول، الإدارة العامة في الإسلام .

[2] . يمكن الرجوع إلي الجزء الأول من هذا المجلد .

تحدثنا عن العامل الأول الذي وقف وراء ترسيخ فكرة " الأمة المجاهدة " في عصر الخلفاء ، وهنا نتناول العامل الثاني الذي وقف وراء ترسيخ هذه الفكرة . وتمثل هذا العامل في البدايات الأولى لبروز الطروحات الإسلامية ، والتي جاءت تحديداً من اجتهادات الخلفاء الراشدين ومستشاريهم من كبار الصحابة والتابعين فيما يتعلق بمستجدات الحياة . وقد تمحورت تلك الاجتهادات في محورين نتناولهما فيما يلي :

- مؤسسية وتنظيم الجيش :

في عصر الخلافة الراشدة وتحديداً من خلافة عمر بن الخطاب ، بدأ التعامل مع الجيش الإسلامي كمؤسسة وكتنظيم له قوانين تحكم حركته وتسيّر جزئياته وتقعّد تفاعلاته وعلاقاته مع كافة أجزاء ومنظمات الدولة . وكان ديوان الجند هو المؤسسة والتنظيم الذي قام بالمهام المذكورة . وكان هذا الطرح الذي تحول من الطور النظري إلي واقع عملي بمثابة تفاعل وتعامل مع التطورات - التي سبق رصدها - وفرضت تطوير الجيش ، وسوف نعكف علي تفصيل هذه الجزئية في موضع لاحق .

- ترسخت مأثورة الأمة المجاهدة :

المحور الثاني للطروحات التي قدمها الخلفاء الراشدون بخصوص الجيش الإسلامي تمثل في ترسيخ " مأثورة الأمة المجاهدة ، حيث أقر الجميع بأن الجهاد كصراع عضوي فرض كفاية حتى في حالة الاعتداء علي المسلمين ، والجهاد كعطاء فعّال فرض عين حتى في حالة السلم .

ثانياً : تنظيم الجيش :

إنتهينا فيما مضى إلي أن الجيش في عهد الرسول الكريم كان بالمعنى المتعارف عليه ، من حيث أسسه التي قام عليها ، ودوره في الدولة والحضارة الإسلامية ، وأهدافه ومقاصده التي ينبغي الوصول إليها ، إلا أن التطورات التي دخلت علي الجيش في عصر الخلفاء

الراشدين ، قد تمركزت فيما يختص بالمسائل والدقائق التنظيمية ، التي كان هدفها ضبط مفردات وجزئيات الجيش وإحكام تفاعلاته وتحركاته ، انطلاقاً من التطورات التي دخلت عليه ، من حيث الحجم وتعدد المهام ، الناتج عن اتساع حركة الفتوحات ، وامتداد رقعة الدولة ، وكثرة الحدود والثغور ، وقد تطلب كل ذلك أن يكون هناك جيش دائم ، مرابط يتسم بالجاهزية والاستعداد للدفاع عن حمى الدولة وتسيير البعثات إلي شعوب الأرض لحمل الدعوة وتبليغها ، وهذا يختلف عن الجيش في عهد الرسول الكريم الذي كان يُؤذن بتجميعه عندما يدعو داعي الجهاد ، فجيش الرسول الكريم كان يلتئم عند اللزوم ، أما جيش الخلفاء فكان دائم الرباط ملازماً للتخوم ، إلا أن الجيش في عهد الخلفاء اختلف في الكثير من الأمور التنظيمية ، وكذا شارك في التفاعلات الاجتماعية والسياسية داخل الدولة الإسلامية ، مما يجعل وضعية الجيش خلال هذه الحقبة التاريخية جديرة بالدراسة والبحث :

❖ أساس الجيش من الناحية الصراعية :

بالنسبة إلي طبيعة الجيش الأكثر تخصصاً والأشد عمقاً وهي الخاصة بالظاهرة الصراعية ، فقد حدث العديد من التطورات علي موقع الجيش إزاء هذه الظاهرة التي يمثل أداتها الشرعية والرسمية الوحيدة ، ويمكن رصد تلك التطورات فيما يلي :

- الجيش أداة لإدارة الصراع العضوي :

كان الجيش في عهد الخلفاء الراشدين كما كان في عهد الرسول الكريم أداة لإدارة الصراع العضوي ، ولكن هذه الأداة اختلف موقعها من الظاهرة الصراعية خلال العهدين ، ففي عهد الرسول الكريم كان الجيش كأداة من أدوات إدارة الصراع العضوي يمثل خط الدفاع الأول وخط الهجوم الأخير ، ولا يُلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى ، أما في عهد الخلفاء

فقد اقترب الجيش أكثر من خط الهجوم الأول ، ولم يعد خط الدفاع الأخير الذي لا يُلجأ إليه إلا عند الضرورة ، وذلك ناتج عن أسباب سوف نوضحها بعد قليل .

- الجيش وإخضاع إرادة الآخر :

الأمر الثاني فيما يتعلق بعلاقة الجيش بالظاهرة الصراعية ارتبط باستخدام الجيش كأداة لإخضاع إرادة الآخر ، ولم يثر الاختلاف بين عهد الرسول الكريم وعهد الخلفاء الراشدين بخصوص كون الجيش أداة لإخضاع إرادة الآخر ، ولكن ثار الاختلاف فيما يتعلق بطبيعة وكنه الآخر ، وذلك ما يمكن إيضاحه فيما يلي :

• الآخر في عهد الرسول الكريم كان يتمثل في القبائل والتجمعات البشرية العربية ، ولم يكن الجيش الإسلامي في عهد الرسول الكريم يقصد تلك القبائل في ذاتها ، ولكن كان يقصد زعماء تلك القبائل الذين يحولون دون وصول الدعوة إلي أفرادها ، وكان هؤلاء الزعماء لا يتجاوزون مجموعة من الأشخاص ومن حولهم من الأتباع ، وبالرغم من قوة العلاقة بين زعماء القبائل وأفرادها ، إلا أنهم في حالة صدامهم مع الجيش الإسلامي ، لم يكونوا يمثلوا إلا أنفسهم أو علي الأكثر أسرهم ، وكان بقية أفراد القبيلة يصبحون وجهاً لوجه مع حملة الدعوة الجديدة ودعاتها .

• في حين كان الآخر في عهد الخلفاء يتجسد في كيانات سياسية قومية ذات طبيعة نظمية وتنظيمية ، ترتكز علي مقدرات ومكنات حضارية وثقافية واقتصادية ذات خصوصية ، وتملك جيوشاً قومية قوية ومتمرسة علي القتال والصراع ، وكان علي الجيش الإسلامي أن يصارع الجيوش المقابلة ثم الزعامات والرموز السياسية ، فيهزم الجيش ويزيح الرموز والزعامات ، حتى يقدّر له توصيل الدعوة إلي المخاطبين والمستهدفين ، وهم الشعوب التي كانت ترزح تحت نير استعباد وقمع تلك الزعامات والرموز ، ولم يكن الآخرون

يمثلون أنفسهم كزعماء قبائل العرب في عهد الرسول الكريم . ولكن كانوا يمثلون وراءهم تكتلاً صلباً من الكيانات القوية نظمياً وتنظيمياً ، والمرتكزة علي أواصر ووشائج قومية وعنصرية متينة ، يدعمها رصيد وافر من الميراث الحضاري والثقافي المميز ، وكان ذلك شأن الإمبراطوريتين العظميين في ذلك الوقت ، الإمبراطورية الفارسية الساسانية والإمبراطورية الرومانية البيزنطية وغيرهما من الكيانات .

فالآخر إذن في عهد الرسول الكريم كان زعماء القبائل ومن حولهم من الأتباع الذين كان يمكن أن يتفرقوا في أية لحظة عندما يستشعرون قوة البعثة الإسلامية ، ومن ثم يمكن النفاذ إلي المخاطب والمستهدف الأساسي والأصيل بالدعوة ، أما الآخر في عهد الخلفاء الراشدين فكان جيشاً نظامياً قوياً ومحترفاً ، ثم قادة وزعماء ثم نظاماً سياسياً ، ثم دولة عريقة ذات حضارة وثقافة لها جذور وامتدادات قومية عنصرية ، ولم تكن إزاحة كل تلك الحواجز بالأمر اليسير حتى يمكن النفاذ إلي المخاطبين بالدعوة .

وعليه فقد كان علي الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء أن يكون أكثر تواؤماً واستعداداً لطبيعة الصراع العضوي وطبيعة وقوة إرادة الأخر ، ومن شأن ذلك أن يضفي علي الجيش سمات خاصة ومقدرات غير معتادة ، كما كان من شأنه كذلك أن يجعل الجيش الإسلامي دوماً أقرب إلي الصراع منه إلي المهادنة ، وذلك ما سوف نوضحه في البند التالي .

الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء أقرب إلي الصراع من المهادنة :

استخلاصاً مما تقدم وبمتابعة تطور الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ، ومقارنته بظروف ووضعية الجيش في عهد الرسول الكريم لوحظ أن الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء كان أقرب إلي الصراع منه إلي المهادنة ، وليس مبعث ذلك أن الجيش الإسلامي كان ميالاً إلي العنف والصراع ، ولكن الأسباب الحقيقية وراء ذلك تكمن فيما يلي :

• إن وجود الرسول علي رأس الدولة ، وقيادته للكثير من البعثات الإسلامية — كما سبق الإيضاح — كان له أثره في جنوح الجيش الإسلامي للمهادنة وتلمس كافة السبل ، من أجل توصيل الدعوة سلماً دون خوض الصراع ، وغالباً ما كانت تلك المساعي النبوية الكريمة تكلل بالنجاح ، فكانت القبائل العربية بالرغم من كفرها وعزوفها عن الدخول في الإسلام تجلّ الرسول الكريم وتحسب له عظيم خلقه وسمو مكانته وعراقة أصله بين العرب ، وما كان كفر العرب وشركهم إلا مكابرة واستنكافاً .

• كان الآخر في عهد الخلفاء الراشدين على قدر عظيم من القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية ، مما جعله أكثر جبروتاً وطغياناً وميلاً إلي الصراع ، ورفضه للدعوة بشكل مطلق، ثم الحيلولة دون وصولها إلي الشعوب المخاطبين بها .

• كذلك كان الآخر يرغب في الصراع مع المسلمين بل وتحرش بهم ، وطمح في القضاء عليهم ، عندما استشعر قوتهم وأحس بخطر الدعوة علي كيانه ومقدراته .

• إن لجؤ المسلمين إلي الصراع مع الآخر كان عملاً وقائياً لدرء الخطر الماثل قبل أن يحيق بالدولة الإسلامية والدعوة إلي دين الله ، وبصفة خاصة أن المسلمين كانوا قد استشرفوا ميل الآخر إلي العدوان ، ورغبته في التعدي علي المسلمين والقضاء عليهم .

❖ أهداف الجيش :

التطورات – التي سبق وأوضحناها — قادت إلي تعديد وتعميق أهداف الجيش في عهد الخلفاء الراشدين ، والتوسع في الأهداف يعني في ذات الوقت الاختلاف في طبيعة الجيش الإسلامي من حيث الحجم والتنظيم والجاهزية والفعالية . وكل ذلك جعل الجيش الإسلامي الأكثر تأهيلاً في تلك الفترة ، لأن يكون أقوى جيش على ظهر الأرض . هذا إذا ما أضيفت إلي ما سبق من مقدرات عنصر العقيدة كأهم عناصر ومقومات قوة الجيش

الإسلامي وقدرته الفائقة علي تحقيق أهدافه ومقاصده ، ويمكن تناول أهداف الجيش فيما يلي :

- الدفاع عن الدولة الإسلامية :

أوضحنا سلفاً التوسع الذي طرأ علي رقعة الدولة الإسلامية نتيجة الفتوحات التي تمت في عهد الخلفاء الراشدين ، وأدت هذه الامتدادات إلي طول حدود الدولة وتنوع أشكالها ، كذلك عرفت الدولة الإسلامية لأول مرة السواحل البحرية وما تتطلبه من مستلزمات دفاعية ذات طبيعة خاصة لم يألفها المسلمون من قبل ، وكان لكل ما تقدم أثره البالغ في تطوير هدف الجيش الإسلامي المتمثل في الدفاع عن الدولة ، والذي سار في اتجاهات عدة :

- الاتجاه الأول : حيث استلزم طول حدود الدولة وتنوعها بين الصحاري والجبال والسهول والممرات المائية ، أن تكون ثمة قوات مرابطة ودائمة لحراسة هذه الحدود والحيلولة دون اختراقها والتعدي علي حمى الدولة الإسلامية ، ومن ثم عُرف الجيش النظامي الدائم .

- الاتجاه الثاني : حيث استلزم الاتجاه السابق إقامة الحصون والقلاع علي الحدود وفي الثغور ، ونشأت من أجل ذلك المدن الحدودية والمعسكرات ، والطرق ، والمعسكرات علي الطرق للإمداد والتموين ، وقد برع المسلمون في شئون الإمداد والتموين بشكل ملفت .

- الاتجاه الثالث : حيث ابتكر المسلمون نوعيات من الأسلحة تتواءم مع طبيعة الدفاع ومقتضياته عن الحدود بجميع أشكالها الصحروية والجبلية والسهلية والممرات المائية .

- الاتجاه الرابع : حيث بدأ المسلمون لأول مرة يتعاملون مع السواحل البحرية علي البحر المتوسط في سوريا ومصر وطرابلس وتونس ، إضافةً إلي سواحل البحر الأحمر ، ومن

ثم شرعوا في بناء أسطول حربي في عهد عثمان بن عفان ، وبمجهودات معاوية بن أبي سفيان والي سوريا ومساعدة عمرو بن العاص والي مصر ؛ وسوف نوضح ذلك تفصيلاً في حينه .

• الاتجاه الخامس : حيث برعت العسكرية الإسلامية في فنون تحريك الجيوش ونقلها من موقع إلي آخر للنجدة والمساندة والدفاع ، وكذا القدرة علي المناورة ، والتحول السريع والمفاجئ من الدفاع إلي الهجوم بأسلوب يربك الخصم ، وسوف نوضح ذلك في مواضعه .

– حمل الدعوة وتوصيلها :

لقد بات هذا الهدف أكثر صعوبة من ذى قبل ؛ فالدعوة قد تجاوزت القبائل والأحياء العربية إلي إمبراطوريات قوية في ذاتها أو في مستعمراتها ، ونظراً لأهمية التطور الذي دخل علي هذا الهدف في أهم وأخطر فترات نشر الدعوة الإسلامية في التاريخ الإسلامي ، فقد رأينا تفصيله من خلال الآتي :

• مهمة الجيش الإسلامي في نشر الدعوة الحمل والتوصيل :

شهدت فترة الخلافة الراشدة أهم فترات نشر الدعوة الإسلامية في قارتي أسيا وأفريقيا ، وقد قام الجيش الإسلامي بدور يعتد به ويعّول عليه في نشر الدعوة خلال هذه الفترة ، ولم يكن الجيش الإسلامي يعمد إلي نشر الدعوة وفق ما علق في أذهان بعض البحاثة والعامة عبر الغزو ثم الإجبار علي الدخول في الدين الجديد ، ولكن اختلف الأمر عن ذلك تماما ، فالجيش الإسلامي بمعناه – الذي سبق وأوضحناه — لم ينشر الدعوة أبداً بل حملها وأوصلها فقط ، أما التبليغ فقد كان مهمة الدعاة ، وعليه فعملية نشر الدعوة التي تنسب إلي الجيش تتكون من ثلاثة عناصر قام الجيش باثنين منها وترك العنصر الثالث للدعاة ، وذلك ما سيتضح من التحليل التالي :

○ حمل الدعوة : كان حمل الدعوة الإسلامية من خلال الجيش يعني وجود الدعاة ممن فقهوا الدين قرآناً وسنة ، عبادات وأحكاماً ، حدوداً ومعاملات في ثنايا الجيش ، إذ كان الدعاة علي صفتين : الصفة الأولى : صفة المقاتلين ، والصفة الثانية : صفة المرافقين ، وقد رأى بعض الخلفاء عدم إشراك الدعاة في القتال لاستشهاد العديد منهم في بعض المعارك التي خاضها الجيش الإسلامي ، وفي ذلك تأثير بليغ علي أدوات التبليغ التي يصعب تعويضها .

○ توصيل الدعوة : أما عن توصيل الدعوة عن طريق الجيش فكان يعني إجرائين : الإجراء الأول : تبليغ الدعوة إلي أولياء الأمور أو الحكام المسئولين عن الشعوب ، فإذا أجابوا بقبول الدعوة ، أتاحوها للشعوب التي تحتهم ، وأتاحوا للمسلمين الفرصة لتوصيلها وتبليغها . الإجراء الثاني : إذا رفض أولياء الأمور الدعوة وكانوا حائلاً دون توصيلها إلي شعوبهم ، لزم إزالتهم للنفاذ بالدعوة إلي الشعوب ، المخاطب الأساس بها ، وإزالة أولياء الأمور تعني إزالة عدة عقبات أولها الجيوش ، وثانيها الدول والكيانات السياسية والنظم والتنظيمات التي تتبعها ، وثالثها الحكام والسادة [أولياء الأمور] ، ورابعها الموروثات الحضارية والثقافية وبالذات ذات الطابع الديني ، وبعد ذلك تكون عملية التوصيل قد بلغت نهايتها بوصول الدعوة إلي الشعوب وهنا يبدأ الدعاة في مباشرة مهمتهم

○ تبليغ الدعوة : وهذه مهمة الدعاة ، حيث يتولون مخاطبة الشعوب مباشرة وتعريفهم بالإسلام ، والدعاة يقومون بهذه المهمة كدعاة حيث تنتهي علاقتهم بالجيش الإسلامي ، فإذا كانوا مرافقين فصفتهم ثابتة ، أما إذا كانوا مقاتلين فينبغي تخليهم عن هذه الصفة تماماً حتى لا يرهبون الناس ويجبرونهم على الإسلام ! .

• حمل الدعوة [تفصيل] :

مهمة الجيش الإسلامي هي مهمة عقيدية بالأساس ، فهو يدافع عن العقيدة كمعتقد راسخ في العقول والقلوب وكحقيقة نظامية في شكل دول وكيانات ، وهذا الدفاع يأتي ضد الاعتداءات والتعديات الخارجية أو التشققات وحركات الخروج الداخلية ، إضافةً إلي ما تقدم فالجيش يحمل الدعوة الإسلامية ، ويتحرك بها في الاتجاه الذي يراد توصيلها إليه ، ليتولى الدعاة تبليغها ونشرها .

وحمل الدعوة عن طريق الجيش يعني أن ثمة أدوات وآليات مهمتها تبليغ الدعوة ونشرها بأساليب خاصة تسير في ركاب الجيش وترافقه ، وربما تتبعه وتعقب وصوله إلي الجهة المقصودة ، وهذه الأدوات والآليات هم الدعاة الذين أُعدوا خير إعداد وهُيئوا أحسن وأمثل تهيئة ، حتى يكونوا أحسن أسوة وأصلح قدوة ، وأساليبهم في التبليغ معروفة تتدرج في منطلقات متتابعة تعتمد علي البسط والتبسيط ، والترغيب دون الترهيب ، لا تعرف الملل أو الكلل ، بل تسلك الأناة والصبر ، ولا تبتغي غير وجه الله وإعلاء دينه .[1]

وعن صفة الدعاة وهيئتهم في الجيش الإسلامي ، فهم إما أن يكونوا مقاتلين في صفوف الجيش ، وإما أن يكونوا مرافقين يتولون مهامَ دعوية داخل الجيش للإرشاد وحث المقاتلين وتشجيعهم ، وهنا تجدر الإشارة إلي أن الدعاة في عهد الرسول الكريم كانوا علي رأس البعثات ، التي هي سرية أو جزء من الجيش ، فكان أمير السرية هو الداعية الأول ومعه معاونون ، أما في عهد الخلفاء الراشدين فقلما حدث ذلك ، إذ أن قيادة أو إمارة الجيش كانت قيادة متخصصة أي عسكرية بحتة ، أما الدعاة فكانوا إما مقاتلين أو مرافقين .

---

[1] . لتفصيل أكثر يمكن الرجوع إلي : موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد العاشر ، الدعوة الي الإسلام ، الجزء الأول ، مفهوم الإسلام للدولة الداعية .

كذلك كان يمكن للدعاة أن يتعقبوا الجيش أي يصلون في أثره ، وبعد أن يتمكن من إزالة العوائق والحواجز التي تعوق وصول الدعوة إلي الشعوب المقصودة ، وفي هذه الحالة وفي كافة الأحوال كان يتم اختيار الدعاة بما يتواءم مع طبيعة البلاد التي يقصدها الجيش حاملاً الدعوة ، كأن يعرفون طبائع أهل تلك البلاد وخصائصهم ولغاتهم وموروثاتهم الحضارية والثقافية ، وغير ذلك من الأمور التي تسهل عملية الاتصال والتواصل مع شعوب تلك البلاد ، وتقديم الإسلام بالشكل اللائق والمناسب ، ولا يعتبر توافد الدعاة في أعقاب الجيش وعلى أثره إعفاءً له من مهمة حمل الدعوة ، لأن الجيش في هذه الحالة إذا لم يكن قد اكتنف الدعاة وإنتظمهم في ثناياه ، فهو قد مهد لهم الطريق وسهل مهمتهم في الوصول إلي المخاطبين ومواجهتهم بشكل مباشر .

• توصيل الدعوة [تحليل] :

لقد حمل الجيش الإسلامي آليات وأدوات الدعوة في ثناياه أو في أعقابه ، ثم بات لزاماً عليه أن يوصلها إلي المخاطبين المستهدفين ، وهذه هي المهمة الثانية التي ينبغي عليه أن يتولاها فيما يختص بنشر الدعوة الإسلامية ، وتوصيل الجيش للدعوة عملية معقدة وتتكون من مراحل عديدة ، من الصدامات المتتالية التي يخوضها الجيش حتى ينتهي بالدعوة إلي الشعوب المخاطبة بها . والصدامات المتتالية هي سلوك يسلكه الجيش من أجل إزالة العوائق والحواجز العديدة التي تحول دون وصول الدعوة وذلك عبر إدارة الصراع العنوي ، وتتجسد العوائق والحواجز التي علي الجيش أن يصارعها عضوياً أو فكرياً في الآتي :

○ الصراع مع جيوش قوية :

شهدت فترة الخلافة الراشدة أهم فتوحات الدولة الإسلامية وأخطر مراحل انتشار الدعوة الإسلامية ، فقد دخل الجيش الإسلامي في صراع عضوي عنيف مع أكبر وأقوى جيشين

لأعظم وأعتى إمبراطوريتين في التاريخ المدّون على الإطلاق : الإمبراطورية الفارسية الساسانية والإمبراطورية الرومانية البيزنطية ، الأولى في ذاتها ، والثانية في مستعمراتها ثم في ذاتها . لقد تعددت الصدامات بين هذين العملاقين ، ولم ينل أحدهما من الآخر ، فقد كانت قوتهما هائلة ومقدراتهما الاقتصادية كبيرة ، ورصيدهما الحضاري والثقافي وفير ومشهود ، فمن يمكنه أن يباري الأعظمين !! .

لقد تقدم الجيش الإسلامي المتواضع عدة وعتاداً القوى عقيدة وإيماناً ، تقدم ذلك الجيش ليزيح أول العوائق والحواجز ، ولكنه في ذات الوقت أهمها وأعتاها ، كانت قوة جيوش فارس والروم لا يُستهان بها ، ولكنها كانت هينة أمام قوة الجيش الإسلامي الذي قدّر له أن ينه كيان الإمبراطورية الفارسية من الوجود ، وأن يحرر أهم مستعمرات الإمبراطورية الرومانية في شرق المتوسط وشمال أفريقيا ، وأن يهدد كيان الإمبراطورية ذاته .

وكانت نهاية الصراع العضوي بين الجيش الإسلامي وجيوش الفرس والروم هي تبدد الأول، وانسحاب الثاني من الشام ومصر وشمال أفريقيا إلى غير رجعة ، ومن ثم كانت الحلقة التالية من الصراع .

○ الصراع مع دول ونظم وتنظيمات :

بعد انتهاء الصراع العضوي بين الجيوش استجد صراع من نوع آخر ، صراع بين جيش لا يفهم إلا لغة الصراع العضوي ومنطق القوة وبين بقايا الكيان المنهار ، بقايا دولة بنظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. الخ ، وكذا تنظيماتها الإدارية ، فكيف يمكن للجيش الإسلامي أن يتجاوز هذا العائق ويتعامل مع هذه البقايا ، لقد تعامل الجيش الإسلامي بمنطق آخر غير منطق القوة ، وبلغة مختلفة سوى لغة الصراع العضوي ، لقد أفسح الجيش الطريق في مهارة وحكمة لأهل الاختصاص وذوى الشأن ، الذين يفهمون في الإدارة والسياسة لكي يديرون شئون هذه البلاد ويدبرون أمور أهلها ، وبدأ التعامل مع

تلك النظم والتنظيمات على أنها الأدوات والآليات المبدئية للإدارة والسياسة ، حتى يتم استدعاء الأدوات والآليات الإسلامية النابعة من الأطر المرجعية الإسلامية ، ومن خلال هذا التدرج تطورت الأمور والأوضاع ، وتم التمكين للأنظمة والتنظيمات الإسلامية دون عنف أو ترويع .

○ الصراع مع الحكام والسادة والمتنفذين :

كانت الحلقة التالية هي حدوث مواجهة بين الجيش الإسلامي وبين الحكام والسادة والمتنفذين من أهل البلاد المفتوحة ، وأفضت تلك المواجهة إلي نتائج عديدة ، فمن هؤلاء من دخل الإسلام ولو على مضض في البداية ، ومنهم من رفض الدعوة وآثر مواصلة الصراع العضوي وقضى نحبه ، ومنهم من آثر الفرار خارج البلاد ، وعندئذ أصبح الطريق مفتوحاً أمام الدعوة الإسلامية لتصل مباشرة إلي الشعوب ، ويتم الخطاب المباشر بين الدعاة الذين سيتسلمون مهمتهم من هذه اللحظة التاريخية ، والشعوب الراغبة في التعرف علي الدين الجديدة التواقة إلي التحرر والإنعتاق من نير الاستعباد والسيطرة .

• تبليغ الدعوة [مواصلة] :

من هنا استلم الدعاة مهمتهم وبدأوا يباشرون أعمالهم وأسدل الستار على دور الجيش وتحول إلي دور آخر ، هو دور المدافع عن الوضع الجديد المرسخ له والداعي إلي الأمن والاستقرار ، وخلال هذه المرحلة الجديدة كانت هناك جملة من التدابير كان على الدعاة القيام بها ، وهي تتمثل في الآتي :

○ وضعية الشعوب المحررة :

وضعية الشعوب المحررة التي أعتقها المسلمون ورحل عنها قاهروها وجلادوها ، وضعية معقدة ومركبة ، فلأول مرة يصبح هؤلاء أحراراً ، ويملكون حرية الاختيار في أهم وأثمن ما

يمكن أن يمتلكه الإنسان وهو المعتقد . لقد قدّر لهم أن يروا سادتهم وكبراءهم يُذلون كما أذلوهم من قبل ، ولكن المهم أنهم في مفترق طرق وعليهم تحديد توجهاتهم ومسارهم .

○ توزيع الأدوار بين الجيش والسياسة :

أما عن الطرف الإسلامي فكانت هناك عملية بديعة لتوزيع الأدوار بين الجيش والسياسة ، فالجيش كان عليه أن يتحول إلي دوره – الذي سبق وأشرنا إليه أعلاه – ، وعلى السياسة أن تحل محله ، وهنا يمكن لقائد الجيش أو أميره أن يتولى الإمارة العامة على الإقليم أو الولاية ، ولكنه لا يتولى أمر الدعوة .

وربما يبعث المركز بأمير غير أمير الجيش ليتولى الإمارة العامة علي الإقليم ، ولا علاقة له أيضا بمسألة الدعوة . وقد يكون هناك أميران يتقاسمان الولاية العامة ، حيث تصير ولاية كل منهما ولاية خاصة ، يتولى بموجبها مجموعة من المهام مثل إقامة الصلاة ، أو جمع الضرائب ، وفي هذه الحالة أيضاً لا يكون لأي من الأميرين شأن بمسألة وشئون الدعوة ، فالأخيرة لها أصحاب الشأن والتخصص .

○ الدعاة والتبليغ القائم على التخيير والاختيار :

يتولى الدعاة الذين جاءوا بصحبة الجيش أو في أعقابه أمور الدعوة إلي دين الله ، بتعريف الناس على الإسلام وما يحمله من قيم وفضائل ، ويتركون لهم حرية الاختيار ، ولقد حاول الكثيرون التدخل في هذه الجزئية المهمة من جزئيات العلاقة بين الجيش والدعوة الإسلامي ، تلك العلاقة الدقيقة والعضوية والتي ينبغي أن تعالج بدقة وموضوعية كما حاولنا تناولها ، فامتدت إليها يد العبث والحقد فطمستها وعتّمت عليها حتى لا يراها المنصفون ، ويتوهم المتابع أن الجيش فرض الدين الجديد وهو من ذلك برئ .

لقد انتهت مهمة الجيش بإزالته آخر حاجز من حواجز الإحالة بين الدعوة والشعوب ، وفوّض الأمر إلي الدعاة كي يتولوا مهمة التبليغ ، وتصبح العلاقة مباشرة بينهم وبين تلك الشعوب بعد إزاحة الحكام والسادة والمتنفذين ، ومن ثم فالجيش الإسلامي قد تحددت علاقته بالدعوة في كونه حاملاً موصلاً . أما الدعاة فكان عليهم البلاغ المبين . وأما الإيمان فأمره إلي الله ، فهو القائل ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ .[1]

والقائل ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ .[2]

والقائل ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ .[3]

والقائل ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ .[4]

والقائل ﴿ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۖ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴾ .[5]

---

[1] . سورة إبراهيم : ٤ .
[2] . سورة النحل : ٩٣ .
[3] . سورة القصص : ٥٦ .
[4] . سورة فاطر : ٨ .
[5] . سورة المدثر : ٣١ .

○ الصراع مع الموروثات الحضارية والثقافية :

إن علي الدعاة أن يخوضوا أيضاً صراعاً ، ولكنه صراع فكري أدواته الحجة والبرهان وحسن البيان والقدرة على التبيين ، عليهم وهم يدعون إلي دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالمنطق ، أن يصارعوا ما توارثته هذه الشعوب من عادات وتقاليد وأفكار ، فيدحضوا حيثياتها ، ويفندوا وجودها وجدواها ، حتى يتمكنوا من إزالتها من ذاكرة ووعي تلك الشعوب ، ويُحلوا محلها معتقدات الإسلام وقيمه ، فيتم الاختيار علي يقين ، ويتم الإيمان على بينة ، فيرسخ في العقل والقلب معاً وهذا ما كان .

– تأمين الأوضاع الداخلية :

مهمة أخرى من مهام الجيش لحقها التطوير والتعديل ألا وهي مهمة تأمين الأوضاع الداخلية بالدولة الإسلامية ، التي اتسعت مساحتها ، وتعددت أقاليمها ، وتنوعت شعوبها ، وترامت أطرافها ، بما تطلب من المركز أن يكون على قدر من القوة والمكنة بما يجعله يسيطر على كافة الأجزاء .

ويجرنا ما تقدم إلي الحديث عن عملية عدم الاستقرار في ربوع الدولة الإسلامية الناشئة ، فلقد شهدت هذه الدولة حالة من عدم الاستقرار خلال فترة حكم الخلافة الراشدة ، ومن الجدير بنا البحث في هذه الظاهرة في هذا الوقت بالذات ، ثم متابعة دور الجيش إزاءها ، وذلك من خلال طرح الأفكار التالية :

• أسباب ظاهرة عدم الاستقرار في الدولة الإسلامية :

فترة حكم الخلفاء الراشدين تعد مرحلة تأسيس الدولة وإرساء قواعد الحكم والإدارة فيها ، وقد سادت الدولة الإسلامية حالة من عدم الاستقرار انعكست في مظاهر وأشكال شتى ،

وكان هناك أكثر من سبب يقف وراء ظاهرة عدم الاستقرار السياسي في الدولة الإسلامية إبان فترة الخلافة الراشدة ، ويمكن تناول أهم تلك الأسباب في الآتي :

○ الدولة الإسلامية تمثل ظاهرة فريدة في عالم الكيانات السياسية ، فهي دولة غير تقليدية ، فهي لم تنشأ منذ تأسيسها ذات حدود جغرافية ثابتة وإقليم محدد المعالم ، ولكنها كانت دولة دائمة الاتساع والامتداد ، اشتملت على عناصر وأجناس شتى ، وبيئات طبيعية وجغرافية متباينة ، وحضارات وثقافات متنوعة ، وقد خلق كل ما تقدم حالة من عدم التجانس بين أجزاء الدولة ، قادت إلي حالة من عدم الاستقرار ، كان لسمات الرحابة والإنسانية ، التي اتسم بها الإسلام دور يعتد به في التقليل من آثارها ، ولكن لم يقدّر له القضاء عليها . فكانت تبدو من وقت لآخر ، وفي أماكن مختلفة ، عندما تتجمع الظروف لبعثها .

○ لقد شعرت العناصر غير العربية التي دخلت الإسلام بحالة من عدم الرضا عن وضعهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، حيث أحبطهم تميز العنصر العربي ، مما نمّا لديهم شعوراً بالسخط وقابلية للخروج على النظام السياسي ، انعكس في أشكال وتعبيرات عديدة .

○ كان لحداثة إسلام شق كبير من الأقاليم والولايات دور يعتد به في خروجهم على المركز، انطلاقاً من عدم فهمهم للدين الجديد ، وتجاهلهم للعوامل التي توثق عرى التلاحم بين المسلمين ، وتركيزهم على التباينات والمثالب .

○ أدى ضعف إيمان بعض القبائل العربية الذي اقترن بطموحات كبرائها إلي التفكير في منافسة قريش ولو بالافتراء والكذب والاختلاق ، وهذا ما حدا بالبعض لإدعاء النبوة وبالبعض الآخر للارتداد عن الإسلام .

○ لقد وقف — عن عمد مرة أو غير عمد أخرى — شخصيات إسلامية ذات وزن وراء تغذية بعض عوامل عدم الاستقرار ، وبصفة خاصة في عهدي عثمان وعلي ، من أمثال عمرو بن العاص ومعاوية بن سفيان وغيرهما ، وقد كان ثمة خلاف بين تلك الشخصيات حول صيغ وأشكال ممارسة الحكم في الدولة الإسلامية .

○ بدأ خلال فترة حكم الخليفتين الثالث والرابع عثمان وعلي ، ضعف سيطرة المركز على بعض الولايات الإسلامية المتميزة ، من حيث موقعها داخل الدولة ومقدراتها الاقتصادية والحضارية ، وكذا من حيث شخصية ولاتها مثل مصر التي حكمها عمرو بن العاص والشام التي حكمها معاوية بن أبي سفيان ، وقد أدى ذلك التميز إلى إتاحة الفرصة لخروج أهلها على المركز ، وهذا ما حدث في أخريات عهد عثمان بن عفان .

○ ثارت خلافات بين رجالات الدولة الإسلامية حول توزيع مفردات الحكم وأسس ذلك التوزيع ، وكذا توزيع المقدرات المادية التي أراد البعض الاستحواذ على نصيب كبير منها دون الآخرين ، فقد حاول عمرو بن العاص الانفراد بمقدرات مصر ، وكذلك فعل معاوية بن أبي سفيان في الشام ، مما أدى إلى ضعف المركز ، وتطورت تلك الخلافات إلى صراعات عضوية بين المختلفين .

○ حدثت اختلالات في الأسس التي صاغها الرسول الكريم فيما يتعلق بأصول الحكم والسياسة ، وتم تغييب الكثير من القيم الخاصة بتلك الأسس خلال فترتي حكم عثمان وعلي، مما أدى إلى اختلاط الأوراق ، واختفاء النسق المتفق عليه بين جميع الصحابة حول المشاركة في صناعة القرار وأمور الحكم .

○ برزت بشكل واضح منذ أواخر حكم عمر بن الخطاب النعرات العصبية والقبلية ، واستشرت بشكل مرضي في فترتي حكم عثمان وعلى التحزبات القائمة على تلك النعرات.

وبات لكل خليفة أنصار ومناهضون ، ولم تعد الأمة يداً واحدة ، بل انقسمت إلي مؤيد ومعارض ، وهكذا انتشرت الفتنة الكبرى في ربوع الدولة الإسلامية .

وفي ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته أن لا يسلط على أمتي عدواً من غيرهم فأعطاني ، وسألته أن لا يهلكهم بالسنين أي بالقحط فأعطاني ، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعني " ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد حبشي ، وإن من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ [أي الأنياب] وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة " ، وقال الرسول الكريم " إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم " .

• الجيش الإسلامي وعدم الاستقرار السياسي :

لقد وقف الجيش الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة من عدم الاستقرار السياسي موقفاً اختلف من حالة إلي أخرى :

○ ففي ظروف الارتداد عن دين الله والخروج عن الطاعة تدخل الجيش الإسلامي بقوة وحزم، حتى قطع الفتنة وفرض الأمن وأعاد الأمور إلي أوضاعها ، ومكّن للدولة الإسلامية ونشر هيبتها في كافة الأقاليم والمناطق .

○ أما في ظروف الفتنة واختلاف المسلمين وتفرقهم إلي شيع وأحزاب ، فكان موقف الجيش الإسلامي موقفاً يحتاج إلي دراسة وتحليل ، حيث انقسم على نفسه ، وأصبح لكل شيعة جيش خاص بها ، وتحاربت الجيوش الإسلامية وقاتل بعضها بعضاً ، وذلك ما سوف نوضحه بعد قليل .

- أمثلة لعدم الاستقرار السياسي وموقف الجيش الإسلامي :

سنصطفي عدة أمثلة لظاهرة عدم الاستقرار السياسي التي انتشرت في فترة الخلافة الراشدة ، وننظر ماذا كان موقف الجيش الإسلامي إزاءها :

○ فهناك حروب الردة التي خاضها الجيش الإسلامي ضد القبائل والأحياء العربية التي ارتدت عن الإسلام ، وشقت عصا الطاعة بعد انتقال الرسول الكريم إلي الرفيق الأعلى وفي فترة حكم أبي بكر الصديق ، وقد تمكن الجيش من القضاء على تلك الفتنة وأبلى بلاءً حسناً ، وذلك راجع إلي توحد كلمة المسلمين في مواجهة هذه الفتنة ، واتفاقهم على تكييفها وعلى آليات مواجهتها لأنها تمس عصب الدين وقوام العقيدة .

○ وهناك مقتل ثلاثة من الخلفاء الراشدين ، حيث قُتلوا ثلاثتهم بأيدي ثلاثة من العناصر الحانقة الحاقدة التي دخلت الإسلام ، ولعلهم من السوقي والغوغاء ولكن كان وراءهم دوافع وبواعث ذات دلالة ، وإزاء هذه الأحداث المؤسفة وقف الجيش الإسلامي عاجزاً ، لأنه لم يتمكن من مواجهة حالة السخط والنقمة ، التي امتلأت بها نفوس الكثيرين ممن دخلوا الإسلام وفوجئوا بالتفرقة بينهم وبين العنصر العربي على غير ما عرفوا وسمعوا عن عصر النبوة الزاهر .

○ وهناك الفتنة الكبرى حيث اقتتل المسلمون ، وتوزع الجيش الإسلامي ليصبح جيوشاً تقاتل بعضها البعض ، وكلٌ كان يعتقد أنه على الحق ، وهنا لم يعد الجيش الإسلامي ذو كيان موحد ، ولم يكن باستطاعته إن كان كذلك أن يواجه هذه الكارثة ، فهي الفتن التي أخبر عنها الصادق الأمين أنها ستكون كقطع الليل المظلم .

- بروز قوة الجيش وجموحها :

في فترة الخلافة الراشدة وبصفة خاصة في عهد عمر بن الخطاب بلغت قوة الجيش الإسلامي أوجها ، وتابع فتوحاته إلي أن وصل إلي أطراف الدولة شرقاً وجنوباً وشمالاً ، وتعددت الجيوش الإسلامية وتحركت في كافة الاتجاهات[1] ، واكتسبت الخبرة والدربة انطلاقاً من احتكاكها بأقوام شتى ، وكان يمكن للجيش الإسلامي في خلافة عمر بن الخطاب أن يصل إلي أبعد مما وصل إليه ، ولكن الخليفة لم يطلق العنان لقيادات الجيش الإسلامي الذين أخذت منهم انتصاراته كل مأخذ ، حيث أصبح أقوى جيوش الأرض على الإطلاق ، إلا أن الجيش الإسلامي أصابه الوهن في أواخر حكم عثمان بن عفان وأوائل حكم على بن أبي طالب وتحوّل — كما سبق الإشارة — إلي عدة جيوش متناحرة ، وكان من المنطقي أن تتوقف عملية الفتوحات ويتأثر نشر الدعوة ولكن إلي حين ، فقد استعاد الجيش الإسلامي قوته مرة أخرى في عهد بنى أمية ، وأضاف إلي الدولة الإسلامية فتوحات جديدة ، ولكن تحت أشكال واعتبارات ذات خصوصية ودلالة ، وسوف نتناول ذلك في حينه .

- إقحام الجيش الإسلامي في شئون السياسة :

لم يكن ثمة اعتراض على تدخل الجيش في الأوضاع الداخلية لإقرار الأمن ، والدفاع عن الهيبة الداخلية للدولة ، وحماية الدين من الفتنة والقضاء عليها وعلى التمرد والعصيان والارتداد ، بل إن ذلك يُحمد للجيش ، ولكن ما حدث بعد مقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان، يعد تحولاً في مهمة الجيش الإسلامي ، وخروجاً على مهامه الشرعية التي حددت له وفق الأطر المرجعية الإسلامية ، حيث أقحم الجيش في شئون السياسة

---

[1] . لطر الجزء الأول من هذا المجلد .

والحكم . واستعان به الفرقاء لحسم الخلافات السياسية التي تحولت إلي صراعات عنوية ، وتصادمت الجيوش الإسلامية في أصعب محنة وأقسى مأساة تمر بها الدولة . وعن الجيش الإسلامي من خلال هذه الفتنة لنا جملة من الآراء ، نعرضها فيما يلي :

• لقد كان من السهل في هذه الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية تكوين الجيوش ، فقد كان أنصار كل فريق يكونون نواة الجيش ، ثم يشرعون في عملية تعبئة واستنفار تنتهي بتكوين جيش يقاتل في صف الشخصية الرمز .

• لقد كان الجيش الذي تكون موالياً لشخصية إسلامية بذاتها يهدف إلي حسم الخلاف بين الفرقاء لصالح تلك الشخصية ، ظناً منه أن ذلك سوف يقود إلي استتباب الأمن والهدوء في أركان الدولة .

• لقد كان تكوين الجيش وتصادمها قد تم بفعل نوع من التعاطف مع شخصيات إسلامية بذاتها ، ولم يكن رغبة من تلك الجيوش في التصادم والصراع ، فقد كانت الفرق المتصارعة على يقين من أن صراعها يعد خروجاً على الجماعة وشقاً لعصا الطاعة ، ومن ثم فقد خططت الفرق المتناحرة مثلاً للتخلص من كل من علي ومعاوية في وقت واحد على اعتبار أنهما أساس الخلاف والصراع .

• لقد كان الجيش الإسلامي في ذلك الوقت أداة من أدوات الصراع ، ولم يكن سبباً من أسبابه ، والجيش لم يكن وراء تلك الصراعات ، بل كان صدىً لها .

وبالرغم من أن الجيش الإسلامي تدخل في السياسة ، إلا أنه لم يلبث أن انصرف إلي مهامه مرة أخرى ، فقد كان تدخل الجيش في السياسة إقحاماً من الساسة وأولياء الأمور ، ولم يكن ذلك دأب الجيش ، ولذلك لم يحدث أن تدخل الجيش الإسلامي من قبل في السياسة ، وتدخل الجيش في السياسة إبان الفتنة الكبرى لم يكن للسيطرة على الحكم

وممارسة السياسة ، ولكن كان — كما سبق القول — أداة لحسم الصراع فقط وتخليص المسلمين من الفتنة !! .

❖ الاستنفار :

الاستنفار أو التعبئة — كما سبق وأشرنا — هي عملية تجميع العنصر البشري ، وللاستنفار طرق عديدة ، وقد اختلف الاستنفار في عهد النبوة الزاهر عن الاستنفار في عهد الخلافة الراشدة ، ونظراً لأهمية الاستنفار خلال عهد الخلفاء ، فقد أفردنا له هذه الجزئية وهذه الحزمة من الأفكار :

– مفهوم الأمة المجاهدة في عهد الخلافة الراشدة :

لقد أصبح مفهوم الأمة المجاهدة أكثر وضوحاً ورسوخاً ودلالة في عهد الخلفاء الراشدين ، حيث توسعت الدولة وامتدت رقعتها وشملت من العناصر والأجناس العديد ، كما تنوع اقتصادها وبات في حاجة إلي جهد كل فرد في الدولة ، وتعددت الجيوش الإسلامية عدداً ومهاماً ، وأضحت في حاجة ماسة إلي المدد والعون الذي يأتي من جبهة داخلية قوية ، هنا ثبتت المأثورة التي صغناها من قبل وهي أن القتال فرض كفاية حتى في حالة الاعتداء على المسلمين ، وأن الجهاد فرض عين حتى في حالة السلم .

لقد اتضحت ابتداءً من خلافة عمر بن الخطاب أهمية وجود الجيش النظم المدّرب . فلم يعد باستطاعة أي مسلم أن يذهب من تلقاء نفسه إلي الجهاد ، دون أن يمر بمراحل إجرائية وتنظيمية للتثبت من مدى صلاحيته واستعداده البدني والنفسي والاجتماعي للجهاد ، ثم بعد ذلك يتلقى تدريباً على القتال يؤهله للقيام بمهامه ، ولم يكن التدريب علي القتال فقط بل كان هناك الاستعداد والتعبئة العقيدية ، حتى يتلقى المقاتل توجيهات وتوصيات خاصة بتوضيح الهدف من القتال ، حتى يتمنى له أن يقاتل عن عقيدة

ويجاهد عن برهان ، وهذا ما اتجهت إلي الأخذ به الجيوش الحديثة في الوقت الراهن ، وهو ما يعرف بالتوجيه المعنوي في الجيش .

إزاء ما تقدم كان على الدولة الإسلامية أن تتكفل بإعاشة المقاتل وكذا من يعولهم ، فالمجتمع الإسلامي هو مجتمع التكافل ، واستوجب ذلك أن يتم تسجيل أفراد الجيش ومعهم أسرهم حتى تصرف لهم العطاءات ، وكان ذلك ما حدا بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب لإنشاء ديوان الجند ، الذي يعتبره البعض المؤشر التاريخي والتنظيمي لتأسيس الجيش الإسلامي كمؤسسة تنظيمية لها كيانها المستقل داخل المجتمع الإسلامي .

إلا أن ما ينبغي التأكيد عليه أن مأثورة الأمة المجاهدة قد تثبتت في عصر الخلافة الراشدة ، وباتت إحدى البديهيات فيما يتعلق بمسألة تأسيس وإعداد الجيش الإسلامي ، حيث أيقن الجميع أن الأمة المجاهدة تتوزع على أفرادها الأدوار ، ويجاهد كلٌ بدوره الذي اختاره بما يتواءم مع وسعه ومقدراته . إلا أنه عندما يستشعر ولي الأمر بضرورة زيادة عدد المقاتلين فلا ضير في أن يكّلف الأفراد بالانتقال من أشكال الجهاد المختلفة إلي الجهاد كصراع عضوي ، أي كمقاتلين لأن الضرورة تفرض ذلك ، وهذا ما سوف نأتي عليه بعد قليل .

– البعد التنظيمي لعملية الاستنفار :

الاستنفار يختص بتجميع العنصر البشري الذي يمثل قوام الجيش ، ونظراً للعوامل والمستجدات – التي سبقت الإشارة إليها — اختلفت العمليات التنظيمية والإجرائية الخاصة بالاستنفار في عهد الخلافة الراشدة عن عهد النبوة الزاهر . وتمثلت أهم الاختلافات فيما يلي :

. كان الاستنفار أو الدعوة إلي الجهاد يتم في كافة الأمصار والأقاليم ، وكان أمير كل ولاية أو عامل كل إقليم يقوم على حركات وتنظيمات عملية الاستنفار التي تبدأ بالدعوة أو الأذان بالجهاد ، ثم بتجميع الأفراد وتسليحهم في ديوان الجند ، ثم بإنزالهم معسكرات خاصة استعداداً لنقلهم إلي المركز ، هذا إذا كان المركز في حاجة ماسة إلي مدد عاجل لتلبية متطلبات الحرب في موقع من المواقع .

أما في الظروف العادية فإن كل ولاية أو إقليم تتولى عملية الاستنفار وإعداد الجند وتدريبهم وتحضير جاهزيتهم ، حتى يكونوا على أهبة الاستعداد للانطلاق رهن إشارة المركز ، وهذا يسلم إلي القول بأن كل ولاية كان لها جيشها الخاص بها ، الذي كان يعتبر في ذات الوقت جزء من الجيش الإسلامي العام والشامل ، حيث كان يمكن للمركز في أية لحظة أن يطلب جيش أية ولاية للجهاد في موقع من مواقع الدولة الإسلامية .

وقد تتطلب بعض الظروف الخاصة من بعض ولايات الدولة الإسلامية أن يكون لها جيش خاص دائم الاستعداد ويُدعم بشكل مستمر من المركز ، فقد تكون إحدى الولايات بمثابة خط الدفاع الأول عن الدولة الإسلامية في مواجهة عدو قائم أو محتمل ، وقد تكون ولاية أخرى بمثابة ثغر من الثغور ، وقد تكون ولاية ثالثة ذات موقع ممتد على ساحل من السواحل البحرية المعرضة للهجوم أو الغارات المفاجئة .

• عناصر الجيش الإسلامي :

في البداية ومنذ تأسيس الدولة الإسلامية كان العنصر العربي هو العنصر الغالب على أفراد الجيش الإسلامي ، ومنذ بداية الخلافة الراشدة بدأت تدخل إلي الجيش عناصر غير عربية ولكن بشكل محدود ، إلا أنه بعد فتح بلاد فارس ومصر والشام والعراق تزايد عدد العناصر غير العربية في الجيش الإسلامي ، وربما أضافت تلك العناصر قوة إضافية يعتد

بها إلي قوة الجيش الإسلامي ، ولعلى أرى أن هذه القوة الإضافية قد مكنت الجيش الإسلامي من مواصلة فتوحاته في كافة الاتجاهات ، فقد كانت تلك القوة بمثابة الوقود الذي يلهب حماس الجيش، ويفتح شهيته للتقدم وحمل الدعوة ، وكلما تقدم وفتح الأقطار والأمصار تراكم الوقود واشتعل الحماس ، وهكذا مكّن الله لدينه عبر أقوام لم يعرفونه من قبل !! .

– البعد العقيدي للاستنفار :

قام البعد العقيدي بدور مهم في عملية الاستنفار وتحفيز المسلمين على الجهاد ، وقد جاء ذلك عبر مسلكين واضحين :

• المسلك الأول : أن قوة الإيمان ورسوخ عقيدة التوحيد في عقول وقلوب المسلمين وراء اندفاعهم للجهاد مترسمين خطى السابقين الأولين من أصحاب الرسول الكريم ، وهذا التأسي والاقتداء بالرسول الكريم وصحابته كان له تأثير بليغ في هذه الفترة بالذات انطلاقاً من الاقتراب الزمني من عهد النبوة الزاهر ، إضافةً إلي قيام الخلفاء الراشدين على رأس الدول، وكذلك وجود معظم صحابة رسول الله بين الناس .

• المسلك الثاني : كان الحماس والرغبة في حمل الدعوة والإسهام في نشرها هدفاً سامياً لأفراد الجيش الإسلامي وقف وراء مواصلة الفتوحات في عهد الخلفاء ، وقد زاد من قوة ذلك الحماس وعّظم من طموحات الجيش الإسلامي فتح بلاد فارس والعراق ومصر والشام ، وأيقن الجميع أن الإسلام سيسود العالم أجمع وشرعوا يعملون من أجل تحقيق هذه الغاية .

- البعد النفسي للاستنفار :

إضافةً إلي البعد العقيدي — الذي سبق إيضاحه — كان هناك البعد النفسي ، حيث سيطرت على المقاتلين المسلمين في الجيش الإسلامي حالة من الاطمئنان والسكينة بخصوص أنفسهم وأهليهم فهم سينالون إحدى الحسنيين ، أما أهلوهم فهم في كفالة الدولة الإسلامية حال حياتهم وبعد استشهادهم ، وتفصيل ذلك فيما يلي :

• لقد كانت المساواة بين المقاتلين العرب وبعضهم ، وبينهم وبين غيرهم من العناصر الأخرى خلال فترات خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ومعظم خلافة علي بن أبي طالب ، وراء الحالة النفسية الصحية والروح المعنوية العالية التي شعر بها الجنود المسلمون ومكنتهم من تحقيق أهدافهم على أكمل وجه ، فقد كان معيار الأفضلية والعطاء يتمثل في القرابة من الرسول ، والسبق في الإسلام ، وحسن الأثر في الدين ، ولما انقرض أهل السبق ، أُدخلت معايير أخرى تجمع بين الموضوعية والواقعية ومواءمة العصر والمساواة ، وتمثلت في الشجاعة وعدد أفراد الأسرة وغلاء المعيشة وتكاليفها ، وقد سادت هذه المعايير الأخيرة طيلة زمن الخلافة الراشدة ، وشكلت الأساس الذي ارتكزت عليه عملية العطاء ، وهي التعبير المادي عن الإحسان والإجادة في الجهاد .

• كذلك كانت كفالة الدولة لأسر المقاتلين حال حياتهم وبعد استشهادهم تزيد من شعورهم بالراحة والطمأنينة على أسرهم .

❖ بناء الأسطول الإسلامي :

نتناول هذه الجزئية الخاصة بالأسطول الإسلامي في صحبة الحديث عن الاستنفار نظراً لارتباط الأسطول بالاستنفار واعتباره جزءاً منه ، وسوف نتناول الأسطول الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة على النحو التالي :

- دواعي بناء الأسطول :

كان إقدام المسلمين على بناء الأسطول تلبية لرغبتهم في اقتناء كافة الأدوات والآليات التي تمكّن لهم ولدينهم ، وتماشياً مع الظروف والمستجدات التي حملها تطور المجتمع الإنساني ، وسداً لإحدى الثغرات التي استغلها أعداؤهم وأخذوا يتفوقون عليهم باستغلالها ، ويمكن رصد أهم دواعي بناء الأسطول الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة في الآتي :

• امتداد حدود الدولة الإسلامية واتساع مساحتها لتطل علي البحر المتوسط من جهة الغرب في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، ومن جهة الشرق لتطل على الخليج العربي ، وهذه السواحل الطويلة كانت في حاجة إلي قوة بحرية تحميها .

• كثرة الاعتداءات والتعديات على السواحل الإسلامية من الكيانات المجاورة للدولة الإسلامية ، وبخفة خاصة من الأساطيل البيزنطية التي ألفت الاعتداء على السواحل الإسلامية المجردة من القوة البحرية التي تحميها .

• رغبة المسلمين في مجاراة البيزنطيين والتحدي لهم بنفس سلاحهم وهو الأسطول البحري ، وقد كان المسلمون في احتياج فعلي لهذا السلاح ، ولو أن تملك البيزنطيين له زاد من توق المسلمين إليه .

- بداية الفكرة :

تدرجت فكرة بناء أسطول إسلامي من خلال محاولات لركوب البحر ، ثم من خلال طرح الفكرة على الخليفة عمر بن الخطاب ، ونوضح ذلك في الآتي :

• في ولاية عمر بن الخطاب قام العلاء بن الحضرمي عامله على البحرين بمحاولة لفتح سواحل فارس ، فتقدم بإثنى عشر ألفاً من المسلمين ومعهم سبعة عشر سفينة ، وكان

ذلك دون إذن الخليفة . وفقد المسلمون جميع سفنهم بالرغم من أنهم غنموا مغانم كثيرة ، وأغضب ذلك عمر بن الخطاب فعزل العلاء بن الحضرمي .

• كذلك قام عرفجة بن هرثمة الأزدى بغزو عمان بحراً ، فلامه عمر بن الخطاب ، والواضح أن عمر لم يكن يميل لركوب البحر ، وذلك كطبيعة كل العرب الذين نشأوا في البادية ويخشون البحر ويرون فيه خطراً يجب تجنبه .

• تشبهاً بالبيزنطيين ورغبة في منافستهم والتصدي لغاراتهم المستمرة على السواحل الغربية للدولة الإسلامية في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، طلب معاوية بن أبي سفيان والي الشام من الخليفة عمر بن الخطاب أن يسمح له بغزو الروم بطريق البحر ، وكان قرار الخليفة بعدم الإقرار على ذلك ، إلا بعد التعرف على البحر والتمرس على فنون الحرب البحرية ، وأمره بالتنسيق والتشاور مع عمرو بن العاص والي مصر الذي نصحه بعدم ركوب البحر نظراً لمخاطره ، فكان القرار النهائي للخليفة بعدم الإقدام على غزو الروم عن طريق البحر لقلة خبرة المسلمين في هذا المجال .

• بالرغم من أن ابن الخطاب لم يأذن لمعاوية بن أبي سفيان القائد الجري، بركوب البحر وغزو الروم بحراً ، إلا أنه سلك سياسة بحرية دفاعية لمواجهة خطر الروم على ثغور المسلمين ، وذلك بتحصين السواحل وإعداد قوات ترابط بشكل مستديم وحرس خاص وأربطة ومسالح لمراقبة الجهات التي يأتي منها الروم ، واستخدمت النيران للإنذار باقتراب الأعداء ، وكل ما تقدم كان بمثابة وسائل وترتيبات دفاعية برية لحماية السواحل وحدود الدولة ، وقد أمر الخليفة الراشد معاوية باتباع هذه السياسة في سواحل الشام وعمرو بن العاص في سواحل الإسكندرية .

- تنفيذ بناء الأسطول الإسلامي :

لم يتمكن معاوية بن أبي سفيان من إقناع عمر بن الخطاب بفكرة بناء الأسطول الإسلامي ، ولكن ذلك لم يجعله يتخلى عن الفكرة بل أخذ يهتبل الفرصة لإنفاذها ، وقد تحولت فكرة معاوية إلي واقع على النحو التالي :

• في خلافة عثمان بن عفان عرض عليه معاوية مشروعه المؤجل المتعلق بغزو الروم بحراً ، فوافقه عثمان على ذلك ، ولكنه وضع لموافقته عدة شروط منها : أن تكون مشاركة المقاتلة العرب في ركوب البحر تطوعاً واختياراً وألاّ يحمل أحداً ضد رغبته ، وأن يصحب معه امرأته " فاختة بنت قرظة " ، وأن يترك جيشاً يحرس السواحل الإسلامية .

فور موافقة الخليفة شرع معاوية في العمل ببناء الأسطول ، فأسس داراً لصناعة السفن في الإسكندرية ، واحضر الأخشاب من لبنان ، واستعان بخبرات أهل الشام ومصر وعرب الأزد والغساسنة فيما يتعلق بصناعة السفن والملاحة ، أما المحاربون فكانوا من العرب من أهل العطاء أي المسجلين في ديوان الجند المضروب لهم ولأسرهم عطاء .

• في عام ٢٨ هـ أبحرت أول بعثة بحرية للمسلمين في البحر المتوسط قاصدة جزيرة قبرص ، وتم الصلح بين المسلمين وأهل الجزيرة على الشروط التالية :

أن يدفع أهل قبرص جزية قدرها سبعة آلاف دينار سنوياً ، وأن يلتزموا الحياد فيما يتعلق بالصراع العربي البيزنطي ، وأن يبلّغوا المسلمين بنوايا الروم وتحركاتهم .

• وفي عام ٣٤ هـ حقق المسلمون النصر المشهور على جيش الروم بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح عامل عثمان على مصر في معركة ذات الصواري نسبة لموقعها ، وليس إلي كثرة صواري السفن فيها كما ردد البعض ، وكانت هزيمة ثقيلة للروم الذين كانوا قد أرادوا من هذه المعركة القضاء على البحرية الإسلامية الناشئة .

. أخذت الحملات البحرية تتوالى على البلاد البيزنطية طيلة خلافة عثمان بن عفان وجزء من خلافة علي بن أبي طالب ، إلا أنه عندما تولى معاوية الخلافة أصبح للأسطول الإسلامي شأن كبير وهذا ما سوف نتناوله في موضع لاحق .

❖ تمويل الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين :

تعويلاً على التطورات العديدة التي لحقت بكافة نواحي الحياة في الدولة الإسلامية حدث تطور ملحوظ على تمويل الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ، ويمكن إيضاح هذا التطور من خلال عناصره ومراحله التالية :

- موارد الدولة الإسلامية :

تطورت موارد الدولة الإسلامية خلال حكم الخلفاء عنه في عهد النبوة الزاهر ، بل أنها تطورت خلال فترة الخلافة الراشدة في بدايتها عن نهايتها ، وكان ذلك تطوراً طبيعياً حكمه التطور العام ، الذي سبق الحديث عنه تفصيلاً .

لقد تعددت موارد الدولة وتنوعت وزاد حجمها ، ولعله من التكرار غير المقبول الحديث مرة أخرى عن تلك الموارد ، ولكن الأجدر التنبيه إلي مسألة مهمة تسترعي انتباه المتابع والمحلل معاً ، وهي أن الدولة الإسلامية منذ عهد النبوة الزاهر وهي تعمد إلي صياغة نموذج خاص بها لإنماء مواردها بشكل مستمر ، وقد وضعت بالفعل الأسس والأصول في ذلك العهد الأنور ، إلا أن عصر الخلافة الراشدة قد جاهد من أجل ترسيخ تلك الأسس والأصول والسير على هداها .

وكانت نتيجة ما تقدم زيادة حجم موارد الدولة في فترتي خلافة عثمان وعلي ، وكان لذلك أثره البالغ في تحسين وضعية الجيش الإسلامي المالية ، واعتماده شبه المطلق على بيت المال في إعداده وتجهيزه والعطاء لأفراده والعاملين به .

- صدقات المقتدرين :

منذ عهد النبوة الزاهر وهذا المورد يلعب دوراً لا بأس به في تمويل الجيش الإسلامي ، وفي عهد الخلافة الراشدة لم ينضب هذا المعين ، بل ظل فياضاً بعطاء المقتدرين من أبناء الأمة الذين جهزوا بعثات وجيوشاً كاملة على نفقتهم الخاصة . وهذا ما فعله عثمان بن عفان عندما جهز جيش العسرة ، وسار على هذا النهج غيره من الذين ساهموا بصدقاتهم في تجهيز الجيوش الإسلامية أمثال عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وغيرهم .

- العطاء للجند ولأسرهم :

كان الجند في عهد النبوة الزاهر يحصلون على حصة من الغنائم للإنفاق على أسرهم ، وعندما أنشأ الخليفة عمر بن الخطاب ديوان الجند في سنة ٢٠ هـ - كما سبق الإيضاح — جعل للجند رواتب مخصصة قدّرت في عهد عمر بن الخطاب بما يتراوح بين ٢٠٠ إلي ٤٠٠ درهماً سنوياً .

وكان تقدير العطاء يتم بناءً على معايير منها القرابة من الرسول الكريم ، والسبق في الإسلام ، وحسن الأثر في الدين . وقد احتكم عمر إلي هذه المعايير فترة من الزمن ، ثم تحوّل عنها إلي معايير أخرى تواءمت مع التطور الزمني مثل الشجاعة والإقدام والبلاء في القتال ، وعدد أفراد أسرة الجندي ، والغلاء وارتفاع تكاليف المعيشة ، وكانت أسرة الجندي من زوجة وأطفال ووالدين ينالون عطاءً من الدولة .

واختلفت معايير العطاء بعد ذلك ، فقد حاول عثمان بن عفان أن يحتكم إلي معايير تفرّق بين العرب وغيرهم في العطاء ، بل بين العرب وبعضهم ، وقد أثار ذلك حفيظة الكثير من صحابة رسول الله ولكنه أرضى المستفيدين . إلا أن الخليفة الراشد الرابع علياً بن أبي طالب حاد عن هذه المعايير ، وعمد إلي المساواة في العطاء بالرغم من المعارضة القوية من بعض القبائل العربية ولكنه لم يأبه بذلك .

❖ تسليح الجيش الإسلامي :

في فترة الخلافة الراشدة تطورت أسلحة الجيش وطرق القتال وكان مرد ذلك إلي الاحتكاك المستمر للجيش الإسلامي بجيوش مختلفة . وقد اهتمت الدولة الإسلامية بتسليح الجيش اهتماماً خاصاً . وانعكس ذلك الاهتمام في مظهرين :

- تطوير أسلحة الجيش الإسلامي :

واظب الخلفاء الراشدون أنفسهم على متابعة تطوير أسلحة الجيش الإسلامي ، ووضح إصرارهم على تزويد الجيش بأحدث الأسلحة التي يتم التعرف عليها خلال المعارك واللقاءات ، وبالرغم من ذلك ظل الجيش الإسلامي معتدلاً وسطياً يوازن بين الاهتمام بالسلاح وبين الاهتمام بالوازع الديني والبعد العقيدي والروح المعنوية العالية . فلم يبالغ في استخدام غريب السلاح مثل الفيلة أو غيرها ، وفي ذات الوقت كان دائم التطوير في أساليب القتال وطرق المناورة في الميدان .

- تصنيع السلاح :

كذلك اهتم الخلفاء الراشدون وعلى نهجهم سار ولاتهم بتصنيع الأسلحة الخاصة بالجيش الإسلامي ، وانتشرت مصانع السلاح في مصر والشام تحت ولاية عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان ، وزادت وتيرة الاهتمام بعملية تصنيع السلاح في فترة خلافة عثمان بن عفان في هاتين الولايتين ، حيث برز ولع معاوية بن أبي سفيان ذلك القائد الجريء بعمليات تصنيع السلاح وبناء الأسطول الإسلامي ، وتعددت مصانع السلاح وكذا دور بناء سفن الأسطول في كل من مصر والشام .

وقد رصدت الدولة أموالاً من بيت مال المسلمين لعملية تصنيع السلاح وبناء قطع الأسطول الإسلامي ، وقد وضحت فائدة هذه السياسة الثاقبة فيما بعد في العصر الأموي ، حينما

برزت قوة الأسطول الإسلامي لتسيطر على البحار المعروفة في ذلك الوقت وهي البحر المتوسط والخليج العربي والمحيط الهندي ، ولتترجم هذه السيطرة إلي فعاليات اقتصادية واستراتيجية لها أهميتها في ذلك الوقت ، كما برزت كذلك قوة الجيش الإسلامي كجيش كبير وحديث يحمي حمى دولة كبيرة المساحة ممتدة الأطراف ، ويسعى باستمرار إلي حمل الدعوة وتوصيلها إلي أبعد مدى ممكن ، وترتيباً على ذلك شهدت الدولة الإسلامية في فترة حكم بنى أمية أوج قوتها وتقدمها واتساع رقعتها ، وهذا ما سوف نتناوله في حينه .

❖ تدريب الجيش :

الجيش الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة كان دائم الحركة ودائم التفاعل مع الأحداث والتطورات من خلال الفتوحات المتعددة في كافة الأنحاء والاتجاهات ، وهذه الحركة والتفاعل الدائمان كانا بمثابة تدريبات للجيش وتحضير مستمر للجاهزية ، إلا أن الجيش الإسلامي خلال هذه الفترة الحيوية من تاريخ الدولة الإسلامية ، والتي شهدت أهم الفتوحات والانتشار العظيم للدعوة الإسلامية ، كان يمارس التدريبات العسكرية بأشكال شتى ، ونوضح ذلك في الآتي :

– التدريب على السلاح وفنون القتال في المعسكرات وخلال تحركات الجيش :

دأب الجيش الإسلامي على التدرب على السلاح وفنون القتال في المعسكرات التي كان يقيمها في أماكن مختلفة قريبة من مواقع الالتقاء بالجيش المعادي ، والتي أصبحت فيما بعد مدناً زاهرة مثل البصرة والفسطاط وغيرها ، وقد اختلفت طبيعة تلك التدريبات من واقعة إلي أخرى ومن قائد إلي آخر .

كذلك كان الجيش الإسلامي يباشر بعض التدريبات على المناورة والحركة ، وذلك خلال تحركاته من معسكره أو موقعه إلي مواضع الالتقاء بالجيش المقابل ، وكانت قيادات

الجيش تشرف على هذه التدريبات ، وكانت أشبه بالمناورات التي تجريها الجيوش في العصر الحديث .

- تدريبات القوات المرابطة في الثغور والحصون وعلى الحدود :

أما بالنسبة إلي القوات المرابطة في الثغور والحصون وعلى الحدود ، فكانت تقوم بتدريبات دائمة تحت إشراف القادة المباشرين لتكون في حالة جاهزية دائمة للرد على أي اعتداء والدفاع عن البلاد .

- وضع الخطة العامة [الاستراتيجية] :

كانت الخطة العامة للجيش الإسلامي أو ما يعرف بالاستراتيجية ، تتم صياغتها بين الخليفة بوصفه القائد العام الأعلى للجيش وبين قيادات الجيش ، وكذا بمشاركة كبار الصحابة الذين كانوا يشكلون مجلس الشورى بالنسبة للخليفة ، وكانت الخطة العامة أو الاستراتيجية تتضمن الوجهة الأساسية للجيش وهدفه الرئيسي ووقت التحرك وتوقيتات بدء الهجوم ، كما كانت تتضمن كذلك وصايا وتوجيهات الخليفة بشأن مباشرة العملية الحربية وعمليات القتال وآداب وأخلاقيات الميدان ومعاملة الأسرى والشعوب التي يتم فتح بلادها ، وكيفية تبليغ الدعوة عن طريق الدعاة وغير ذلك .

- إدارة العمليات [التكتيك] :

وفيما يتعلق بإدارة العمليات [التكتيك] ، فقد كانت قيادات الجيش وعن طريق تشكيلاته المختلفة تتولى إدارة العمليات الحربية ، التي كانت تتباين وتتعدد وفق طبيعة كل معركة وحسب ظروف القتال ، وقد أبلى الجيش الإسلامي بلاءً لا نظير له في كافة المعارك التي خاضها ، وسجل في تحركاته وعملياته [تكتيكيه] ما يعتبر سبقاً في مجالي الاستراتيجية والتكتيك .

وكان الجيش الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة يتألف من الرحالة والفرسان والرماة وفيلق الخدمة [الغلمان] والطليعة [الكشافة] ، وكشافة المؤخـرة [الردء] ، وقد كـان علـى كـل عشرة جنود عريف ، ولكل مائة من الجند قائد ، ولكل عشرة من القادة أمير ، وكان الجيش الإسلامي يتكون من أكثر من جيش . وكانت طريقة القتـال الـتي اتبعـت في تلـك الفترة هي طريقة الصفوف وليس الكر والفر كما كان من قبل .

– قيادة الجيش :

كان الخليفة بحكم ولايته العامة هو القائد الأعلى للجيش ، ولكن معظم الخلفاء الراشـدين لم يتولوا فعليـاً قيـادة الجـيش الإسـلامي إلا نـادراً ، فكـانوا ينيبـون عـنهم أهـل الكفـاءة والشجاعة في قيادة الجيش ، أما في الولايات والأقاليم الإسـلامية فقد كانت قيـادة الجـيش للولاة أو من ينيبونهم .

وبالرغم من ذلك فقد كان الخليفة على علم تام بأخبار الجيش بواسطة البريد مهما بعـدت سـاحة القتال ، وكان يرسل بتوجيهاته وتوصياته إلي قواد الجيش .

– دعم ومساندة الجيش :

مرة أخرى يبرز مفهوم الأمة المجاهدة لكي يستوعب عملية دعم ومسـاندة الجيش الإسـلامي ، فهو الذي يوضح هذه العمليات من خلال ما يتكتل خلفها من طرح إسـلامي حـصيف ، فالأمة الإسـلامية بكاملها أمة مجاهدة ، فهي تشكل أداة دعم ومسـاندة للجيش ، فالجبهة الداخلية تزود الجيش بكافة احتياجاته المادية والمعنوية وحتـى البـشرية . ثـم هـي الـتي تـسند الجـيش وتدعمـه في أرض المعركـة ، ففـي فـترة الخلافـة الراشـدة كـان المقـاتلون يصطحبون معهم أسرهم للعون والمساعدة والدفع والحث على القتال ، فكلٌ كان لـه دور في الجهاد ولكن حسب طاقته ووفق مقدرته .

المبحث الثالث

الجيش الإسلامي في العصر الأموي

انتهت فترة الخلافة الراشدة التي مثلت امتداداً لعهد النبوة الزاهر بفتنة كبرى قسمت الدولة الإسلامية وهي في أوج قوتها إلي فرقتين كبيرتين هما السنة والشيعة ، وبينهما فرق صغيرة، ولأول مرة عرفت هذه الدولة الانقسام ، وقد أنعكس ذلك الوضع السياسي والاجتماعي المتردي على الجيش ، حيث تعددت بالتالي الجيوش ، وتوزعت بين الفرقاء ، ليس هذا فقط بل تقاتلت قتالاً مراً ولم يكن أحد يعرف مَن مِن المقتتلين على حق ، وانتهي الأمر بانتصار فريق معاوية بن أبي سفيان ، ولعل في ذلك خيراً فقد حقن دماء المسلمين وأوقف نزيفها ، ولو أن ما نزف منها كان طاهراً وغالياً ، فقد استشهد الإمام كرّم الله وجهه وولداه ، وأُهين أهل البيت ، ولم تحترم حرمتهم التي أوصى بها الرسول الكريم مراراً ، وجماع القول أنه على أنقاض الفتنة الكبرى قامت دولة بنى أمية التي أسسها معاوية بن أبي سفيان ذلك السياسي المحنك والقائد الجريء .

من هذه المقدمة ننفذ إلي ضالتنا المتمثلة في تطور وضعية الجيش الإسلامي في العصر الأموي . حيث كان لذلك الجيش شأن عظيم ، فقد صال وجال وفتح البلدان والأمصار ووسّع حدود الدولة إلي أقصى ما بلغته طيلة تاريخها ، فما هي تفاصيل ودقائق تطور ذلك الجيش العظيم، وكيف وصل إلي هذه الحالة العظيمة ، وماذا حقق للدولة الإسلامية ، ثم كيف أنتهي به المآل .

أولاً : نظرة في خصوصيات الدولة الأموية :

الدولة الأموية هي أول نقطة أو موضع تنتقل إليه الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي بعد عصري النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، وهذا التطور قد حمّل هذه الدولة بأعباء ثقال

وتبعات جسام فقد انتهي عصر الوحي ، كما انتهي عصر الالتزام النقي التقي بالأصل والأساس ، وبدأ عصر جديد ، عصر دولة قامت على القبلية واستغلال انقسام صف المسلمين ، جاهدت من أجل الالتزام بالأسس والأصول ، ولكنها أعطت الفرصة للمستجدات والمتغيرات كي تفعل أفعالها ، بدأت قوية فانعكست قوتها على الإسلام ، ووصل في زمانها إلي آخر النقاط التي وصل إليها في تاريخه ، ثم انتهت ضعيفة متهالكة قوضتها الأيدي الخفية التي سُمح لها بالتدخل في شئونها ، وأذهب ريحها آثار الفتنة الكبرى والفرق والتحزبات ، لقد حملت هذه الدولة من الخصائص ما هو جدير بالذكر والتبيان ، لأنه انعكس بشكل مباشر على الجيش الإسلامي في العهد الأموي ، فإلي أي مدى بلغت شدة أواصر تلك العلاقة ، فلننظر فيما هو آت :

❖ ضوابط الالتزام بأسس وأصول عهدي النبوة الزاهر والخلافة الراشدة :

قلنا أن الدولة الأموية هي أول نقطة تنتقل إليها الدولة الإسلامية بعد أن غادرت زمن النبوة والوحي ثم زمن الخلافة الراشدة ، وكان ذلك بمثابة عبء ثقيل تمليه ضرورة بل حتمية الالتزام بأصول وأسس ذينك الزمانين ، وقد جاهدت تلك الدولة من أجل الالتزام بتلك الأسس والأصول ، وبرزت تلك المجاهدة عبر التمسك بمبادئ محددة يمكن إيضاحها في الآتي :

- محاولات التمسك بالأسس والأصول :

في العام الواحد والأربعين من هجرة الرسول الكريم وهو عام الجماعة اجتمعت كلمة المسلمين على خليفة واحد هو معاوية بن أبي سفيان ، الذي آثر الحسن بن علي أن يتنازل له عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين وجباً للفتنة ، وبايع المسلمون معاوية خليفة لهم ، ولا شك في أن معاوية بن أبي سفيان وخلفاء بني أمية من بعده ، قد خرجوا على

أحد أهم مبادئ وأصول السياسة والحكم في الإسلام ، وهو مبدأ انتخاب الخليفة بناءً على اعتبارات السبق والخدمة في الإسلام ، وانتخاب الخليفة يعني أن الجماعة هي مصدر المسئولية والصلاحيات ، كما أدخل معاوية كذلك بدعة الوراثة في انتقال الحكم بين أفراد الأسرة الأموية .

إن التحليل الدقيق والعميق للتاريخ الإسلامي ليوصّل إلي حقيقة مفادها أن ثمة صراعاً سافراً وقوياً نشب بين مبادئ الإسلام وأصوله في السياسة والحكم ، وبين التقاليد العربية القائمة على العصبية القبلية ، والتي تجعل من القوة والنفوذ أدوات للوصول إلي الحكم ، وينبغي أن يسجل ذلك على أنه تعارض واضح سنعود إلي تفصيله في موضع متقدم ، بين الحضارة والثقافة الإسلامية وبين الثقافة العربية حول أسس وأصول السياسة والحكم ، ولم يكن بداية عهد الدولة الأموية هو بداية ذلك الصراع فقط ، ولكن كان بداية لترسيخ تلك التقاليد العربية وتفوقها على المبادئ الإسلامية ، حيث نحى العباسيون نفس المنحى وبأساليب ووسائل شتى .

بالرغم مما تقدم لم يستسلم الأمويون بشكل مطلق للتقاليد العربية التي أرتكنوا إليها في حكمهم ، بل حاولوا التمسك بالأسس والأصول الإسلامية في كافة أمور الحياة ، ومنهم من جاهد بصدق في سبيل ذلك .

– اهتمام الأمويين بنشر الإسلام والدعوة إليه :

لم يتوان الأمويون في نشر الإسلام والدعوة إليه بكافة السبل والوسائل ، وواصلوا ما شرع فيه الرسول الكريم ومن بعده خلفاؤه الراشدون ، من العمل الدائب والمستمر على توصيل الدعوة وتبليغها إلي كافة بقاع الأرض ، وفي عهدهم اتسعت رقعة الدولة الإسلامية لتشمل أجزاءً كبيرةً من أوربا ولتصل إلي أقصى ما وصلت إليه في تاريخها .

وإذا كان الأمويون لم يتبعوا الطرق والوسائل التي صاغها الرسول الكريم ومن بعده خلفاؤه الراشدون للوصول إلي الحكم وسياسة شئون المسلمين ، وغلّبوا التقاليد العربية ذات النعرات العصبية القبلية . فعذرهم أن تلك الآليات والوسائل كانت محل خلاف منذ نهاية خلافة عثمان بن عفان ، يضاف إلي ذلك أن أحداً لا يمكن أن ينكر أن معاوية بن أبي سفيان كان له أنصاره غير القليلين ، وأن سيطرته على الحكم حالت دون استمرار الفتنة وحقنت دماء المسلمين ، وأخيراً فقد قدّم الأمويون للإسلام أعلاماً مثل عمر بن عبد العزيز ، كما قدّموا له انتشاراً لم يسبق له مثيل ، وما يمكن الانتهاء إليه هو أن العبرة ليست بكيفية الوصول إلي الحكم أو بشكله ونظامه أو بآلية انتقاله داخل الأسرة الأموية ، ولكن العبرة بتطبيق شرع الله والعمل بكتابه والدعوة إلي دينه .

❖ الجنوح نحو الشدة في معاملة الخصوم الحاليين والمحتملين :

منذ بدايتها قامت الدولة الأموية على الشدة والغلظة في التعامل مع الخصوم القائمين والمحتملين، فقد عرف عن معاوية بن أبي سفيان نفسه مؤسس هذه الدولة الجرأة والقوة إلي جانب المكر والدهاء . وقد امتدت هذه الخصية إلي عمال الدولة وولاتها في كافة الأمصار والأقاليم . ولعل اشهر هؤلاء الحجاج الثقفي . ولكن وقفت وراء هذه الخصية عدة عوامل تمثلت في الآتي :

- الظروف التي نشأت فيها الدولة :

يمكن القول أن الدولة الأموية هي إفراز طبيعي للفتنة التي عمت الدولة الإسلامية بمقتل عثمان بن عفان . كما أنها في ذات الوقت مخرج فُرض على جميع الفرقاء لعبور مأزق الصراع العضوي المدمر بين أبناء الأمة . ومن ثم فإن الدولة الأموية لم تنشأ كنتاج طبيعي وحصيلة منطقية مقبولة ومرغوب فيها من أبناء الأمة . لتطبيق الأصول والأسس التي شرّعها الرسول الكريم فيما يتعلق بأمور السياسة والحكم في الدولة الإسلامية .

وكان من شأن هذه النشأة أن تخلق نوعاً من السخط والشعور بالغضب وعدم الرضا لدى قطاع واسع من أبناء الأمة الإسلامية ، وبصفة خاصة بين أبناء الصحابة ومن لا يزال على قيد الحياة من صحابة الرسول الكريم ، وشكّل هذا القطاع ، الناقم على هذه الدولة ، الراغب في تطبيق الأصول والأسس الإسلامية . جبهة معارضة راغبة عن الحكم ، ولكنها راغبة في تطبيق الشرع والأصول والأسس .

كذلك كانت هناك المعارضة الأساسية لمعاوية بن أبي سفيان ودولته التي أقامها وهم أنصار علي بن أبي طالب وولديه من بعده ، وهؤلاء اشد نقمة وسخطاً على دولة بنى أمية لقناعتهم بأنها سلبت حقهم الطبيعي والشرعي في الحكم وسياسة شئون المسلمين ، وصدرت الفتاوى التي تبحث في الأسانيد الشرعية لدعاوى هذه الفئة مما زادها قوة ورسوخاً .

من جماع هاتين الفئتين إضافةً إلي فئات أخرى عارضت الدولة الأموية بل وعارضت مناوئيها كذلك . تشكلت جبهة وقفت من الدولة الأموية موقفاً رافضاً متربصاً . مما جعل الأمويين طيلة عهدهم محل انتقاض وانتقاص في نفس الوقت . فلم يكن أمامهم بد والحال كذلك إلا أن يجنحوا ناحية الشدة والغلظة في مواجهة هذه المعارضة القائمة ، وما يمكن أن يستجد من معارضين محتملين .

– طبيعة الدولة التي قامت على أسس عصبية قبلية :

قلنا فيما سلف أن الدولة الأموية قامت أصلاً على تغليب التقاليد العربية التي تزكي العصبية وتوطد القبلية ، وقد كان لطبيعة نشأة الدولة دور مهم في ذلك ، حيث استشعر معاوية إن ارتكانه إلي أبناء عَصَبَتِه فيه التمكين له ولأبنائه من بعده ، وهكذا كان شعور حكام بنى أمية الذين انتقل إليهم ذلك الاعتقاد من مؤسس الدولة .

إضافةً إلي ما تقدم كان ذلك الاعتقاد ينبع من شعور نفسي بالخوف من الآخر ، نتيجة المعارضة القائمة والمتربصة ، وكذا الجو العام الذي نشأت فيه الدولة ، وقد يلتقي ذلك التحليل مع ما يمكن اعتباره شعوراً بالتميز والتفوق لعصبية بنى أمية وسمو التكوين القبلي الذي انحدروا منه ، فالتميز يشعر بالتفوق والسمو ويشعر في ذات الوقت بالاضطهاد من الآخرين، انطلاقاً من رفعة وعراقة أصله .

قاد ما تقدم إلي أن يّرقى معاوية بن أبي سفيان من عَصَبَته فوق الجميع ، ويحابي شيوخ القبائل الشامية ، ويعمل على إرضائهم وكسب ودهم ، حيث يرى فيهم عدته وعتاده ، وهكذا فعل خلفاؤه من بعده ، فكان معاوية وكذا حكام بنى أمية يتعاملون مع قبائلهم كشيوخ قبائل وليس كخلفاء وحكام ، وكان لذلك أثره على شكل وطبيعة الدولة ، وطبيعة مفردات الحكم والسياسة فيها من نظام سياسي وديناميات ذلك النظام وعلاقاته .. الخ .

هذا التمايز الذي تعامل به الحكام الأمويون مع قبائلهم وعصبتهم ، قابله شدة وغلظة في معاملة الآخرين ، مما أشعل نار الحقد وأشاع جواً من التفرقة وعدم الثقة وزاد من ضيق المعارضين على الدولة الأموية وتصرفات حكامها .

- الأهداف التي سعت الدولة الأموية لتحقيقها :

تاريخ الدولة الأموية ينتهي بالمحلل إلي هدفين سعت الدولة إلي تحقيقهما في آن واحد ، وقد اضطرها ذلك السعي إلي استخدام الشدة في معظم الأحوال وصولاً إلي هذين الهدفين ، وجعلت منهما غاية يبرر نيلها استخدام أية وسيلة :

. أما الهدف الأول فقد تمثل في تقوية الدولة الإسلامية وضمان وحدتها ، ولتحقيق هذا الهدف كان من المفروض قطع أية محاولات لإثارة القلاقل والفتن ، والتشدد في التعامل

مع حركات الخروج على الوحدة وإضعاف كيان الدولة والحوادث والوقائع في ذلك شهيرة .

. أما الهدف الثاني فقد تجسد في الرغبة الجامحة لدى حكام بني أمية في نشر الدعوة الإسلامية وتوسيع رقعة الدولة ، وكانوا يعتبرون أن هذا هو الهدف الأساسي لوجودهم ، وجعلوا من الهدف الأول وسيلة له ولا يمكن أن يتحقق بدونه . وواقع الحال أن سعيهم لتحقيق الهدف الثاني كُلّل بنجاح منقطع النظير ، وأن الهدفين إمتزجا معاً وقادا إلي دولة قوية نشرت الدعوة الإسلامية في أراضٍ جديدة في أوربا وآسيا وأفريقيا !! .

❖ **الالتزام بنشر الإسلام والدعوة إليه :**

لقد وضح التزام بني أمية بمبدأ ثابت هو نشر الإسلام والدعوة إليه فيما قدّر لهم الوصول إليه من أقطار الأرض ، وهنا يثار سؤال لا يجد المحلل مفراً من التصدي له ، وهو هل هذا المبدأ كان بمثابة هدف في حد ذاته من أجل الإسلام ؟ أم أنه كان هدفاً لجأ إليه الأمويون لإضفاء طابع السمو بالعمل لمصلحة الإسلام على دولتهم ، وتكتيل قوة المسلمين من كافة الاتجاهات والفرق وراءهم من أجل ذلك الهدف الذي لا ينبغي أن يكون مثار خلاف ، ومن ثم دحض دعاوى المعارضين لهم ؟ .

ينبغي علينا كمسلمين التعامل مع وقائع وأحداث ودقائق التاريخ الإسلامي بموضوعية وتجرد ، حتى نتمكن من الاستفادة من ذلك التاريخ ، فيما نرغب ونجتهد من أجل الوصول إليه من إيجاد نوع من التواصل الحضاري يعيد للحضارة الإسلامية ازدهارها وإيناعها ، لأجل ذلك ينبغي الالتجاء إلي أدوات وآليات التحليل التاريخي المعتمد على منهج الطرح الإسلامي الذي يتعامل مع الوقائع والأحداث بتجرد كامل عن الهوى والرغبة ، وبإعمال تلك الآليات التي تعتمد على أصول وأسس ومعايير ليس في مقدور أحد أن يحيد عنها أو يهمشها .

وعليه ينبغي التفرقة بين طبيعة الدولة الأموية – التي سبق وأوضحنا بعض خصائصها — والتي أهمها سيادة الطابع العصبي القبلي ، وبين أسلوب الشدة والغلظة التي استخدمته تلك الدولة وكان طابعاً مميزاً لتعاملاتها مع الخصوم والمعارضين ، وبين طريقة وصول معاوية بن أبي سفيان مؤسس هذه الدولة إلي الحكم ، وبين ما ابتدعه من بدعة الوراثة في الحكم ، بين كل ذلك وبين التزام الدولة الأموية بنشر الإسلام والدعوة إليه ، وهنا لابد من إبراز مثالب ونواقص تلك الدولة وخروجها عن الأسس والأصول الإسلامية التي ارتضاها الشرع وطبقها الرسول الكريم وخلفاؤه من بعده ، ولابد في ذات الوقت من إنصاف ما يستحق الأنصاف من سلوكات وتصرفات تلك الدولة وما حققته للإسلام ودعوته ، فالأخطاء تُرصد وتُعدد والمناقب تُذكر وتحمد ، وذلك فيما يلي :

– يشهد التاريخ على أن الدولة الأموية بدأت منذ نشأتها قوية ، فقد أحكم معاوية بن أبي سفيان ومن بعده فعل خلفاؤه ، قبضته على الدولة بكافة أقاليمها وأمصارها ، وكانت هذه الوضعية كافية لتأمين حكم بنى أمية ، ولم يكونوا إذن في احتياج إلي التشبث بمبدأ نشر الدعوة لتقوية نفوذهم وسيطرتهم على الدولة من الداخل ، إذ أن ذلك كان حاصلاً فعلاً .

لقد كان اهتمام الدولة الأموية بنشر الإسلام اهتمام جندت له كل طاقاتها وبزخم قوى ، ولا يمكن أن يكون ذلك حق أُريد به باطل ، فلقد كانوا في غنى عن ذلك الجهد والعناء والاكتفاء بما وصلوا إليه من حكم وسيطرة إن شاءوا ، ولكنهم لم يألوا في سبيل نشر الدعوة أي جهد ولم يدخروا أية قدرة .

إن التضحيات التي قدمتها الدولة الأموية وما بذله حكامها منذ مؤسسها معاوية بن أبي سفيان، لم تكن بالتضحيات التي هدفها تحقيق المجد الشخصي أو الشرف الذاتي ، بل كان من الواضح أن الإسلام هو هدفها ورفعته ونشره هي غايتها .

ظلت الدولة الأموية طيلة عهدها تعمل على نشر الإسلام في ربوع الأرض ، فحتى قبل سقوطها بشهور كان الفتح الإسلامي الأموي قد قوسين أو أدنى من موسكو الحالية ، حيث أدى سقوط الدولة إلي انسحاب القائد الفاتح مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، الذي كان يحاصر هذه المدينة .

❖ ظهور النزعات العصبية القبلية وسيطرتها على سياسة الدولة :

الحق أن النظام القبلي متأصل في المجتمعات العربية وبصفة خاصة في شبة جزيرة العرب ، وحاول الرسول الكريم منذ تأسيس الدولة الإسلامية في مدينة رسول الله أن يكبح جماح هذا النظام ؛ وما يترتب عليه من نزعات ونعرات عصبية تنحو نحو التميز والتفرد وتقود في النهاية إلي التشرذم ، وتبذر بذور الفرقة وعدم المساواة في المجتمع ، وبالرغم من ذلك فلهذا النظام دور مهم في إيجاد حالة من التكاتف والتكتل إذا أُحسن استثمار الجانب الإيجابي فيه ، وكان هذا النظام يفرز آثاره من وقت لآخر حتى في وجود الرسول الكريم ، ولكنه كان يعرف كيف يستوعب آثاره السيئة ويوظف نتائجه الإيجابية ، وفي فترة الخلافة الراشدة كان هذا النظام يطل من وقت لآخر بوجهه البغيض فيثير الفتن والقلاقل ، وكان إخمادها مرهوناً بمقدرة كل خليفة من الخلفاء الراشدين على ترسم خطى الرسول الكريم الذي أجاد التعامل مع هذا النظام بدرجة ممتاز . ويمكن تتبع النزعة القبلية العصبية في دولة بنى أمية على النحو التالي :

- دور النزعة القبلية العصبية في إثارة الفتنة :

التعمق في وقائع وأحداث الفتنة الكبرى ينتهي إلي التوصل إلي أن تلك الفتنة كانت إفرازاً لمزيج من المؤثرات والمحفزات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى الفكرية ، ويبرز من خلال هذا المزيج النزعة العصبية القبلية بدورها المميز وتأثيرها الفعال في إثارة

وتأجيج نيران تلك الفتنة ، فقد كان تحزب كل فريق لعصبيته وقبليته وراء البحث عن الأدوات والآليات المحدودة القاصرة في نقل صلاحيات السياسة والحكم ، وممارسة تلك الصلاحيات ، والتغاضي بل إهمال الأدوات التي صاغها الرسول الكريم ، ومن ثم فقد أعمت هذه النزعة الذين تلبّسوا بها عن رؤية الصواب واتباعه .

– دور النزعة القبلية العصبية في نشأة الدولة الأموية :

أفلح معاوية بن أبي سفيان بشكل جيد في استنفار النزعة القبلية العصبية في نفوس أنصاره ومعاونيه ، وتمكن الرجل من استثارة هذه النزعة بوسائل امتاز دوماً بإتقانها ، وكان لذلك أثره الفعال في تكتيل بني أمية والموالين له خلف معاوية في صراعه مع الخليفة الراشد علي بن أبي طالب وأبنائه من بعده ، ولهذه النزعة ، ولولا استغلال بن أبي سفيان لآثارها لما تمكن من إقامة دولته التي فرضت فرضاً بالرغم من معارضة ذوي النفوذ السياسي والديني والاجتماعي ، فقد كانت عصبية بني أمية وأنصارهم من القوة والصلابة والإصرار بما جعلها تمثل أداة ضغط وجبر على هؤلاء المعارضين لقبول الأمر الواقع جبراً للفتنة وحقناً لدماء المسلمين . ويكمل ما تقدم أن أنصار معاوية كانوا من الكثرة بما جعل من الصعب الاستهانة بهم والتقليل من شأنهم وبما يمكن أن ينشرونه من الفوضى والفتن ، فقد رأى الجميع اتقاء ذلك وسلّموا بقيام دولة واحدة تمثل عموم المسلمين وهي دولة بني أمية .

– دور النزعة القبلية العصبية في حفظ كيان الدولة :

واصلت النزعة القبلية العصبية الحفاظ على وجودها كأساس من الأسس التي ارتكنت عليها الدولة الأموية ، بل زادت حدتها وأمعن الأمويون في إذكاء حميتها في نفوس بني أمية والموالين لهم ، ومن ثم فقد لعبت القبائل الشامية القوية التي كانت تسكن دمشق

الدور البارز والحاسم في تعضيد الخلفاء الأمويين ، وكان الأخيرون يتصرفون كخلفاء وشيوخ للقبائل في ذات الوقت ، فقوتهم وسيطرتهم كانت تستند إلي قوة القبائل ، ولذا حافظوا على مراعاة شعور القبائل وكانوا يتصرفون كأنهم منهم ، وعليه فقد اهتم الأمويون بمراعاة التقاليد العربية أكثر من اهتمامهم بالمبادئ الإسلامية .

وإذا كانت النزعة القبلية العصبية قد لعبت دوراً يعتد به في الحفاظ على كيان الدولة الأموية ، فقد لعبت كذلك دوراً يعوّل عليه في تأسيس وتقوية الجيش الأموي ، فقد كان للقبائل الشامية والقبائل الموالية للأمويين السيادة المطلقة على الجيش الأموي ، كما كان للعنصر العربي السيطرة على الجيش دون سواه من العناصر ، وإن كان الأمر قد اختلف بعد ذلك بصفة خاصة في منطقة المغرب العربي والأندلس ، حيث دخل إلي الجيش عناصر أخرى غير العرب مثل البربر والزنج وغيرهم ، وهذا ما سوف نأتي عليه تفصيلاً في موضع متقدم من هذا المبحث .

– أدت النزعة القبلية العصبية إلي إثارة الفتن والقلاقل :

قوبلت النزعة القبلية العصبية التي اتكأ عليها بنو أمية في نشأة دولتهم ، وكذا في تعضيد هذه الدولة بموجة من عدم الارتياح والسخط عمت العرب والعناصر الأخرى التي انضوت تحت لواء الدولة الإسلامية مثل الفرس والأتراك ، فالعرب أنفسهم لم يقبلوا تفضيل بني أمية للقبائل الشامية على بقية العرب ، والعناصر الأخرى لم تقبل بتفضيل بني أمية للعنصر العربي وترقيته على بقية العناصر ، وكانت هذه الاعتراضات والتحديات كامنة وتبدو على السطح من آن لآخر عندما تتهيأ الظروف ، ومن ثم فقد كانت الدولة الإسلامية في العصر الأموي حبلى بالثورة على السلوكات الأموية .

- كانت النزعة القبلية العصبية من أهم عوامل القضاء على الدولة الأموية :

من أعجب المفارقات التي حملها تاريخ الدولة الإسلامية هو أن النزعة القبلية العصبية التي لعبت دوراً — كما قدمنا — يعتد به في قيام الدولة الأموية ، وعضدت وجود تلك الدولة، وحفظت كيانها إلي ما شاء الله ، كانت هي ذاتها التي لعبت نفس الدور في تقويض تلك الدولة والقضاء عليها . فالنزعة العصبية القبلية التي ذكاها الأمويون وأوقدوا جذوتها انتشرت في ربوع الدولة وبرزت التحزبات والشرذمات في الأمصار والأقاليم ، وبنفس المنطق فكر المعارضون الأساسيون للأمويين وهم بنو العباس ، الذين كانوا على يقين وقناعة بأن الأمويين سلبوا منهم حقهم الطبيعي والشرعي في الحكم ، فقد سرت بينهم نزعة العصبية والقبلية هم أيضاً ، وظلوا طيلة العهد الأموي وهم يفكرون في كيفية استرداد حقهم المسلوب ، ونمت قوتهم في الوقت الذي كانت تضمحل وتتضعضع قوة الدولة الأموية إلي أن حانت ساعة الثأر وتناطحت العصبيات العربية ، وبرزت التقاليد العربية المرتكنة على قوة النفوذ وسيطرة العصبية ، وخلت الساحة من القيم والمبادئ والأصول الإسلامية . ورحلت دولة بنى أمية وشيعتها النزعة العصبية القبلية كما وُلدت على يديها .

❖ ابتداع توريث الخلافة :

ننتقل إلي خصية أخرى من خصيّات الدولة الأموية وهي المتعلقة ببدعة توريث الخلافة ، حيث عمد معاوية بن أبي سفيان إلي ابتداع عملية توريث الخلافة لحفظ الملك بذريته ، ثم لإيمانه بقوة العصبية الأموية ورغبتهم في حفظ الملك فيهم . وكذا تحسباً للمشاكل التي يمكن أن تحدث عند وفاة الخليفة ، ولكن كيف انبعثت تلك البدعة ، وما هي آثارها على الطرح الإسلامي الخاص بأصول السياسة والحكم ، فيما يلي نتناول هذه المسألة ، ونردف ذلك التناول بوجهتنا في مسألة توريث الخلافة ، من خلال الآتي :

- منبع بدعة توريث الخلافة في الدولة الأموية :

تشير المرجعيات التاريخية إلي أن هذه البدعة أشار بها المغيرة بن شعبة أحد العمد الأساسية في الدولة الأموية ، وقد عرضها على معاوية بن أبي سفيان لكي يحتفظ بولايته على الكوفة ، وزين له الأمر وأغراه بأن يعقد لزيد خلفاً له ، وأكد له أنه يضمن له موافقة أهل الكوفة، وسيضمن له زياد بن أبيه أهل البصرة ، وهما أهم مصرين في الدولة ، ولن يخالف أحد بعدهما، واطمأن معاوية للفكرة ، ولكنه أجّلها مرجئاً إياها لحين تحين الظروف ، وبعد وفاة الحسن بن على سعى للبيعة لإبنه يزيد في الأمصار ، وقد أفلح في ذلك تحت الإجبار مرة وبالرضا مرة أخرى .

وقد أثار ذلك السلوك الذي يعد الأول من نوعه في الدولة الإسلامية سخط الأمصار والأقاليم عامة ، وأهل المدينة وأبناء الصحابة خاصة ، وحتى بعض الأمويين أنفسهم ، إلا أن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً ، ولما توفى معاوية جددت البيعة ليزيد تأكيداً للعهد ، وأصبحت هذه عادة يسير عليها الخلفاء في بنى أمية ومن بعدهم بنى العباس .

- موقف الطرح الإسلامي الخاص بأصول السياسة والحكم من توريث الخلافة :

الرجوع إلي الطرح الإسلامي فيما يتعلق بأصول السياسة والحكم والتنقيب في ثناياه عن أداة أو آلية اختيار الحاكم يضع أيدينا على ما أورده ذلك الطرح على سبيل التأكيد من أن الاختيار هو الآلية الوحيدة المعتمدة لذلك الأجراء[1]، ولكن عرف الطرح الإسلامي كذلك تجربة الرديف وهو المؤهل الأول لتولى الحكم بعد الحاكم ، وإن كان لا يُعقد له ولا يُبايع [2] ، وبالرغم من أن الطرح الإسلامي كان واضحاً إزاء هذه المسألة ، إلا أن ثمة أموراً ينبغي التدقيق فيها وإمعان النظر ، فلعل في ذلك فائدة ، وهذا ما سوف نوضحه فيما يلي .

---

[1] . يمكن الرجوع إلي تفصيل ذلك في موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الأول ، السياسة والحكم في الإسلام ، الجزء الثاني ، نحو صياغة نظرية سياسية إسلامية معاصرة .

[2] . المرجع السابق .

- رأي في توريث الخلافة :

في هذا الموضع لا نرى غضاضة في طرح بعض الوجهات ، لعل في طرحها فائدة ، حتى ولو من الناحية النظرية أو الفكرية البحتة ، فهي للتذكير حيث أن الذكرى تنفع المؤمنين ، وسوف ننثر هذه الطروحات تباعاً على النحو التالي :

• إن ما قام به معاوية بداءة من تأسيس الدولة الأموية بالرغم من أنه جب للفتنة وحقن لدماء المسلمين ، إلا أنه يعد اغتصاباً للخلافة والحكم رغماً عن جماعة المسلمين ، وذلك لا يتوافق مع الطرح الإسلامي الخاص بأدوات الحصول على الحكم أو نقله .

• إن سلوك معاوية في أخذ العهد لإبنه يزيد على الرغم من معارضة أهل العقد والحل يعد مخالفاً كذلك للطرح الإسلامي في هذا الصدد .

• ولكن ماذا يكون الرأي إذا اتسم الحاكم بالصلاح والتقوى ، ونال رضا وقبول كافة المسلمين ، وكلها صفات تؤهله للحكم وفق الطرح الإسلامي .

• وماذا إذا أخذ العهد لشخص من أسرته يتسم بنفس الصفات ، ونال ذلك أيضاً رضا وقبول المسلمين ؟ ووعد بأن يحكم بما أنزل الله ويقيم شرعه ويعمل بكتابه ويسهر على نشر دينه والدعوة إليه .

• إن الممارسة العملية في فترة الخلافة الراشدة عرفت ظاهرة الرديف ، وهي ظاهرة سياسية تعنى باختيار الخليفة لأحد الثقاة ، ويوصى له بالبيعة من بعده .

• إن أخذ العهد لأحد الثقاة يؤمّن نقل الحكم دون مشاكل أو قلاقل ، ويقي المسلمين شرور الفتن والقلاقل التي تظهر في حالة فراغ مكان الحاكم .

• إذا كان الرديف أو ولي العهد ليس كفئاً فلا يُبايع ولا يؤخذ له العهد ، وذلك لا يلغي حق الاختيار لجماعة المسلمين بل يزكيه .

• إن الخلافة أو الحكم شكل وليس جوهراً ، فالجوهر العمل وفق شرع الله والحكم بكتابه وتطبيق المنهج الإسلامي ، فقد يكون الحاكم مختاراً ولا يلتزم بالأصوليات التي ذكرناها ، وقد يكون الحاكم قد بويع سلفاً وأُخذ له العهد حال وجود سلفه ، ويلتزم بالأصوليات ويقدم نموذجاً فريداً في الصلاح والتقوى وتطبيق المنهج الإسلامي ، فالحاكم إذن اختياراً أو توريثاً إن هو إلا شكلاً ووسيلة ، أما الالتزام بالمنهج فهو الجوهر والأصل ، فمعاوية الثاني جاء بطريقة الوراثة ، وكان مثالاً للزهد في الخلافة وانتقد أباه وجده في طريقة وصولهم إليها ، ووصف جده باغتصابها من أصحابها ، كما نعت أباه بعدم الاستحقاق ، ومن ثم فلم يوصي لأحد من بعده بالخلافة ، كذلك جاء عمر بن عبد العزيز بطريقة الوراثة وهو الذي لقب بخامس الخلفاء الراشدين لصلاحه وحرصه على مصالح المسلمين وتفانيه في سبيل الإسلام والدعوة .

❖ تقوية الجيش لحمل الدعوة خارجياً وحماية الدولة داخلياً : [إحالة]

آخر الخصيّات التي تحمل خصوصية وتفرد الدولة الأموية خاصة بتقوية الجيش الذي لعب دوراً مهماً في هذه الدولة على المستويين : الداخلي المتمثل في حفظ كيان الدولة والحفاظ على وحدتها في مواجهة حركات المعارضة والخروج عليها ، والخارجي المتجسد في الدفاع عن الدولة ضد الاعتداءات الخارجية ، وكذا حمل وتوصيل الدعوة إلى أماكن وبقاع لم يصلها الإسلام من قبل ، وسوف نفصل هذه الجزئية في مواضع مختلفة لاحقة .

ثانياً : فكرة الأمة المجاهدة وتأسيس الجيش في الدولة الأموية :

الأمة المجاهدة – كما سبق وتحدثنا عنها في أكثر من موضع – تعنى جاهزية أفراد الأمة واشتغالهم الدائب بأشكال ونماذج الجهاد في كافة مناحي ومجالات الحياة ابتداءً من مجاهدة النفس وانتهاءً بالصراع العضوي ، وانتهينا بصدد هذه الفكرة إلي مأثورة أن الجهاد كعطاء فعّال هو فرض عين حتى في حالة السلم ، وأن الجهاد كصراع عضوي هو فرض كفاية حتى ولو تم الاعتداء على المسلمين ، وقدمنا الحيثيات التي تقود إلي تلك المأثورة . وأردفنا بهذه الفكرة فرضية مفادها أنه يجوز لولي الأمر أن يفرض الجهاد كصراع عضوي على عموم المسلمين إذا رأي أن الأحوال والظروف تتطلب ذلك .

لقد تابعنا بتفصيل وإسهاب فكرة الأمة المجاهدة في عهدي النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، وهانحن نواصل متابعة هذه الفكرة في عهد الدولة الأموية ، لنرى كيف قدّر لرجالات تلك الدولة تكتيل هذه الفكرة وراء الجيش الأموي ، وكيف تم تطويعها وتحويرها لتتلاءم وظروف الدولة ، وذلك من خلال الآتي :

❖ خصوصية الدولة الإسلامية والحاجة إلي تقوية الجيش :

قدمنا سلفاً ببعض التفصيل خصيات الدولة الأموية ، وما تمتعت به من تميز وتفرد بسبب نشأتها وظروف قيامها ، ثم بسبب تطورها والمرتكزات التي أرتكنت عليها ، ثم بفعل ما ابتدعه مؤسسها من بدعة توريث الخلافة ، وأخيراً بسبب ما حققته هذه الدولة للإسلام من قوة ومكنة في الداخل والخارج .

وكان من شأن تلك الخصيات وما قادت إليه من تفرد وتميز أن تمثل دواعٍ قوية لتأسيس جيش قادر على تحقيق أهداف الدولة الأموية ، حتى تتجاوز ظروفها الخاصة ، وتحقق أهدافها التي بدت طموحة ومكلفة ، ويمكننا القول بأن الجيش الأموي كان أهم سمات

دولة بنى أمية ، كما كان في ذات الوقت أساس وجودها ومحور حركتها ، وسيتضح ذلك من خلال التحليلات اللاحقة :

- القوة دعامة أساسية في دولة بنى أمية :

بالفعل كانت الدولة الإسلامية في عصر الأمويين في أوج قوتها وعنفوانها ، وقد ارتكن الأمويون إلي القوة متمثلة في جيش قوى نظراً لأهمية تلك القوة في ردع الخصوم الذين يتربصون بهذه الدولة الدوائر في الداخل ، وردع العدو التقليدي الخارجي وهو البيزنطيون، واستكمال الفتوحات ونشر الدعوة التي بدأت في عصر الخلافة الراشدة .

ومن ثم صار الجيش محور اهتمام الدولة وشغل قادتها الشاغل ، بكافة متطلباته من عنصر بشري وتسليح وتخطيط وقيادات ، واتسم الجيش الأموي من حيث عناصره وتنظيمه وتشكيله وتسليحه وعقيدته القتالية وقياداته بسمات خاصة أضفت جميعها عليه طابع القوة والمكنة .

وبدا ارتكان الأمويين إلي القوة حتى في اختيارهم لولاتهم وعمالهم ، فقد كانوا يتخيرون من الولاة الأقوياء ومن العمال الأشداء ، ويحضونهم على الشدة والعنف في التعامل مع الخصوم والمعارضين وحتى مع عموم الناس ؛ وكان أشهر هؤلاء جميعاً الحجاج الثقفي ، الذي حظى بشدته وقسوته بتقدير خلفاء بنى أمية وباحترامهم .

وكأن التحليل يفضي إلي أن نشأة الدولة الأموية ، والظروف التي عايشتها منذ قيامها ، ووقائع تطورها ، والتبعات التي ألقيت على عاتقها ، قد فرضت عليها الجنوح إلي القوة والتحصن الدائم بها ، نظراً لأهميتها ولزوميتها داخلياً وخارجياً .

ويمكن القول بأن قوة الدولة الأموية لم تكن تتمثل فقط في قوة الجيش والاستحواذ على مقدرات وإمكانات إدارة الصراع العضوي ، بل تجاوزت ذلك إلي القوة الاقتصادية كذلك

، فقد كان اقتصاد الدولة الأموية من القوة بما ساعد على تجهيز الجيش والإنفاق عليه ، وكان ذلك يتم في المعتاد بفرض الضرائب وجباية الأموال .

- الدور السياسي للجيش الأموي :

كانت أحداث الفتنة الكبرى إيذاناً ببدء تدخل الجيش الإسلامي في السياسة ، وشرع يلعب دوراً في ترتيب العملية السياسية وتوزيع الأدوار ، ويحتل موقعاً في خريطة توزيع القوى السياسية في المجتمع الإسلامي ، ويمكن القول بأن الجيش هو الذي حسم الصراع على الحكم بين معاوية والحسن بن على ، ولولا قوة الجيش الذي ذهب به معاوية إلي العراق غازياً لما أمكنه السيطرة على الموقف وحسم الأمر لصالحه .

منذ ذلك التاريخ والجيش الأموي يلعب دوراً يعوّل عليه في الشئون السياسية ، فقد صار إحدى القوى السياسية التي يحسب حسابها في توزيع القوة على خارطة المجتمع الإسلامي ، وتسييس الجيش في العصر الأموي كان مواكباً لظروف الدولة وظروف نشأتها — التي سبق وتناولناها — وظل للجيش دور سياسي طيلة فترة الحكم الأموي .

فالجيش كان قوة داعمة للحكم الأموي ، واللجوء إليه لحسم الصراعات ووأد حركات التذمر والتمرد كان أمراً طبيعياً ومعتاداً ، والتلويح به دوماً لتخويف الخصوم القائمين والمحتملين كان من سمات الحكم الأموي في معظم فتراته .

❖ بروز ظاهرة العزوف عن الجهاد :

الخلافات والصراعات المذهبية بين أبناء الأمة الإسلامية بدأت تفرغ فكرة الأمة المجاهدة من مضمونها القيم ودلالاتها العظيمة ، فلأول مرة يعزف المسلمون عن الجهاد في الجيش الأموي، وكان ذلك سلوك المعارضين لبنى أمية ، وقد استند هؤلاء إلي أسانيد وحجج شرعية تحرم الجهاد في الجيش الأموي ، تحت دعوى عدم شرعية الجيش المنبثق من عدم شرعية الدولة الأموية ذاتها .

ومن ثم فقد قعدت الأمة عن الجهاد ، وتقاعست عن الصراع العضوي كشكل من أشكاله، وكان ذلك مبرراً وجيهاً لأن يتجه الناس إلي العمل في مجالات شتى من مجالات الحياة ، ويتركوا الجهاد في سبيل الله بكافة نماذجه وأشكاله والتي منها الصراع العضوي .

❖ اللجؤ إلي التجنيد الإجباري :

أمام أهمية الجيش — التي سبق إيضاحها — في كيان الدولة الأموية ، كان لابد من تلمس كافة السبل لتقوية الجيش ، وإمداده بالأعداد اللازمة من المقاتلين ، وإزاء عزوف الناس عن الجهاد بكافة أشكاله ونماذجه والتي منها الصراع العضوي والذي يتم بالانخراط في الجندية ، إزاء هذا وذاك لم ير الأمويون بداً من فرض التجنيد الإجباري الذي لجأ إليه ونفذه الحجاج الثقفي ، وظل نظاماً ثابتاً بعد ذلك .

ثالثاً : تنظيم الجيش في العصر الأموي :

اكتسب الجيش في العصر الأموي خصائص جديدة ميزته عن الجيش في فترة حكم الخلافة الراشدة ، وذلك بسبب ما لحق دور الجيش وأهدافه من تغيير ، وما اعترى أسسه واستراتيجياته من تبديل ، وانعكس كل ذلك على تنظيم الجيش في العصر الأموي ، والتوضيح فيما هو تالي :

❖ الجيش والظاهرة الصراعية :

الظاهرة الصراعية هي التي تعنى بتصادم الإرادات الإنسانية ، ويهدف الصراع دائماً إلي رغبة كل طرف في إخضاع إرادة الآخر أو إنهاء وجوده ، والجيش هو دائماً أداة الصراع العضوي بين إرادات الوحدات النظامية ، وقد اتسعت دائرة علاقة الجيش الأموي بالظاهرة الصراعية انطلاقاً من الظروف التاريخية التي وجدت فيها هذه الدولة ، وكذا

الأعباء والتبعات التي تحملتها فيما يتعلق بالدعوة الإسلامية والدفاع عن الدولة ، وسوف نتتبع علاقة الجيش الأموي بالظاهرة الصراعية من خلال الآتي :

- الجيش أداة لإدارة الصراع العضوي :

كان الجيش الأموي أداة سريعة وحاسمة وفعالة في إدارة الصراع العضوي ، وقد تعددت وتباينت الصراعات العضوية التي خاضها الجيش الأموي داخلياً وخارجياً ، وبالرغم من أوجه التشابه بين الجيش الأموي والجيش في فترة الخلافة الراشدة ، إلا أن الجيش الأموي فيما يتعلق بإدارة الصراع العضوي كان أكثر استجابة وأوسع طموحاً ، فقد أطلق له الخلفاء الأمويون العنان فصال وجال في أقطار الأرض ، ولم يكن ذلك على سبيل العبث واحتراف الصراع وامتهان الحرب ، ولكن كان القصد والغاية هو حمل الدعوة وتوصيلها ، والدفاع عن الدين والدولة .

والصراعات التي خاضها الجيش الأموي كانت صراعات خارجية كما كانت كذلك صراعات داخلية ، توزعت الصراعات الخارجية بين صراعات الإرادات التي حاولت إعاقة وصول الدعوة إلي المخاطبين بها ، والصراعات الأمنية النظامية ، أما الصراعات الداخلية فقد انقسمت إلي صراعات مع الخصوم السياسيين والمعارضين ، وصراعات مع الخارجين على الدولة ومن شقوا عصا الطاعة ، وقد اعد الجيش الأموي لكل صراع عدته وأدوات خوضه وإدارته .

- الجيش وإخضاع إرادة الآخر :

في فترة حكم بنى أمية تعددت الإرادات التي لم يكن لإخضاعها من سبيل إلا عن طريق الجيش ، ففي الداخل كان هناك الخصوم السياسيون والمعارضون ، وكان هناك كذلك الحركات التي انتشرت في بعض الأقاليم للخروج على الحكم الأموي وزعزعة استقرار الدولة ، وهذه وتلك كان الجيش الأموي يتدخل لإخضاعها وإجبارها على الانصياع .

وفي الخارج كان هناك إرادات من يحولون دون وصول الدعوة الإسلامية إلي الشعوب ، وكان على الجيش الأموي أن يتعامل مع تلك الإرادات على غرار تعامل الجيش في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، ثم كان هناك إرادات الوحدات النظامية التي وُجدت في زمن الأمويين وكان لا مفر من السعي الجاد والصارم لإخضاع إرادتها كتعبير من تعبيرات الردع ، وكان ذلك هو شأن الإمبراطورية البيزنطية ، التي يمكن القول أن الأمويين كانوا على قناعة بضرورة التعايش بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية بشكل أو بآخر ، وإن كان ذلك لم يوقف الصراع العضوي فيما بينهما الذي بدا من وقت لآخر .

– الجيش والصراع الأممي النظامي [العلاقات الأممية] :

لقد أفردنا هذه الجزئية لمسألة الصراع الأممي النظامي ، بالرغم من أنها إحدى أشكال الصراع التي كان الجيش الأموي يمثل أداتها الوحيدة ، لأهمية هذه المسألة فيما بعد بخصوص العلاقات الأممية في تلك الفترة ، وبخصوص ما عرف من دلالات مبكرة لظاهرة التوحد المكاني وسيادة الأقوى التي نعرفها الآن بالعولمة . لقد عهد الجيش الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة إدارة الصراع الأممي ، وأجاد فيه ، وقدّر له أن يحسم وقائع عديدة من ذلك الصراع لصالحه ، فتمكن من صراع أمة الفرس ودعوتهم إلي الإسلام فاستجابوا للدعوة ودخلوا في دين الله أفواجاً ، كما تمكن من صراع أمم أخرى عديدة ، ونقل إليها الدعوة ، وقبلت دعوة الإسلام، واعتنقتها عن قناعة واختيار ؛ إلا أن الجيش الأموي خاض صراعاً مع أمة أخرى ، تعد قاعدة انطلاق أساسية ومهمة لحضارة ذات أصول وجذور ضاربة في أعماق التاريخ ، وكانت امتداداً وتواصلاً لما يعرف اليوم بالحضارة الغربية ، تلك كانت الحضارة الرومانية وأداتها النظامية المتمثلة في الدولة البيزنطية .

لقد خاض الجيش الأموي صراعاً مع الدولة البيزنطية ، وهو يدرك أنها التعبير النظامي عن حضارة وثقافة ذات خصوصية ، ومن ثم فلم يكن على يقين من أنه سيُخضع إرادة

تلك الدولة بشكل حاسم ، بل أدرك أن ذلك الصراع سيظل سجالاً بين طرفين ، لأن كلاً منهما يملك ذاتاً حضارية ومنطقاً ثقافياً يعتد به ، ولقد انتهت الدولة الأموية كإحدى فترات التاريخ الإسلامي وحلقاته المتواصلة ولم ينته الصراع بين المسلمين والروم ، وحتى عندما سقطت الدولة البيزنطية على أيدي الأتراك العثمانيين ، لم يكن ذلك إيذاناً بانتهاء حضارة الرومان وثقافتهم ، وسوف نفرد لهذه الجزئية تحليلاً خاصاً في الجزء التاسع من هذا المجلد .

- الجيش الأموي وإقرار الأمن الداخلي :

أوضحنا أن الجيش الإسلامي قد خاض تجربة إقرار الأمن الداخلي للدولة ، وإخضاع إرادات الخارجين في فترة الخلافة الراشدة . ولعل الجيش نفسه هو الذي حسم الشكل الصراعي للإرادات المتناطحة داخل كيان الدولة الإسلامية ، وأوجد الدولة الأموية تتمة لتداعيات الفتنة الكبرى ، فلم يكن جديداً على الجيش الأموي أن يتقن دوره المتمثل في إقرار الأمن الداخلي وإخضاع إرادة المناهضين للدولة والخارجين عليها ، وكان الأمويون في ذلك غلاظاً شداداً لا يخشون في ذلك لومة لائم ، وقد أعدوا لهذه الأدوار قواداً كانوا أكثر شهرة في التاريخ الإسلامي من خلفاء بنى أمية أنفسهم ، وقد تمكن الجيش الأموي من القيام بهذا الدور بشكل جيد ، إلا أنه عندما ضعف الجيش وضعفت قدرته على القيام بدوره السياسي الذي أُعد له في الدولة الأموية . لم يتمكن من السيطرة على الأوضاع وكانت النهاية ، وهذا ما سوف توضحه في العنصر التالي .

- الدور السياسي للجيش الأموي :

الجيش الأموي كان منذ قيام الدولة إحدى القوى السياسية التي لها دور في الحياة السياسية، والدور السياسي للجيش الأموي تمثل في قيامه بالحفاظ على شكل الحكم

وقواعد اللعبة السياسية كما يريدها حكام بنى أمية ، فهو حارس لبدعة توريث الخلافة ، وأمين حفيظ على قواعد انتقال الحكم من حاكم إلي آخر ، وهو سيف مسلط على رقاب من يعترض أو يعارض نظام الأمويين وطريقتهم المثلى ، وظل كذلك حريصاً على دوره كفئاً في القيام به ، ومن ثم ظلت الدولة قوية ومسيطرة على كيانها .

وعندما ضعف الدور السياسي للجيش ونُحّي جانباً ، قويت شوكة المعارضين ، وعمدوا هم أيضاً إلي تكوين جيش مقابل . وبدا أن زمام الأمور سيفلت من بين يدي الأمويين ، وهذا ما حدث عندما أدت القبلية العصبية التي أقامها الأمويون ، وأقاموا عليها حكمهم إلي تفسخ الجيش وتمزق وتشتت ولائه بين القبائل . في هذا الوقت كانت قوة المعارضين الأساسيين لبنى أمية وهم العباسيون في تصاعد مستمر ، وشكّلوا قوة لا يستهان بها ، لم تقم على أساس قبلي عصبي ، ولكن على أساس ديني شرعي قوامه الانتساب إلي رسول الله وآل بيته ، ومن هذا المدخل نفذ العباسيون إلي عقول الناس وربما قلوبهم . وكانت الدولة الأموية قد ذهبت ريحها وولى زمانها .

- الجيش الأموي وحمل وتوصيل الدعوة :

لقد برع الجيش الأموي في حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية إلي أقوام في مناطق شتى . فقد وصل الجيش الإسلامي في العصر الأموي إلي موسكو الحالية ، وتجاوز الحدود الفاصلة بين شبه جزيرة أيبريا وفرنسا ، وتوغل في وسط أوربا ، وفتح جزر صقلية وكريت وقبرص وجنوب إيطاليا وأجزاء من جنوب اليونان .

لقد عمد الجيش الأموي في نشر الدعوة إلي الأسلوب الذي اتبعه الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة — كما سبق وأوضحنا — وقد قام ذلك الأسلوب على حمل الدعوة في ركابه ، ثم توصيلها من خلال إزالة الحواجز التي تحول دون وصولها إلي

الشعوب ، وبعد ذلك يلتقي الدعاة بالناس فيبلغونهم بالدين الجديد ، ويدعونهم إلي الدخول فيه ، ويتركون لهم حرية الاختيار .

❖ العنصرية القبلية والجيش الأموي :

ذكرنا مراراً أن العنصرية القبلية كانت من أهم سمات الدولة الأموية ، وقد قامت الدولة على هذه الخصيصة مستفيدة منها ، ولكنها جلبت عليها التداعيات والنواقص ، بل وقادت في نهاية المطاف إلي سقوط هذه الدولة ، وإذا كانت العصبية القبلية قد أفرزت نتاجها السيئ على الدولة الأموية ، فهل كان لها تأثير يذكر على الجيش ، في الحقيقة لقد مدت العصبية القبلية آثارها إلي الجيش بشكل واضح حتى أدت إلي انهياره هو الآخر ، ويمكن إيضاح ذلك على النحو التالي :

- نظرة في ولاء الجيش الإسلامي الأموي :

سؤال يطرح نفسه بإلحاح في هذا الصدد ، وهو إذا كانت العصبية القبلية قد استشرت في شئون الدولة الأموية وكانت لها مثالبها ، وقد انتقلت كذلك إلي الجيش الأموي ، فهل قادت إلي تشتت ولاء الجيش وتوزعه بين الدولة الإسلامية والنظام الإسلامي بأصوله وقيمه وأهدافه، وبين الحكام الأمويين كأشخاص بذوات وصفات ؟ .

الحقيقة أن الجيش الإسلامي الأموي قام بدوره فيما يتعلق بحمل الدعوة وتوصيلها إلي كافة الأنحاء باسم الإسلام ، وممثلاً للدولة الإسلامية ، وكان ولاؤه منصرفاً تماماً للدين الحنيف ، فلقد استكمل الجيش الأموي فتح شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلنطي ، وعبر مضيق جبل طارق ليفتح شبه جزيرة أيبريا وجنوب القارة الأوربية وجزر البحر المتوسط باسم الإسلام ، ثم انطلق ذلك الجيش من وسط أسيا نحو الشمال حتى مدينة موسكو أيضاً باسم الإسلام ، ولم يحمل الدعوة باسم الأمويين ، بل كان موحد الولاء للإسلام والدعوة الإسلامية .

ولكن كان من الطبيعي أن يتجه ولاء الجيش على مستوى الأحداث والتطورات الداخلية إلي الأمويين ، فهم الذين أقاموا الدولة وعلى الجيش حماية هذه الدولة التي تنسب إلي بنى أمية. والذين يجتهدون من أجل أن يظل الحكم فيهم ولأبنائهم من بعدهم . فالجيش الأموي كان يحمى الحاكم ونظامه الذي كان ينطلق من عصبية قبلية هي بنو أمية وأنصارهم من العصبيات والقبائل . فالجيش الإسلامي في فترة حكم الخلافة الراشدة كان يحمى الدولة الإسلامية ونظامها الإسلامي ولا يحمى الخليفة الراشد ، ومن ثم فولاؤه الداخلي كان للدولة الإسلامية كشخصية اعتبارية ونظامها السياسي . أما الجيش الإسلامي الأموي فكان يحمى الخليفة الأموي وعصبته وقبائله . ويؤمّن وجودهم ضد أية معارضة أو خروج عليهم .

إذن الحديث عن ولاء الجيش الإسلامي الأموي يستوجب التفرقة بين الوظيفة الخارجية للجيش ، التي كان ولاؤه بخصوصها موجهاً للدولة الإسلامية والإسلام والدعوة إلي الدين الحنيف ، وبين الوظيفة الداخلية المتمثلة في حفظ كيان الدولة والحفاظ على وجودها ، وكان ولاؤه بصددها موجهاً إلي الأمويين كعصبية قبلية ، حيث تمثل هدف الجيش في الحفاظ على الحكم في أسرة بنى أمية .

وكان ذلك هو الحال في بداية قيام الدولة الأموية ، إلا أنه بعد أن اتسعت رقعة الدولة ودخلتها عناصر جديدة من الأتراك والزنج والبربر ، والذين انضموا للجيش الأموي وأبلوا بلاءً حسناً في الفتوحات التي قادها الجيش ، وساهموا بفعالية في حمل وتوصيل الدعوة وتبليغها، تعدّلت وضعية ولاء الجيش الإسلامي الأموي للأمويين كعصبية قبلية ، وقلّ تدريجياً تأثير الجيش في السياسة وتدخله المستمر لإحباط وقمع حركات التمرد والخروج ، حيث شغلت العديد من العناصر المذكورة الأدوار القيادية ، وهذه العناصر لم يكن لديها ولاء مسبق للأمويين بل كان ولاؤها رأساً وأساساً للإسلام ، ومن ثم بدأت تضعف قبضة

الجيش على الأمور الداخلية ، وشرع يتخلى تدريجياً عن حمايته التي كان يكفلها للعصبية الأموية ، وذلك سهل مهمة العباسيين الذين كانوا يعدون العدة لانتهاز هذا الخلل في تركيبة علاقة الجيش بالحكم الأموي ، كي يقفزوا على الدولة الأموية التي كانت قد هرِمت وخارت قواها .

– العنصرية القبلية وتنظيم الجيش الإسلامي الأموي :

كذلك ظهرت العنصرية القبلية في تنظيم الجيش الأموي . فقد كان الجيش الأموي عند تأسيسه يعتمد على القبائل الموالية للأمويين في الشام فكان جيشاً قبلياً عنصرياً ، وكان تسجيل الجند يتم حسب القبائل والعصبيات وليس حسب القرى والمدن ، وأدى ذلك إلي وجود فوارق بين الجند منبعها العصبية القبلية ، وبدت سيطرة الشوام على الجيش الأموي وعلى العنصر العربي فيه ، وقاد ذلك إلي تذمر العديد من المقاتلين وكذا القبائل العربية .

وفي مرحلة تالية خفت حدة هذه الوضعية بدخول عناصر غير عربية عديدة إلي الجيش الأموي ، مثل الفرس والأتراك والزنج والبربر ، وبدأوا في مزاحمة الشوام فاختفت تدريجياً عملية التفرقة ، ولكن ظلت القيادات والمراكز المهمة في الجيش تحت سيطرة الشوام ، وما يمكن قوله أن تلك التفرقة قد فتت في عضد الجيش ، وفتّرت من حماسه للدفاع عن الدولة الأموية ، فتركها نهباً لخصومها الأقوياء الذين كانوا في أوج قوتهم .

❖ الاستنفار :

الاستنفار — كما سبق وأوضحنا — يعنى بجملة الإجراءات التي تتّبعها الدولة من أجل تجميع العنصر البشري للالتحاق بالجيش لتولى مهام إدارة الصراع العضوي ، وقد تناولنا عملية الاستنفار في عهدي النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، من خلال شرح وتحليل

العلاقة الارتباطية بين مدركي " الأمة المجاهدة " و " الأمة المقاتلة " ، ونظراً لاختلاف الأوضاع داخل الدولة الأموية عن العهدين المذكورين ، لذا لزم أن نوضح إجراءات الاستنفار وأطرها الفكرية في تلك الدولة ، وذلك من خلال ما يلي :

- التجنيد الإجباري الذي حل محل الأمة المجاهدة :

انتهينا إلي أن الأمة المجاهدة تعنى أن أبناء الأمة الإسلامية في حالة جهاد ذاتي متواصل في أشكال ونماذج عديدة ، وهم جاهزون دوماً إلي القيام بآخر أشكال ونماذج الجهاد المتمثل في الصراع العضوي ، إلا أن الوضع في الدولة الأموية قد اختلف عن الوضع المذكور ، فلم يعد أبناء الأمة يملكون الجاهزية لأن يقوموا بالصراع العضوي في أي لحظة بل انصرفوا إلي مصالحهم وشئونهم الخاصة ، ثم أنهم اعرضوا في كثير من الأحوال صراحةً عن الانضمام إلي الجيش لأداء مهام الصراع العضوي حيث اضمروا للدولة الأموية الكره وعدم الارتياح .

بالرغم من استمرار نموذج الجهاد بشكله الذي كان في عهدي النبوة الزاهر والخلافة الراشدة على نطاق ضيق ، مال الأمويون إلي تضخيم عدد الجيش لتعدد مهامه داخلياً وخارجياً ، فلجئوا إلي التجنيد الإجباري الذي ابتدعه الحجاج الثقفي ، ليصبح بعد ذلك أساساً ثابتاً ونظاماً يعوّل عليه ، ويحل محل مفهوم الأمة المجاهدة بشكل نهائي .

- البعد التنظيمي لعملية الاستنفار :

الاستنفار هو أول مراحل تأسيس الجيش ، والبعد التنظيمي أول إجراءات عملية الاستنفار ، ويعنى البعد التنظيمي الإجراء المتعلق تحديداً بتجميع الأفراد واستقطابهم للالتحاق بالجيش ، وهذا البعد الإجرائي كان في الدولة الأموية ذو خصوصية ، حيث تداخل مع النزعة العصبية القبلية التي انتشرت في زمن الأمويين وعوّلوا عليها في تأسيس دولتهم ،

وبالرغم من ذلك استجدت تطورات حدّت من هذه النزعة وحجّمت من آثارها ، ويمكن إيضاح ذلك من خلال ما يلي :

• في بداية عهد الدولة الأموية كانت القوة العسكرية الضاربة والفعّالة للجيش الإسلامي الأموي مركزة في المقاتلين الشوام التابعين للقبائل الشامية الموالية للأمويين في سوريا ، كما تركزت كذلك في حاميات واسط والكوفة والبصرة وخراسان ، بالإضافة إلي تنظيمات عسكرية قوية في الجزيرة الفراتية .

وكان استنفار الجند الشامية يتم من خلال تسجيلهم في ديوان الجند ، وهم في مقدمة مقاتلي الجيش الأموي ، وكانوا يفضلون بقية المقاتلين نظراً لانتماءاتهم العصبية والقبلية ، وكان ذلك مثار حنق وتبرم أفراد الجيش الأموي الذي أثر في كثير من الأحوال على أداء الجيش وربما على تماسكه ووحدة بنيانه .

• كان استنفار جيش الفتح يتم من خلال تسجيل المقاتلين الشوام ، ثم تجميع المقاتلين من الولايات والأمصار ، وكان جيش الفتح يعنى الجيش المخصص لحمل الدعوة وتوصيلها إلي المناطق والأقاليم المختلفة ، وقد تعددت العناصر العربية التي ائتلفت جميعها في كنف الجيش الإسلامي — وهذا ما سنوضحه بعد قليل — الذي انطلق في كافة الاتجاهات ليكمل مسيرة الفتح التي بدأها جيش الخلافة الراشدة ، وقد أبلى هذا الجيش بلاءً حسناً فيما يتعلق بتوسيع نطاق الدولة الإسلامية ، حيث وصل بحدود هذه الدولة إلي ما لم تصله من قبل ولم تصله بعد ذلك .

• كذلك عُرف الاستنفار المحلى في كل ولاية أو إقليم ، وذلك لتشكيل الحاميات العسكرية والقوات المرابطة بشكل مستديم في الثغور والحصون والحدود ، وقد اهتمت الدولة الأموية بهذه الجيوش ، وعوّلت عليها في حفظ الأمن الداخلي والاستقرار السياسي

، كما بدت أهميتها كذلك كقوات دائمة لصد الاعتداءات الخارجية على الحدود والمدن الحدودية والسواحل البحرية .

• كان العنصر العربي هو السائد في الجيش الإسلامي الأموي ، وعلى رأس العنصر العربي جاء الجند الشوام ، إلي أن فتح الأمويون الشمال الأفريقي وشبه جزيرة أيبريا [الأندلس] ، وعند ذلك دخلت عناصر أخرى غير عربية إلي الجيش الإسلامي ، ومن ثم ضم الجيش الإسلامي عناصر فارسية وحمراوية وأساوره وسيابجه وزط ونحارية وأتراك وبربر وزنج وغيرهم ، وقد قلل دخول هذه العناصر إلي الجيش الأموي من سيطرة العنصر العربي ، كما حدّت من النزعة العصبية القبلية التي وضعت القاتلين الشوام على رأس الجيش ، وقد أضافت هذه العناصر للجيش الإسلامي قوة ضاربة جعلت منه أقوى جيش في ذلك الوقت ، وكان بالفعل جيشاً إسلامياً تكوينياً ومقصداً ، وتمكن هذا الجيش الإسلامي من تحقيق فتوحات لعلها الأعظم في التاريخ الإسلامي .

• في العصر الأموي عادت إلي الظهور إحدى الظواهر التي أمدت الجيش الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأُوَل برافد من المتطوعين المسلمين من عناصر شتى ، التحقوا بالجيش الأموي غالباً على نفقتهم الخاصة وبمعداتهم الخاصة بالحرب ، وفي كثير من الأحيان كانوا يساهمون في تكاليف الحرب ، وقد عرفت مساهمة هؤلاء في الجيش الأموي " بالتناهد " ، وقد كان لهؤلاء المتطوعين دور مهم في انتصارات الجيش الأموي وفتوحاته .

• ثمة قضية في هذا السياق جديرة بالإشارة والاعتبار ، وهي أن الجيش الأموي في المعتاد لم يكن جيش بعثات مؤقتة ، ولكنه كان أكثر ميلاً إلي الجيش النظامي العامل ، الذي هو في حالة جهاد مستمر ، حيث لم تتوقف فتوحات الجيش الإسلامي الأموي منذ تأسيس الدولة الأموية ، وقد ترتب على ذلك أنه لم يكن باستطاعة المقاتلين أصحاب

العطاء ، أي الذين يتقاضون راتباً من الجيش أن يعودوا إلي ديارهم ، كما كان يحدث غالباً في الجيش الإسلامي في عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة ، وذلك لثلاثة أسباب : الأول : أن البعثات الفتوحية لا تتوقف – كما قدمنا – فهي دائمة وفي كافة الاتجاهات ، الثاني : أن العطاء أو الراتب الذي يتقاضاه المقاتل قد يتوقف إذا ترك الجهاد وعاد إلي موطنه ، مما جعل منه مجاهداً نظامياً دائم التواجد في ميدان الجهاد ، الثالث : أن الانضمام إلي الجيش كان قد بات إجبارياً في العصر الأموي — كما أوضحنا — ولم يكن بمقدور المجاهد أن يعود أدارجه بإرادته المنفردة .

أما فيما يتعلق بالمتطوعين الذين سبقت الإشارة إليهم ، فكان باستطاعتهم العودة إلي أماكنهم إذا انتهت بعثة من البعثات التي ساهموا فيها بشكل خاص ، أما إذا كان الجهاد متواصلاً فلهم أن يعودوا أدراجهم متى شاءوا .

– البعد العقيدي :

البعد العقيدي ودوره في التأثير على حركة ومنطلقات الجيش الأموي الإسلامي يعد من الموضوعات الجديرة بتكثيف الضوء عليها وإبرازها في موضوعية وحيدة ، نظراً لما شابها وثار حولها من تهويفات ، وعليه فإشكالية البعد العقيدي في الجيش الإسلامي الأموي سنتطرق إليها على النحو التالي :

• كان للظروف التاريخية والموضوعية التي نشأت في رحابها الدولة الأموية ، وما أدت إليه من قيام معارضة لتلك الدولة في العديد من الولايات والأقاليم ولدى قطاع عريض من المجتمع الإسلامي ، دور يعتد به في انبعاث حركة تشكيك واسعة النطاق في شرعية قيام تلك الدولة ، وكان من شأن ذلك أن يؤثر بفعالية على البعد العقيدي كمحفز للجيش وكقوة دافعة له في تحقيق أهدافه ، وبصفة خاصة على المستوى الداخلي المتعلق بقمع حركات

التمرد والخروج، تزامن مع ذلك ، وربما ترتب عليه انتشار موجة العزوف عن الجهاد في صفوف الجيش الأموي ، والتشكيك في شرعيته وشرعية أهدافه .

• إذا كان ما تقدم قد أثّر بشكل أو بآخر في حركة الجيش الأموي على المستوى الداخلي فإنه لم يؤثر بشكل فعّال في حركته على المستوى الخارجي . فقد انطلق إلي تحقيق أهدافه في حمل وتوصيل الدعوة دون عائق أو مثبّط ، وذلك يعنى أن البعد العقيدي كان له دوره الفعّال كمحفز ودافع فيما يتعلق بنشر الدعوة الإسلامية ، وهذا يؤشر بقوة إلي أن الدعوة الإسلامية في قلوب وعقول الأكفّاء من أبناء الأمة لم تكن لتتأثر بالحساسيات والاختلافات المذهبية ، فهي كانت دوماً فوق هذه الاختلافات وفي معزل عن الرغبات والمآرب الذاتية .

• كان لانضمام عناصر عديدة غير عربية إلي الجيش الأموي دوره المؤثر في التخفيف من حدة حركة التشكيك السابق الإشارة إليها في الجيش ، وبالذات فيما يتعلق بحركته من أجل الدعوة ، حيث اتسمت تلك العناصر بإيمانها الصافي الذي لم تشبه شوائب وإرسابات الخلافات والاختلافات المذهبية ، واحتفظت بحماسها وحميتها التي توجهت بكاملها نحو حركة الجيش المتمثلة في حمل وتوصيل الدعوة ، ومن هنا كانت أهمية تلك العناصر في استمرارية وتواصل حركات الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي .

- البعد النفسي :

على المستوى الخارجي المتعلق بحمل وتوصيل الدعوة كان للعامل النفسي أهميته وتأثيره في الجيش الأموي ، فقد خبرت قيادات الجيش الأموي التعامل مع العامل النفسي لدى المجاهدين، مستثمرين في ذلك التعامل المدخل العقيدي ، حيث كان الأخير دوماً أداة للترقي بمعنويات الجنود ودفعهم تلقاء الجهاد بصبر وإقدام وجلد ، ولعل مسيرة طارق بن

زياد وموسى بن نصير نحو شبه جزيرة إيبريا وعبورهما المضيق في ظروف صعبة ذات دلالة في هذا السياق ، كما أن الحصار الطويل الذي فرضه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية على مدينة موسكو في أحوال قاسية وكانت على وشك السقوط ، لهو أيضاً من قبيل الترقي بمعنويات المقاتلين عبر البعد العقيدي .

❖ تقوية الأسطول الإسلامي :

تناولنا في فترة الخلافة الراشدة كيف تم تأسيس الأسطول الإسلامي في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان بمجهودات القائد الجريء معاوية بن أبي سفيان ، وفي هذا الموضع نواصل متابعة الجهود التي بذلها ذلك القائد من أجل تقوية الأسطول الإسلامي :

- بناء قطع الأسطول :

الاهتمام بالأسطول هو نوع من الاستنفار ، فعندما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة عمد إلي الاهتمام بإنشاء السفن الحربية ورتب لمواجهة البيزنطيين ، الذين كانوا يمثلون في ذلك الوقت العدو التقليدي للدولة الإسلامية ، وبلغ عدد سفن أسطول الشام ١٧٠٠ سفينة من أنواع عديدة .

وفي عام ٤٨ هـ وجه معاوية بعثة لفتح القسطنطينية ، ولكن هذه البعثة أخفقت في تحقيق أهدافها بسبب الخبرة المحدودة للأسطول الذي تلقى نيراناً من الحصون والقلاع البيزنطية لم يعهدها المسلمون من قبل ، وبسرعة استوعب المسلمون الدرس وشرعوا في التوقي والاستعداد للحروب البحرية .

وفي العام التالي ٤٩ هـ رد البيزنطيون بهجوم على سواحل الشام ، تسبب في خسارة فادحة للمسلمين وكانت استجابة معاوية سريعة وحاسمة ، حيث أنشأ داراً لصناعة السفن في مدينة عكا ، نُقلت في خلافة هشام بن عبد الملك إلي مدينة صور .

استعمل معاوية بن أبي سفيان على الأسطول الإسلامي عبد الله بن قيس الذي قاد خمسين بعثة صيفاً وشتاءً ، ونجح جنادة بن أبي أمية في فتح جزيرة رودس في عام ٥٢ هـ ، وفي عام ٥٤ هـ استولى ابن أبي أمية على جزيرة أرواد وفتحها وأتخذ منها قاعدة لانطلاق بعثاته ضد القسطنطينية ، وفتح جزيرة كريت في عام ٥٥ هـ .

في العام ٥٤ أسس معاوية بن أبي سفيان داراً لصناعة السفن في جزيرة الروضة بمصر على يد واليه على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ، وكان ذلك بعد أن غزا الروم مدينة البرلس في شمال مصر في عام ٥٣ هـ ، وفي عام ٦٨ هـ هاجم أسطول إسلامي جزيرة صقلية قبل أن يفتحها المسلمون وغنم منها مغانم كثيرة .

وفي عهد عبد الملك بن مروان أتخذ واليه على تونس حسان بن النعمان الغساني داراً لصناعة السفن في تونس في عام ٨٩ هـ .

كذلك حرص الخليفة الوليد بن عبد الملك على صناعة السفن والاهتمام بالأسطول الإسلامي. فازدهرت في عهده تلك الصناعة في كل من جزيرة الروضة والقلزم وهي السويس الحالية والإسكندرية ، ووصل عدد قطع الأسطول الإسلامي في خلافة سليمان بن عبد الملك إلي ١٨٠٠ سفينة من أنواع مختلفة .

لقد كانت وحدات الأسطول الإسلامي في العهد الأموي في البحر المتوسط تتوزع على خمس وحدات : أسطول الشام ومركز قيادته اللاذقية ، وأسطول أفريقيا . وأسطول مصر ومركزه الإسكندرية ، وأسطول النيل ومركزه بابليون . وأسطول خاص لحراسة النيل .

أما البحرية الإسلامية إجمالاً في العصر الأموي فقد انقسمت إلي قسمين منفصلين : القسم الأول : هو أسطول البحر المتوسط – الذي ذكرناه لتونا –القسم الثاني : هو أسطول الخليج العربي والمحيط الهندي وهو الذي كان يعمل في هاتين المنطقتين ، وقد كانت نماذج السفن في كل أسطول مختلفة عن الأخرى .

ومما يذكر عن نشاط الأسطول الإسلامي في العهد الأموي أنه حاصر القسطنطينية ثلاث مرات ، مرتان في عهد معاوية بن أبي سفيان والثالثة في عهد سليمان بن عبد الملك .

- أهمية الأسطول الإسلامي :

بالرغم من أن العرب ومن ثم المسلمين الأوائل كانوا أهل بداوة ولم يخبروا ركوب البحر ، إلا أنهم عندما عمدوا إلي التعامل مع الخصم أجادوا في تطويعه ، من خلال أسطولهم الحربي الذي بدأوا تأسيسه في عهد عثمان بن عفان ، ثم في عهد معاوية بن أبي سفيان صاحب الفكرة ، تم تطوير الأسطول بشكل جيد وسريع ووصل إلي أوج قوته الحربية القتالية في عهد بنى أمية ، أما الجانب المدني أو الاقتصادي منه فلم يُستفد منه بالشكل الكثيف والفعّال إلا في عهد العباسيين ، وفي هذه الجزئية نبحث في أهمية الأسطول الإسلامي خلال العصر الأموي ، وذلك من خلال ما يلي :

• كان من شأن الأسطول الإسلامي أن يقيم نوعاً من التوازن على المستوى الاستراتيجي وحتى على المستوى العملياتي التكتيكي بين استخدام الأرض والبحر في مسألة الصراع العضوي ، فقد بدأت تحركات الجيش الإسلامي وفتوحاته لمناطق وأقاليم ذات طبيعة قارية ، ومن ثم فقد خبر التعامل مع الأرض بكافة أشكالها إلي درجة الإجادة ، ثم كان عليه أن يتحول إلي التعامل مع البحر ، وكان ذلك إيذاناً بمرحلة جديدة في حركة الفتوحات الإسلامية .

• لقد برزت أهمية الأسطول الإسلامي كأداة من أدوات التحول في حركة الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة ، حيث عزم المسلمون على توصيل الدعوة إلي مناطق وأقاليم لا يتم الوصول إليها إلاّ عبر ركوب البحر ، ومن ثم كان دور الأسطول دوراً مهماً في شمولية الدعوة، حيث جمعت بين المناطق القارية والمناطق البحرية ، فلولا تطور الأسطول

الإسلامي لما أمكن الانطلاق إلي جنوب الهند وسواحل الصين والتوغل في عمق القارة الأفريقية عبر النيل وفتح جزر البحر المتوسط رودس وكريت وقبرص وصقلية وسواحل جنوب أوربا في اليونان وإيطاليا والانطلاقة الكبرى نحو شبه جزيرة أيبريا [أسبانيا] .

. كان للأسطول الإسلامي أهميته في إيجاد توازن في الصراع التقليدي الذي اشتهر بين المسلمين وبيزنطة ، حيث برزت قوة وحنكة الرومان في ركوب البحر والحرب البحرية ، ومن شأن التفوق الروماني في هذا الجانب أن يؤثر في كيان الدولة الإسلامية ، حيث ستصبح عرضة في أي وقت للتعديات والاعتداءات البيزنطية دون رادع ، ويؤثر كذلك في حركة الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة لأن التفوق الروماني كفيل بعرقلة الحركة الإسلامية في البحر المتوسط والاتجاه صوب الجنوب الأوربي .

. كان للأسطول الحربي الإسلامي دوره المهم في وضع أساس الأسطول التجاري في العصر الأموي ، وإن لم يؤت أكله في حينه ، فقد ظهرت قيمة الأسطول التجاري الإسلامي في العصر العباسي . حيث ازدهرت حركة التجارة والتبادل بين الدولة الإسلامية ودول بحرية كبيرة مثل الهند والصين وسواحل أوربا الجنوبية وسواحل شرق أفريقيا .

❖ تمويل الجيش في العصر الأموي :

بدأ الجيش في العصر الأموي يعتمد في تمويله أكثر على موارد الدولة وذلك يؤشر لتحولات في اقتصاد الدولة الإسلامية ، التي اتسعت رقعتها وزادت مواردها وتنوعت ، ونتناول مسألة تمويل الجيش في العصر الأموي من خلال ما يلي :

- موارد الدولة :

لم يعد الجيش يعتمد في تمويله على الغنائم بشكل مباشر كما كان في عهد النبوة الزاهر ، ولا على صدقات المقتدرين كما حدث كثيراً في عهد الخلافة الراشدة ، ولكن استقر أمر تمويل الجيش على الاعتماد على موارد الدولة المختلفة التي ارتكزت على أساسين مهمين هما : موارد الملكية العامة والضرائب ، واتسمت الميزانية المخصصة للجيش في العصر الأموي بالضخامة ، حيث تعددت الجيوش الإسلامية في الداخل والخارج ، وزادت أعدادها وأعباؤها وكلفتها ، إضافةً إلي بروز الأسطول الإسلامي ، وما احتاجه من نفقات في تجهيزه بالسفن والأسلحة والأفراد .

- ارتفاع رواتب المجاهدين ونفقات الجيش في العصر الأموي :

زادت رواتب الجند في العصر الأموي عما كانت عليه في العصر الراشدي ، فقد بلغ راتب الجندي في عهد معاوية ١٠٠٠ درهماً في السنة ، وقبيل انتهاء العصر الأموي كان هناك ستون ألفاً من أصحاب العطاء في العراق وحده ، وبلغت رواتبهم مع رواتب أسرهم ستين مليون درهماً سنوياً ، في حين بلغ عدد الجيش الأموي في أواخر حكمهم مائةً وعشرين ألف مقاتل .

- ظاهرة التناهد :

تعد ظاهرة التناهد من الظواهر التي برزت في العصر الأموي وخففت إلي حد ما من أعباء نفقات الجيش على الدولة ، حيث انضم إلي الجيش الأموي المتطوعون من عناصر غير عربية وعلى نفقتهم الخاصة وبمعداتهم ، وكانوا في كثير من الأحيان يساهمون في تكاليف الحرب .

❖ تسليح الجيش الأموي :

طرأت تطورات عديدة على تسليح الجيش في العصر الأموي وكذا على تشكيلاته ، وكان ذلك بسبب كثرة الاحتكاك بجيوش أخرى أثناء عمليات الفتح ، ويمكن متابعة جانب من هذا التطور فيما يلي :

- تطور أسلحة الجيش وتشكيلاته :

أدخلت أسلحة جديدة على الجيش الأموي كما تم تطوير أسلحة معروفة ، وشجع خلفاء بنى أمية على تصنيع السلاح وأقاموا لذلك مصانع خاصة ، وكان الجيش الأموي يطور أسلحته بسرعة بسبب احتكاكه المستمر بالجيش البيزنطي والجيوش الأخرى .

كان تشكيل الجيش الأموي على غرار الجيش الراشدي ينقسم إلي خمسة أقسام : المقدمة والقلب والجناحان والمؤخرة ، وبالنسبة إلي التشكيل القتالي فكان نظام الصفوف ، ويتألف من : المشاة ، والفرسان ، وفرق الخدمة ، والنقابين الذين يقومون بإحداث الثغرات في جدران معاقل وحصون الأعداء في حالة الهجوم على المدن المحصنة أو الثغور .

ويصحب الجيش جهاز كامل للخدمات الإدارية يتكون من مجموعة من الموظفين ، مثل الصراف والخازن والقاضي والمترجم وصاحب الخبر والدعاة . وهذا ما كان عليه الحال في عهد الخلافة الراشدة وكذا في جيش الرسول الكريم .

أدخل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ما عرف بنظام الكراديس ، والكُردوسة تشكيل عظيم وحشد هائل من الفرسان ينقض دفعة واحدة على الجيش المقابل ، وكان هذا النظام بمثابة تطوير جديد أدخله الأمويون على تشكيل الجيش وطريقتهم في القتال ، واستخدمها الخليفة مروان بن محمد الذي عُرف عنه أنه كان يقود الجيش بنفسه .

عرفت الدولة الأموية القوات النظامية المرابطة في المواقع الأمامية للدولة وعلى حدودها وفي الثغور والسواحل ، وعُرفت هذه التشكيلات والمواقع بالرُبُط ، وكانت هذه الحاميات تتكون من وحدات نظامية متحركة وخفيفة من الفرسان أو الخيالة تحرس الحدود والثغور والحصون وتتصدى للأعداء في حالة الهجوم المباغت لحين وصول الجيش أو المدد .

كذلك ابتدع معاوية بن أبي سفيان كتيبة لحراسة الخليفة ، وعلى شاكلته سار معظم خلفاء بنى أمية ، وكانت هذه الكتيبة تنتقي من ذوي الولاء القبلي والسياسي ، ولم تكن هذه الكتيبة تقوم بمهام أخرى غير هذه المهمة .

سبق وأوضحنا أن الجيش الأموي وانطلاقاً من الظروف التي نشأت فيها الدولة الأموية كان يقوم بدور مهم وأساسي في حفظ كيان الدولة وأمنها الداخلي في مواجهة المعارضين والخارجين عليها ، ولهذا الغرض أنشأ معاوية بن أبي سفيان مسالح في داخل المدن غير المستقرة كمسلحة واسط ومسلحة الحيرة وغيرها ، وكانت مهمة هذه المسالح حفظ الأمن وقمع الخارجين على الدولة ، وبرزت من تلك المسالح كذلك مسلحة الكوفة ومسلحة البصرة ومسلحة خراسان وهذه جميعها كانت معاقل العباسيين .

في العصر الأموي ظهرت مصطلحات عسكرية فيما يتعلق بتشكيل الجيش مثل الكتيبة ، وهي وحدة فرسان تتكون من ٢٠٠ فارس ، والحُقْب وهي وحدة فرسان صغيرة تتكون من ٣٠ فارساً ، والكُردوسة وهي وحدة عسكرية متكاملة استخدمها مروان بن محمد ، والسرية وهي وحدة هجوم ضخمة تتكون من ألف مقاتل في تشكيل قتالي خاص ، والقيقانية وهم رماة السهام ، والعيون وهي الوحدة الاستطلاعية ، ثم الرُبُط وهي القوات المرابطة على الحدود والثغور والسواحل والحصون ، والمسالح وهي حاميات توجد في المدن وتختص بحفظ الأمن الداخلي ضد الخارجين على الدولة .

أوضحنا سلفاً أن جيش الفتح في العصر الأموي هو الجيش الأساسي في الدولة ، والتي تتمثل مهامه في حمل الدعوة وتوصيلها إلي الشعوب المختلفة ، حيث يتولى الدعاة الذين يكونون بصحبة الجيش تبليغ الدعوة وتبصير الناس ، وبيَّنا كذلك أن المدن غير المستقرة سياسياً كانت توجد بها مسالح لحفظ الأمن وقمع الخارجين على الدولة ، وإلي هذا وذاك نضيف أنه كان لكل مدينة أو ولاية جيشها الذي يتولى مهمة الدفاع عنها ضد أية اعتداءات خارجية ، وكان جيش الولاية مكوناً من عناصر مختلفة عربية وغير عربية تحت إمرة قائد يعينه الخليفة أو الوالي .

- تطور أسلحة الأسطول :

إضافةً إلي التطور الذي لحق بالجيش البري وأسلحته تطور الأسطول الإسلامي في أسلحته وأساليبه القتالية ، فبالنسبة إلي أسلحة الأسطول اهتم الأمويون ببناء السفن من مختلف الأنواع والأحجام ، واهتموا كذلك بتطوير تسليح هذه السفن حتى أصبح الأسطول الإسلامي يفوق الأسطول البيزنطي وسيطر على البحر المتوسط والخليج العربي والمحيط الهندي .

❖ **تدريب الجيش :**

كان لمسألة التدريب اعتباراتها الخاصة في الجيش الأموي ، وتعامل ذلك الجيش مع هذه المسألة على النحو التالي :

- بالنسبة إلي جيش الفتح :

كما أسلفنا يقصد بجيش الفتح الجيش المكلّف بحمل الدعوة وتوصيلها إلي الشعوب والأقطار المختلفة ، وقد عهد ذلك الجيش التدريب في أسلوبين : الأسلوب الأول : البعثات المستمرة التي قادها الجيش الأموي كانت كفيلة بأن تجعله في حالة تدريب

وجاهزية على القتال بشكل مستديم ، الأسلوب الثاني ، أن جيش الفتح كان يتدرب على تنفيذ الاستراتيجية المعّدة مسبقاً للبعثة من حيث حركة الجيش ووسائل الهجوم والأهداف النهائية ، وكان ذلك يتم في المعسكرات التي يتخذها الجيش قبيل المناطق التي يقصدها .

- القوات والحاميات والمسالح المرابطة :

أما بالنسبة إلي القوات المرابطة في الثغور والحصون وعلى حدود الدولة ، وكذا الحاميات والمسالح في المدن والحواضر غير المستقرة ، فكانت تتدرب على أداء مهامها في مواقعها بشكل مستديم ، وقد كانت هذه القوات في حالة استعداد دائم لصد أي هجوم أو قمع أية حركات للخروج على الدولة ، إلا أنه في نهاية عهد الدولة الأموية بدأت هذه القوات تضعف أمام حركات المعارضة والثورات المتصاعدة . مما أفقدها السيطرة على الأوضاع الأمنية داخل المناطق التي تمركزت فيها المعارضة العباسية بالذات ، وإزاء ذلك كان من السهل على العباسيين تحقيق أهدافهم بالقضاء على الدولة الأموية وإقامة دولتهم .

- وضع الخطة العامة :

اعتاد الأمويون — كما كان حال الخلفاء الراشدين — مشاركة الخليفة قيادات وأمراء الجيش المبتعث للفتح ، وضع وصياغة الخطة العامة لاتجاهات الجيش بشكل عام ، أي المناطق والأقاليم التي ينبغي حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية إليها ، وكانت تصاغ هذه الخطة وفق معايير وأولويات معينة مثل : المناطق والأقاليم المجاورة لحدود الدولة وتمثل مصدراً للاعتداءات والتعديات الدائمة ، المناطق الكثيفة السكان والتي يُرى أن حمل الدعوة وتوصيلها إليها يعد كسباً للإسلام ، المناطق التي يُرى في فتحها تأمين لحدود الدولة من الناحية الاستراتيجية ، المناطق التي يضيف فتحها ميزات استراتيجية للدولة مثل الجزر والمناطق ذات السواحل أو المتحكمة في المضايق والمعابر .. الخ .

بعد تحديد اتجاه الجيش وتحديد المنطقة المقصودة بالفتح يتم تحديد وسائل وأدوات تحرك الجيش، ويشمل ذلك تجهيز الجيش عدة وعتاداً ، وتعيين قواد وأمراء الجيش أو البعثة ، ومهام كل قائد أو أمير ، وبداية التحرك ، والمعسكرات التي يستريح فيها الجيش ، والطرق التي يسلكها .

- قيادة الجيش :

لقد عُرف عن خلفاء بنى أمية أكثر من غيرهم أنهم كانوا يقودون البعثات والجيوش بأنفسهم، فقد قاد يزيد بن معاوية بعثة على القسطنطينية قبل أن يتولى الخلافة مباشرة ، وكان مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يقود الجيش بنفسه ، وقد حاصر مدينة موسكو وأوشك على فتحها لولا الثورة العباسية التي أنهت وجود الدولة الأموية .

إلا أنه في بقية الأحوال كان الخلفاء الأمويون يعهدون بقيادة الجيش إلي الثقاة من القادة الذين يتصفون بالشجاعة والإقدام والذكاء ، ولكنهم كانوا على اتصال دائم بالجيش ، ويتابعون أخباره وتطورات حركاته والمعارك التي يخوضها ، كما كانوا يرسلون بتوجيهاتهم ووصاياهم لقيادات الجيش كما كان الحال في عهد الخلافة الراشدة .

❖ الإمداد والتموين :

الإمداد والتموين من أهم المقومات والمرتكزات التي ترتكن عليها حركة الجيوش وتترتب عليها قدرتها على الغلبة وإحراز النصر وتحقيق الأهداف ، وتحتاج مسألة الإمداد والتموين في الجيش الأموي إلي معالجة خاصة ، نظراً لطبيعة ذلك الجيش ، وما أحرزه من انتصارات وفتوحات قادت إلي توسيع إقليم الدولة الإسلامية ، ونطرح تلك المعالجة فيما يلي :

- مهام الجيش الأموي وخصوصية حركته :

لقد واصل الجيش الأموي بقوة وإقدام ما بدأه الجيش في العصر الراشدي من فتوحات لحمل وتوصيل الدعوة الإسلامية ، ولم يتوان هذا الجيش في سبيل تحقيق هذه الغاية السامية ، ومن أجل ذلك فتح مناطق جديدة ووصل إلي أقاليم بعيدة ومترامية ، فاتسعت حدود الدولة وشسعت مساحتها ، ولم تكن هذه ميزة لحركة الجيش بل شكلت عبئاً استراتيجياً وتكتيكياً في ذات الوقت لابد من مواجهته بحزم ودقة ، حيث تحتاج الجيوش إلي عملية إمداد وتموين بشكل دائم ومستمر وسريع ، وكان ذلك أهم ما واجه الجيش الأموي في حركته وتحركاته ، وقد أثرت تلك المسألة على فعالية الجيش في مواضع عدة فأخرت من إنجازه لمهامه ، وربما أثنته عن إحرازه لمهامه .

- معسكرات الإمداد والتموين :

منذ العهد الراشدي والجيش الإسلامي يدرك أهمية مسألة الإمداد والتموين ، وانطلاقاً من ذلك الإدراك عمد الجيش إلي إقامة المعسكرات على الطرق الرئيسية التي تمر بها الجيوش أو الإمدادات ، وكانت مهمة هذه المعسكرات تتمثل في ضمان راحة الجيوش وتجهيزها بما تحتاج إليه من مستلزمات ، وكذا تجهيز الإمدادات والمؤن وإرسالها إلي الجيش في المواضع التي قرر أن يخوض فيها المعارك ، وقد تطورت معسكرات الإمداد والتموين على أيدي الأمويين بشكل ملموس ، ولكنها لم تف بالغرض نظراً للاتساع المستمر في إقليم الدولة ، حيث أنها لم تلاحق ذلك الاتساع الذي كان سريعاً ومتزايداً ، فأثر ذلك على حركة الجيش في بعض تحركاته .

- أدوات الجيش الأموي في الإمداد والتموين :

طوّر الأمويون مسألة النقل والإمداد العسكري بشكل جيد ، حيث أجادوا في نقل الجند وعوائلهم ومؤونتهم وآلات الحصار والحرب على ظهور الجمال ، وكذلك الإسعافات

الطبية وأعدوا الهوادج للمرضى والجرحى ، كما استخدموا كذلك البغال للنقل . وكانت هذه وسائط تجيد اختراق الطرق الصحراوية الوعرة ، أما الخيول فكانت للقتال .

رابعاً : الجيش الأموي والحضارة الإسلامية :

بالفعل كان الجيش الأموي – كما كان سابقا جيش الرسول الكريم وجيش الخلفاء الراشدين – أحد مقومات الحضارة الإسلامية ، وتحتاج هذه العلاقة إلي إيضاح نقوم به فيما يلي :

❖ حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية :

الدعوة الإسلامية هي مخ الحضارة الإسلامية . وسبق لنا أن أوضحنا تفصيلاً كيف قُدّر لجيش الرسول وجيش الخلفاء الراشدين أن يساهم في نشر الدعوة الإسلامية من خلال القيام بمهمتي الحمل والتوصيل ، وترك مهمة التبليغ على الدعاة الذين يكونون بصحبة الجيش أو يعقبون وصوله . وبنفس الدور قام الجيش الأموي ، فقد حمل الدعوة وسار بها إلي فجاج عميقة لم يكن يدور بخلد المسلمين أن يصلوا إليها . وأوصلها إلي أناس لم يكونوا يعلمون عن الدين شيئاً ، وهو في سبيل ذلك أزال عقبات كأداء تمثلت في الحكام والسادة والمتنفذين الذين أذلوا الشعوب وقهروها وفرضوا عليها عبادة ما يرتضون .

❖ إضافة عناصر جديدة إلي الدولة الإسلامية :

كذلك تمكن الجيش الأموي من أن يدخل في كنف الدولة الإسلامية عناصر جديدة من البشر بما تملكه من موروثات ثقافية وحضارية أمثال الترك والزنج والبربر وغيرهم ، وقد أضاف هؤلاء إلي الحضارة الإسلامية قدرة استيعابية على التفاعل والحوار والاحتواء في إطار أشمل أعم هو الإسلام بقيمه ومبادئه الإنسانية السامية .

لقد كانت تلك العناصر بمثابة قوة دفع وتحفيز لمزيد من الطموح والرغبة في نشر الدعوة ، وهذا يدل دلالة قاطعة على عظمة ورقي تلك الحضارة ، فهي لم تُدخِل تلك العناصر إلي بوتقتها لتكبح جماحها أو تقمع طموحها أو تستعبدها ، وإنما أطلقت لها عنان الإبداع والعطاء الفكري والروحي والحركي ، فظهر المفكرون والفقهاء والعلماء والقيادات العسكرية البارزة، هكذا كان الإسلام وهكذا كانت حضارته ، يُرقي النفس روحاً ومادة ، ويسمو بها إلي الذرى ، فتجود بأحسن ما عندها ، ومن ثم تزدهر الحضارة وتينع الثقافة .

❖ إقامة التنظيم :

ساهم الجيش الأموي بدور مهم وفعّال في تمهيد سبل الحياة المدنية في المناطق التي حمل إليها الدعوة ، ولعل التنظيم بكافة أنواعه السياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية .. الخ يعد أول تلك السبل — فكما سبق وأوضحنا — لم يصطدم الجيش الإسلامي بالتنظيمات التي كانت قائمة في تلك المناطق بشكل يسيء إلي أهلها ويسفه من أحلامهم ومنجزاتهم ، وإنما تعامل معها بتدرجية عمد من خلالها إلي إحلال التنظيم الإسلامي محل المحلي ، بل إن من التنظيمات المحلية ما تم الإبقاء على شكله وهيكله أما مضمونه ومسارات حركته وغاياته فكانت إسلامية ، وفي كل ما سبق من مراحل وعمليات إقامة التنظيم ، لم يتصرف الجيش الإسلامي إزاء ذلك بوصفه جيش ولكن بوصفه إدارة مدنية ، فالجيش قد انتهت أولى مهامه بتوصيل الدعوة وتسليمها إلي الدعاة ، وبقيت له مهمتان ، الأولى : الدفاع عن المناطق والأقاليم المفتوحة ، الثانية : إقامة التنظيم والتمهيد للحياة المدنية وفق الرؤية الإسلامية ، لحين نقل كل ذلك إلي الإدارة المدنية التي يشارك فيها بل يضطلع بها أبناء البلاد أنفسهم .

❖ إقامة المدن :

وضع الجيش الأموي أساس العديد من المدن في كافة أنحاء الدولة الإسلامية ، وكانت هذه المدن إما بمثابة معسكرات للجيش نفسه ثم تحولت إلي مدن ، أو بمثابة مدن عسكرية ثم تحولت إلي مدنية ، ومنذ الخلافة الراشدة والجيش الإسلامي يتولى هذه المهمة ويجيد فيها .

❖ الدفاع عن الدولة والحضارة الإسلامية :

إلي جانب ما تقدم تولى الجيش الأموي مهمة الدفاع عن الدولة الإسلامية وحضارتها ، وحافظ عليها في مواجهة التحديات التي أحاطت بها ، وبصفة خاصة مع عدو تقليدي عُرف بصلابته وقوته منذ نشأة الدولة الإسلامية وهو الدولة البيزنطية ، والتي اشتهرت بعدائها التقليدي للإسلام والمسلمين ، والتي جردها المسلمون من أهم مستعمرتها في شرق المتوسط وشمال أفريقيا ، بل وهددوا كيانها ذاته ونواة ذلك الكيان وهو العاصمة القسطنطينية .

المبحث الرابع

الجيش الإسلامي في العصر العباسي

بدأ الجيش العباسي قوياً تنظيماً وتسليحاً ، ولم يلبث في نهاية العصر العباسي الأول أن انتهى به الحال إلي جيش ضعيف متهالك ، حيث انتشرت الجيوش الإقليمية في أنحاء الأطراف ، وآل إلي جماعات من المتطوعين الذين لم يكن في مقدورهم حتى الدفاع عن الدولة المركزية ، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء دور الجيش كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية ، وظهور الجيوش الإقليمية التي تمثلت مهمتها في الدفاع عن الولايات والأمصار ، وكان ولاؤها لحكامها ، في هذه الجزئية نخلو إلي دراسة الجيش الإسلامي في العصر العباسي ، من خلال ما يلي :

أولاً : ظروف نشأة الجيش العباسي :

المتابع لتطور الجيش الإسلامي خلال الفترات الأربعة التي تبدأ من عهد النبوة الزاهر وتنتهي بالعصر العباسي ، يلحظ أن الجيش في كل فترة من هذه الفترات قد نشأ أو تأسس مرتبطاً بالدولة التي قامت في هذه الفترة ، ومعنى ذلك بعبارة أكثر دقة أنه لم يكن ثمة جيش ثابت ومستقر وتتغير عليه الدولة والأنظمة ، بل إن ما حدث أن كل دولة في كل فترة زمنية من الفترات المذكورة قد أسست جيشاً يصطبغ بصبغتها ويتماشى مع ظروفها ، ففي عهد النبوة الزاهر تأسس الجيش مع نشأة الدولة الإسلامية الأولى في دولة الرسول الكريم في المدينة المنورة، وكان جيشاً بسيطاً في تشكيله ، ولكنه عظيم في مقاصده ومهامه ، وفي فترة حكم الخلافة الراشدة تأسس الجيش الإسلامي ، أو ربما تطور ليحمل صفات خاصة ، تتسم بالقوة والحيوية والتطور السريع الذي يتواءم مع طبيعة المرحلة ، حيث كان هناك اهتمام بالغ بنشر الدعوة في كافة الاتجاهات والأرجاء ، أما في العصر الأموي

فقد تأسس الجيش الإسلامي متأثراً بظروف نشأة تلك الدولة ، واتسم بأهم خصائصها والتي تمثلت في العصبية القبلية ، ولكنه بالرغم من ذلك قدّم للدعوة الإسلامية والحضارة الإسلامية إنجازاً لم يشهده التاريخ الإسلامي . وفي العصر العباسي تأسس الجيش الإسلامي متوائماً مع ظروف الدولة العباسية ، التي نشأت كنتاج لثورة عقيدية مسلحة على الدولة الأموية . ويمكن متابعة ظروف نشأة الجيش العباسي من خلال ما يلي :

❖ تنظيم عسكري ثوري :

بدأ الجيش العباسي على هيئة تنظيم عسكري ثوري أسسه أبو العباس السفاح من أهل خراسان لمواجهة الدولة الأموية ، ومن ثم فقد كانت الفرقة الخراسانية من أهم الفرق وأقواها في الجيش العباسي . وقد انسحب ذلك على حركة الجيش العباسي فيما بعد ، حيث أجادت هذه الفرقة القوية الدفاع عن النظام العباسي والدولة العباسية في فترات الأزمات الحادة ضد جند الثوار في البصرة والموصل والشام وأفريقيا ، ومن ثم فقد احترف الجيش العباسي فيما بعد قمع الثورات ، وتأمين الأوضاع الداخلية ، أكثر من ارتياده الجهاد الخارجي ، وحمل الدعوة وتوصيلها ، وفتح مناطق جديدة ، كما فعل الجيش الأموي من قبل .

وبالرغم من أن الفرقة الخراسانية كانت نواة الجيش العباسي ، إلا أن العباسيين لم يأمنوا عواقب قوة هذه الفرقة في الانقلاب عليهم ، فاتبعوا من الأساليب ما كفل لهم اتقاء شرها ، وهذا ما سوف نبحثه في موضع متقدم من هذه الجزئية .

❖ جيش نظامي قوي :

بعد أن قُدّر للجيش الثوري العباسي المتمركز في الفرقة الخراسانية إنهاء وجود الدولة الأموية وفرض العباسيين على سدة الحكم ، ومن خلال المعارك العنيفة التي خاضها ضد

التمركزات والحاميات والمسالح الأموية في البصرة وواسط والكوفة وحتى في الشام ومصر ، اكتسبت تلك الفرقة التي أصبحت نواة الجيش العباسي خبرة ودربة في الفنون القتالية والأمور العسكرية لا تضاهى ، وكانت الفرقة الخراسانية قوام الجيش العباسي .

معنى ما تقدم أن الجيش العباسي قد تأسس قبل قيام الدولة . وهو في ذلك مثله مثل الجيش الأموي ، فالدولتان فُرضتا عن طريق الجيش ، فالجيش الأموي الذي أسسه معاوية بن أبي سفيان في سوريا . وكان قوامه القبائل الشامية الموالية لبني أمية . هو الذي فرض الدولة الأموية عندما ذهب على رأسه غازيا إلي الكوفة في عام الجماعة ، وقبل الحسن بن على التنازل له عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين وجباً للفتنة ، وبالمثل كان الجيش العباسي الذي قاده أبو العباس السفاح ، وكان قوامه أهل خراسان الذين تشيعوا لبنى العباس ، بالرغم من أنهم قد تحللوا من الارتباطات العصبية القبلية لإقامتهم في المجتمع الفارسي وتأثرهم بعاداته وتقاليده وموروثاته الحضارية والثقافية ، وظل هذا الجيش الثوري الخارج على الدولة الأموية يقاتل حتى تمكن من إسقاط الدولة الأموية وفرض دولة بنى العباس ، فالدولتان إذن صنيعة الجيوش والقوة . فالجيشان الأموي والعباسي تأسسا قبل الدولة وعندما قامت الدولة ضمنا وجودها وبقاءها ، وعندما وهنت تلك الجيوش كان ذلك إيذان بذهاب تلك الدولة وانتهاء أمرها . ومن ثم فإن الدور السياسي للجيش الأموي ونظيره العباسي كان دوراً فعالاً في وجود الدولتين واستمرارهما ، هذا على عكس وضع الجيش في دولة الخلفاء الراشدين ، حيث لم يكن للجيش دور سياسي إلا في أواخر هذه الدولة ومع ظهور الفتنة الكبرى . أما قبل ذلك فقد كان الجيش لا يتخطى دوره المحدد المتمثل في حمل وتوصيل الدعوة وحماية الدولة ، وذلك لأن الدولة ومن ثم النظام السياسي كانت كياناً طبيعياً تبلور وبرز إلي الوجود بنعل أدوات وآليات

متفق عليها ومقبولة من الجميع ، ولم تكن كياناً مفروضاً عن طريق الجيش والقوة، فرضته طائفة على أخرى .

وتنبئنا السوابق التاريخية أن الجيش إذا فرض الدولة وتسبب في وجودها كان من الصعب عليه أن ينسحب ويتركها ، لأنه صانعها وسبب وجودها ، وكان من المستحيل على تلك الدولة الاعتماد على ذاتها ، والتحرر من سيطرة الجيش ، لأنه الضامن الوحيد لوجودها ، والمتكفل بفرضها على الآخرين . فهي إذن دولة الجيش أو دولة العسكر . وإذا ذهب الجيش تحللت تلك الدولة ، ولم تفلح دولة أقامها الجيش وضمن وجودها . ولذلك كان تدخل الجيش في السياسة والحكم هو نهاية السياسة وبداية القوة والعنف ، ولا خير يُنتظر من دولة أساسها القوة وقوامها العنف .

وبعد أن تمكن التنظيم العسكري الثوري المسلح من فرض دولة بني العباس كان من المنطقي تصحيح الأوضاع وتعديل الأمور ، فبعد أن قامت دولة الجيش ، كان على الأخير أن يتحول إلي جيش الدولة ، وشرع خلفاء بنى العباس في إعادة تنظيم الجيش وترتيب أوضاعه من جديد ،وهذا ما سوف نتناوله في الجزئية الخاصة بتنظيم الجيش .

ثانياً : تنظيم الجيش العباسي :

الحديث عن تنظيم الجيش العباسي بعد قيام الدولة يستوجب تناول مجموعة من القضايا التي تتعلق بالجيش ، ويمكن القيام بذلك من خلال الآتي :

❖ الجيش والظاهرة الصراعية :

منذ نشأته والجيش العباسي يتقن فنون الصراع ويجيد إخضاع إرادة الآخر ، وعليه فعلاقة الجيش العباسي بالظاهرة الصراعية علاقة وطيدة . ويمكن إيضاح أبعاد تلك العلاقة من خلال ما يلي :

- إدارة الصراع العضوي :

لعل نشأة الجيش العباسي كان هدفها الأساسي إدارة الصراع العضوي مع المنافس الأول للعباسيين وهم بنو أمية ، وكان هدف ذلك الصراع سياسياً بالأساس يتعين في الوصول إلي الحكم . ومن هنا كان دور الجيش العباسي دوراً يتمثل في صناعة السياسة وفرض آليات معينة لانتقال الحكم ، وقد جمعت تلك الآليات بين المنطلقات الشرعية والقبلية . التي هدفت إلي تكتيل إرادات أبناء المجتمع الإسلامي وراء العباسيين في صراعهم الذي اعتبروه جهاداً مقدسا ضد باغ مغتصب اغتصب (سلب) حقهم الطبيعي في الحكم .

ومعلوم أن الصراع العضوي الذي عركه الجيش العباسي منذ وجوده كان صراعاً داخلياً . ولعل سبب ذلك واضح جلي ، أما نتائجه فقد تمثلت في إتقان ذلك الجيش لفنون الصراع الداخلي في الوقت الذي لم يبرع في إدارة الصراع الخارجي أو ما يعرف بالصراع الأممي ، ثم في الصراع المتعلق بحمل وتوصيل الدعوة الإسلامية . حيث توقف الصراع الخارجي بشكل شبه تام . ولم يبق إلا مجاهدة البيزنطيين . حيث كثرت اعتداءاتهم وتعدياتهم على الدولة الإسلامية .

- إخضاع إرادة الآخر :

لقد برز من خلال حركة الجيش العباسي منذ نشأته أنه يجيد الصراع الداخلي ، ويتعامل بشراسة مع أعدائه ، ويمضي في عزم وإصرار نحو إخضاع إرادة الآخر وإذعانه . ولم يكن الجيش العباسي الثوري ليكتفي بعمليات الإخضاع والإذعان ، بل كان يعمد في كثير من الأحيان إلي إنهاء وجود الآخر ، ولذلك دلالته . فالجيش العباسي كان يعتبر مجرد وجود الآخر يمثل خطراً محدقاً وعائقاً يعوق تحقيق أهدافه ومقاصده التي تبلورت في شكل قاطع وصارم في إزالة دولة الأمويين وإقامة دولة بني العباس .

وحتى بعد تحقيق الجيش العباسي لأهدافه وتمكنه من إقامة دولة العباسيين ، لم يتراجع عن موقفه الدائم المتمثل في استئصال شأفة أية معارضة لهذه الدولة ، وظل هكذا الجيش العباسي قوة سياسية يُعوّل عليها ولا يُستهان بها في الحياة السياسية في العصر العباسي الأول بالذات ، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً .

- الجيش العباسي والصراع الأممي النظامي :

على عكس ما قام به الجيش العباسي فيما يتعلق بالحياة السياسية والأوضاع الداخلية كان دوره على المستوى الخارجي هزيل ومحدود ، فعند مقارنة وضعية الجيش العباسي بنظيره الأموي فيما يتعلق بالصراع الأممي النظامي ، نجد أن الجيش الأموي كان أكثر قوة وصلابة وطموحاً فيما يتعلق بذلك الصراع ، في حين كان الجيش العباسي يكتفي بصد الاعتداءات والتعديات ، التي كانت الدولة الإسلامية هدفاً دائماً لها من قبل المنافس التقليدي وهو الدولة البيزنطية ، ولم يملك الجيش العباسي الجرأة في المبادرة بمهاجمة الدولة البيزنطية إلا مرات محدودة ، ويمكن إيعاز ذلك إما إلى انشغال ذلك الجيش في الأمور والشئون الداخلية حيث أنه كان يمثل إحدى القوى السياسية ، أو إلى عدم إتقانه لفنون الصراع الأممي النظامي ! .

- إقرار الأمن الداخلي :

منذ نشأته والجيش العباسي شغله الشاغل هو الأمن الداخلي ، الذي يكفل إخضاع الجميع لسيطرة الخلفاء العباسيين ، وقد أفلح الجيش في هذه المهمة بشكل جيد ، ولكن الأوضاع في نهاية العصر العباسي الأول قد آلت إلى ضدها ، فلقد وهن جيش الخلافة العباسية ، وباتت جيوش الأقاليم والأمصار أقوى من ذلك الجيش بكثير ، وكان سبب ذلك المباشر أن الدولة المركزية لم تكن لتجد ما تنفقه على الجيش ، فاقتصر على

المتطوعين ، في حين كانت الأقاليم والأمصار يجزل أمراؤها في عطاياهم لأفراد الجيش ، فاستحوذت على أقوى الجيوش وأكثرها عدداً وعتاداً ، فكان من السهل على تلك الولايات أن تستقل فعلياً عن المركز وإن ظلت رسمياً وشكلياً على ذمته .

وهكذا تحول الجيش من أداة استقرار وأمن إلي عامل تقويض وهدم ، عندما تخلى عن المركز وتحول إلي الولايات ، يقدم لها إغراءً قوياً للانفصال والاعتماد على الذات .

– الدور السياسي للجيش :

منذ العصر الأموي شرعت الجيوش تلعب دوراً سياسياً ، وتشكل قوة سياسية يعوّل عليها في الحياة السياسية في المجتمع الإسلامي ، لقد كان وجود الجيشين الأموي والعباسي كرمزين للقوة في الحياة السياسية ، يعني أن لغة السياسة والحكم في المجتمع الإسلامي أصبحت هي القوة التي حلّت محل لغة التفاهم والحوار بين مفردات وفعاليات النظام السياسي أو المنهاج الإسلامي .

إن الجيش هو الذي فرض الدولتين الأموية والعباسية ، وهو الذي حافظ على وجودهما وكفل بقاءهما ، وهو نفسه الذي أدى إلي انهيارهما وزوالهما ، وهذا يبين كم كان الجيش قوة سياسية مؤثرة وفعالة في وجود الدولتين الأموية والعباسية .

إن الحديث عن أصول السياسة والحكم وفق الطرح الإسلامي المستقى من الشريعة الإسلامية ونماذج الممارسة العملية في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين ، يختلف بطبيعة الحال عن نظيره وفق النموذج الذي ساد في الدولتين الأموية والعباسية ، فالأول طرح أصولي يمثل النموذج والمثال الذي سيظل أبداً نبعاً فياضاً لا يعتريه النقص أو يلحقه التغيير من بين يديه ولا من خلفه ، أما الثاني فهو الخروج والانحراف عن الأصل والأساس ، لقد خرج الأمويون ومعهم العباسيون عن الكثير من أصول وأسس السياسة

والحكم في الإسلام . لقد احلّوا القوة والعنف محل الحوار والتفاهم والقبول والتراضي بين أبناء الأمة ، لقد فرضوا منطق العصبية القبلية ليحل محل منطق الإجماع والجماعة وهو التسليم بكتاب الله والاحتكام لشرعه . لقد نكصوا عن قيم اختيار وقبول الجماعة الإسلامية للحاكم وقيم البيعة وقيم الشورى وقيم العدالة والمساواة والإخاء . لقد جرّدوا من يتحلى بأهم قيمة سياسية إسلامية وهي قيمة نصح وتوجيه الحاكم ، لقد استبدلوا كل ذلك بمنطق القوة رمز القمع والجبر والإلزام .

لقد أعطى الأمويون والعباسيون للحضارة الإسلامية وأثروا الثقافة كذلك . ولكنهم حادوا عن قيم الإسلام في السياسة والحكم . لقد عرفت الأمة الإسلامية التي تشكلت في وحدة سياسية نظامية عُرفت بالدولة الإسلامية خلال هذين العصرين التفرق والتحزب والتشرذم، ونسيت الإجماع والجماعة . كما ألفت التكتل وراء العصبية والقبلية ، وكان ذلك مقدمة للتكتل وراء العنصر والأصل .

إن الأمويين والعباسيين أخذوا من الحضارة الإسلامية أكثر مما أعطوها ، أخذوا منها أهم خصيّاتها وأسرارها . أخذوا منها بل جرّدوها من بساطتها ، من سلامها ووئامها الدائم مع نفسها . وأحلوا محل ذلك التعقيد والمبالغة في التعظيم والتبجيل للحاكم وولاة الأمور والتفرقة بين أبناء المجتمع الإسلامي على أساس العصب والقبيلة ثم العنصر والأصل .

- الجيش العباسي وحمل وتوصيل الدعوة الإسلامية

لم يصب الجيش العباسي حظاً وافراً مثلما أصاب الجيش الأموي فيما يتعلق بحمل وتوصيل الدعوة الإسلامية إلي مختلف الأنحاء ، فالدولة الإسلامية ومعها الدعوة لم تزد في عصر العباسيين عما وصلت إليه في زمن الأمويين ، وهذه المسألة جديرة بأن تستوقف المتابع لدور الجيش في الحضارة الإسلامية كمقوم من مقوماتها ، هذا على الرغم من أن

الجيش العباسي منذ نشأته — كما سبق الإيضاح — لم يكن أقل قوة وتنظيماً من الجيش الأموي ، بل ربما كان أشد قوة وأكثر جمعاً ، ويمكن الدفع بجملة من الطروحات لعلها تحمل تفسيراً لهذه المسألة ، في نهج مقارن بيانه كالتالي :

• لقد رغب الخلفاء الأمويون في مواصلة حمل الدعوة وتوصيلها ونشرها استكمالاً لعهد الخلافة الراشدة ، حيث رأوا في هذا المسلك أداة مهمة ووسيلة مناسبة لجمع المسلمين حولهم، وتأييد المهاجرين والأنصار وما بقى من صحابة رسول الله ، وكان هؤلاء يمثلون رأي الأمة ، في حين بدا العباسيون زاهدين في نشر الدعوة وتوسيع حدود الدولة الإسلامية ، حيث اقتنعوا بأنهم ليسوا في حاجة إلي استخدام نشر الدعوة كوسيلة لاستقطاب تأييد خاصة الأمة وعامتها، فقد اعتمدوا في خلافتهم الوراثية على قرابتهم من الرسول ، وأدخلوا في روع أبناء الأمة إن الله سبحانه وتعالى فرض عليهم خلافة أقرباء الرسول من بعده ، وعليه فقد حسبوا خلافة الأمويين ابتزازاً وظلماً ، وأن الله قد رد الحق لأهله وآل بيته الذين فُرضت طاعتهم ، ومؤدى ذلك أن الخليفة العباسي يحكم بتفويض من الله فهو مصدر كل السلطات ، وروج العباسيون لذلك بين الناس حيث ادعوا أنهم فوق مستوى البشر ، وبالغوا في تقديس أنفسهم بدعوى أن الخلافة ستبقى في أيديهم إلي الأبد ، ومن ثم فمسألة الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية لم تكن لتضيف إليهم وهم على هذا القدر من المهابة والجلال .

• في فترة الحكم الأموي كان الجهاد من أجل نشر الدعوة الإسلامية لا يزال يتسم في نفوس المسلمين بالنشاط والحيوية والعزيمة القوية ، وكان الجيش الأموي الوسيلة الوحيدة لإخراج ذلك الحماس والحمية ، وبصفة خاصة أن العصر الأموي شهد وجود عدد كبير من المهاجرين والأنصار وصحابة الرسول الكريم والتابعين ، وكل هؤلاء كانوا بمثابة رموز للجهاد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية ، أما في العصر العباسي فقد بعدت الشقة وفتر

حماس المسلمين ، واهتموا بشئون الصراعات الداخلية وانكفئوا على مشاكلهم ، وتواضعت طموحاتهم . واكتفوا بما تحقق من انتشار للدعوة وامتداد لحدود الدولة .

. لقد كانت الأمم والشعوب المحيطة بالدولة الإسلامية في العصر الأموي مهيأة لقبول الدعوة الإسلامية ، أما في العصر العباسي فقد تغير الحال فلم تكن تلك الشعوب والأمم المجاورة على استعداد لقبول الدعوة الإسلامية ، ومعنى ذلك أن الأمويين قد وصلوا إلي آخر ما يمكن أن تصل إليه حدود الدولة والدعوة الإسلامية .

. يمكن القول بأن عصر الأمويين هو عصر تمدد الدولة الإسلامية وانتشار حضارتها عن طريق نشر الدعوة ، وأن عصر العباسيين هو عصر توقف المد الإسلامي . وربما إنحسار في العصر العباسي الثاني

. في العصر الأموي كانت الدولة الإسلامية أشد قوة من جيرانها ، ومن ثم قوى طموح الأمويين في نشر الإسلام وحمل الدعوة إلي أهل الجوار ، أما في العصر العباسي فكانت الدولة الإسلامية أقل قوة ومنعة وبدا جيرانها أقوى وأشد . ومن ثم تبددت الآمال في نشر الدعوة . وكان ذلك مثلاً هو حال الدولة البيزنطية التي هددها الأمويون وحاصروا عاصمتها . في حين كانت تمثل خطراً شديدا على الدولة الإسلامية في العصر العباسي ، وكذلك كان الخطر الصليبي فيما بعد ، حيث هدد كيان الدولة العباسية واقتطع أجزاء منها . ولم تتمكن الدولة من استرداد تلك الأجزاء إلا عن طريق ولاة أقوياء .

. كان الجيش الأموي تواقاً إلي الفتح وحمل الدعوة وتوصيلها إلي مناطق بعيدة . فقد تحلى الجيش الأموي بروح المغامرة والشجاعة والإقدام . أما الجيش العباسي فقد اكتفى بالدفاع عن الحدود القائمة التي تركها الأمويون . ولقد فقد العباسيون الأسطول تماما ولم يهتموا به ، وفقدوا مع ذلك سيطرتهم على البحر المتوسط بشكل نهائي حيث بدت القوة

البيزنطية هي المسيطرة على هذا البحر والسواحل المطلة عليه ، كذلك عندما جاء الصليبيون إلي الشرق الإسلامي بأساطيلهم القوية لم يكن لدى العباسيين أية مقدرة لمجابهتهم ، حتى صلاح الدين الأيوبي لم تكن له طاقة بمواجهة قوة الصليبيين البحرية ، فاستعان بأسطول أمير الموحدين يعقوب المنصور فبعث إليه بمائة وثمانين سفينة حربية في عام ٥٨٦ هـ لمنع الصليبيين من مهاجمة سواحل الشام .

. في العصر العباسي بدأت الدعوة الإسلامية تنتشر بالعلاقات والتبادل التجاري ، حيث أهتم العباسيون بالأسطول التجاري في الخليج العربي والمحيط الهندي ، واستقرت الأوضاع في هذه المناطق ، واتجهت الدعوة نحو الهند والصين وأندونيسيا من خلال التجار والدعاة .

❖ العصبية القبلية في الجيش العباسي :

لم يتمكن الجيش العباسي ولا الدولة أن تنأى بنفسها عن العصبية القبلية ، فالدولة العباسية مثلها مثل الدولة الأموية قامت منذ تأسيسها على الدعوة العصبية والنعرة القبلية . التي تعنى التشيع لبنى العباس تحت دعوى القرابة من الرسول الكريم — كما سبق الإيضاح — ولم تنتسب الدولة إلي الإسلام كدين وعقيدة وإلي منهاجه كنظام ، بل انتسبت إلي أصول وعصبيات وقبائل تستند إلي مدى قربها أو بعدها من الرسول الكريم وآل بيته .

إن المحلل لتاريخ الدولة العباسية يمكنه أن يكتشف بسهولة أن العصبية القبلية كانت ضرورة حتمتها ظروف نشأة الدولة والجيش . فالجيش — كما سبق الإيضاح — كان بمثابة تنظيم ثوري مسلح شق عصا الطاعة وخرج على الدولة الأموية ، وهذا التنظيم العسكري أسسه بنو العباس . وكان هدفه الأساسي الوصول إلي الحكم ، وكان ذلك هو

التعصب عينه لبنى العباس تحت دعوى قرابتهم من الرسول الكريم التي استندوا إليها في مطالبتهم بالحكم ، الذي اعتقدوا أنه مسلوب منهم وأنهم الأحق به دون غيرهم .

وهذه النشأة للجيش أولاً ثم للدولة العباسية التي أقامها الجيش بطبيعتها وظروفها التاريخية والاجتماعية والسياسية ، لتؤشر إلي سيادة النزعة القبلية العصبية في الكيانين معاً . بالرغم مما حاول بنو العباس إضفاءه عليهما من مسحة دينية شرعية تستند إلي تأويلات وتخريجات من الصعوبة قبولها لدى أهل المرجعية الإسلامية الأصولية .

إن مجرد اسم الدولة العباسية نفسه يؤكد وجود العصبية القبلية والتشيع لبنى العباس كما تشيع الأمويون لبنى أمية ، فنسب الدولة إلي العباسيين يعني التعصب إلي أشخاص وقبائل وعصبيات. وبمقارنة ذلك بالدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين لا يمكننا نسب الدولة إلي خليفة من الخلفاء ، ولكنها كانت الدولة الإسلامية وتمييزاً للحقبة التاريخية تُطلق " في عهد الخلفاء الراشدين " ، وذلك أن الخليفة الراشد كان يمثل عموم الأمة . ولم يكن يرتكن إلي عصبية أو قبيلة معينة ، فقد اختاره المسلمون ليمثلهم جميعاً ، أما العباسيون ومن قبلهم الأمويون فكانوا يحكمون بعصبيتهم وبانتماءاتهم القبلية ، بل كانوا يعتقدون أن هذه الانتماءات هي سبب وجودهم في الحكم وهي التي أهلتهم له .

إن الدولتين الأموية والعباسية كانتا بمثابة تكتلات عصبية وقبلية متعارضة ومتصارعة من أجل الحكم ، كل منهما بذل قصارى جهده فكرياً وحركياً من أجل الانتصار لعصبيته وقبيلته ، وكل منهما حشد خلفه تكتلاً من القبائل والعصبيات التي تدفع به إلي سُدة الحكم ليحقق مآربها وطموحاتها ، وكل منهما استخدم الدين أداة ووسيلة للوصول إلي الحكم واثبات أحقيته به .

لقد كان أهل خراسان هم قوام الجيش العباسي الذي نشأ كتنظيم عسكري ثوري قبل قيام الدولة ، وبالرغم من أن أهل خراسان من العرب القاطنين في خراسان لفترة طويلة ، وقد تكلموا الفارسية وتزوجوا من نساء فارس ولبسوا الأزياء الفارسية وتكيفوا مع البيئة الفارسية بتقاليدها وعاداتها وموروثاتها الثقافية والحضارية . إلا أنهم كانوا يعتزون بتقاليدهم العربية الإسلامية . ومروا بعملية تعريب جديدة خاصة وأن الخلفاء العباسيين الأوائل كانوا يشجعون الثقافة العربية والروح العربية . مما جعل أهل خراسان يعاودهم الحنين مرة أخرى إلي عصبيتهم ويزيد من تكتلهم خلف العباسيين ، ثم تبدو العصبية مرة أخرى في الجيش العباسي . فعلى الرغم من ثقة الخلفاء العباسيين بالفرقة الخراسانية فقد أسسوا فرقاً أخرى تقوم على أسس قبلية للموازنة وتحسباً لاحتمالات التمرد أو الثورة . وكانت هذه الفرق الأخرى هي العربية من ربيعة ومضر واليمن ، فقد بانت أهمية العرب للعباسيين منذ وقت مبكر وزادت أثناء الحروب التي خاضها الجيش العباسي ضد الجيش الشامي ، فخلال تقدم العباسيين في العراق ساعدت عناصر قبلية مختلفة الجيش الخراساني ، ثم إن سقوط الكوفة وواسط والموصل والبصرة ودمشق كانت نتيجة لمساعدة شيوخ القبائل الذين انضموا إلي العباسيين الذين أدركوا مدى التأثير البالغ الذي يمارسه شيوخ القبائل على قبائلهم ، ولذلك عاملوهم معاملة طيبة ومحترمة بما يتناسب مع عدد أفراد القبيلة ! .

إن الفارق الوحيد بين العصبية القبلية لدى الأمويين والعباسيين يكمن في أن الأمويين استسلموا لذلك التقليد واعتبروه أحد أسس حكمهم وكذا جيشهم ، أما العباسيون فقد حاولوا التخفيف منه قدر المستطاع ، ليس رغبة في التخلي عنه ، ولكن خوفاً على حكمهم. واعتباراً بما آل إليه حال الأمويين واتبعوا لذلك ما يلي :

- تطور الجيش العباسي مستفيداً من أخطاء العصر الأموي . فكان ديوان الجند يعتمد في تسجيل المقاتلين على أساس قرادم ومدنهم وأقاليمهم التي عاشوا فيها بخراسان . وليس على أساس قبائلهم وأنسابهم وبذلك تخلص الجيش نسبياً من العصبية القبلية .

- حاول الخلفاء العباسيون تنمية شعور الولاء والإخلاص للدولة وليس للقبيلة لدى المقاتلين . ومن ثم اضطر بعض الخلفاء إلي ضرب التكتلات القبلية ببعضها . كما فعل المنصور في ضرب الحلف بين ربيعة واليمنيين .

❖ الاستنفار :

اختلف الاستنفار في العهدين الأموي والعباسي عن الاستنفار في جيش الرسول الكريم والخلفاء الراشدين . ويرجع ذلك إلي طبيعة تكوين الجيوش في كل عهد من هذه العهود، وطبيعة وجود وتكوين الدولة . ومن ثم العلاقة بين الكيانين الدولة والجيش . ويمكن إيضاح ذلك من خلال ما يلي :

- أيهما أسبق إلي الوجود الجيش أم الدولة ؟ :

ليس من المستغرب الحديث عن جيش يسبق وجوده وجود الدولة . فالجيش في هذه الحالة قد تأسس بشكل غير شرعي وغير مشروع . حيث يعد وجوده خروجاً على شرعية الدولة القائمة . وقد تكون حقيقة هذا الجيش عبارة عن تنظيم عسكري يتبع شخصاً بذاته من منطلقات عصبية قبلية ويهدف هذا الجيش إلي :

• إقرار أمر واقع لصالح الشخص أو العصبية التي يشايعها ذلك الجيش . وربما فرض واقع جديد في ظروف تاريخية معينة . مثلما حدث بخصوص جيش معاوية ابن أبي سفيان الذي هو أساس الجيش الأموي . حيث ذهب معاوية على رأسه غازياً للعراق التي

ناصرت الحسن بن على ، وتمكن الجيش الأموي بقيادة معاوية مؤسس دولة بنى أمية من إقرار الأمر الواقع وقيام دولة الأمويين .

ـ محاولة تقويض الوضع القائم والدولة الكائنة وخلق واقع جديد وفرضه ، مثلما حدث بخصوص الجيش العباسي الذي قاده أبو مسلم الخراساني وأبو العباس السفاح ، وتمكن من تقويض الوضع القائم والقضاء على الدولة الأموية وفرض واقع جديد هو الدولة العباسية .

وفي كلتا الحالتين سبق وجود الجيش قيام الدولة ، ومعنى ذلك أن تأسيس الجيش واستنفار وتجميع أفراده قد تم بآليات وأساليب مختلفة تحكمت فيها الدعوة العصبية القبلية إلي جانب الدفع بدعاوى وأسانيد معتقدية شرعية لإقناع الأفراد بالانضمام إلي التنظيم العسكري والتحمس لأهدافه .

وإذا انتقلنا إلي الجيش في عهد النبوة الزاهر نجد أنه تأسس — كما سبق الإيضاح — بعد قيام دولة المدينة ، وتحددت أهدافه في الدفاع عن الدولة الناشئة وحمل وتوصيل الدعوة في نطاق القبائل والأحياء العربية ، وهي المجال الحيوي في ذلك الوقت لتلك الدولة ، ثم أخذ ذلك المجال في الاتساع مع الوقت ، ولم يلبث ذلك الجيش أن تطور عدداً وتنظيماً بتطور الدولة واتساع رقعتها وزيادة وتنوع مهامه .

أما الجيش في العهد الراشدي فكان بمثابة تطوير لجيش النبوة الزاهر الذي وُجد حال حياة الرسول الكريم وقبل أن يأتيه اليقين ، ويفيد ما تقدم أن الجيش في الحالتين الأخيرتين قد جاء تالياً لوجود الدولة ، وأن عملية الاستنفار كانت تتم بطرق شرعية من خلال فكرة الأمة المجاددة — التي سبق إيضاحها — وعلى أسس معتقدية خالصة .

- آلية الاستنفار :

على أساس طبيعة وجود الدولة وظروف نشأتها وعلاقتها بالجيش جاءت آلية الاستنفار ، فالأخيرة كانت دوماً تعكس مدى ولاء أبناء الأمة للدولة ولأهدافها ومقاصدها ، التي يعتبر الجيش من أهم أدوات تحقيقها :

• ففي عهد النبوة الزاهر والخلافة الراشدة كانت الدعوة إلي الجهاد وفكرة الأمة المجاهدة كفيلة بأن تستنفر أبناء الأمة وتخرجهم للجهاد بكافة نماذجه وأشكاله وخصوصاً الصراع العقدي .

• في العهد الأموي بدأ تأسيس الجيش الذي سبق قيام الدولة عن طريق استثارة النعرات العصبية القبلية ، التي جمعت القبائل الشامية حول معاوية بن أبي سفيان ، الذي تمكن عن طريق ذلك الجيش من فرض الدولة الأموية كواقع أقره الجميع . وبعد ذلك ظلت العصبية القبلية تلعب دوراً فعالاً في تطوير الجيش الأموي . ثم أدخل عليها التجنيد الإجباري الذي ابتدعه الحجاج الثقفي . ووجدت إلي جانب ما تقدم الدعوة إلي الجهاد في الأمصار والولايات وبصفة خاصة لجيش الفتح ، وأدت هذه الدعوة دورها في كثير من الأحيان ، وأخيرا كانت هناك ظاهرة التنادد . حيث تطوع المسلمون من كافة العناصر للجهاد بأموالهم وأنفسهم .

• وفي العهد العباسي تأسس التنظيم العسكري الثوري في خراسان بفعل استثارة النعرات العصبية القبلية كذلك ، ولكنها اختلطت وغُلّفت بشكل جيد بأغلفة ذات طبيعة شرعية عقيدية . تجد منطلقاتها في التشيع لقرابة الرسول وآل بيته ، وتنتهي إلي أحقية العباسيين في استرداد الحكم الذي سُلب منهم . وبعد ذلك وعندما قامت الدولة العباسية كانت العصبية القبلية لا تزال تلعب دورها في استنفار المشايعين والأنصار للانخراط في

الجيش العباسي إلي جانب التجنيد الإجباري ، وكان بعض الخلفاء من وقت لآخر يطلقون الدعوة للجهاد كأداة للاستنفار

- البعد التنظيمي :

عملية تقسيم الجيش وتوزيعه وتحديد مهامه تعد عملية تنظيمية تدخل في إطار الخطة العامة أو ما يعرف بالاستراتيجية ، وقد مر الجيش الإسلامي منذ دولة الرسول الكريم وحتى الدولة العباسية بأكثر من مرحلة في تنظيمه وتوزيعه وتحديد مهامه ، ويمكن تناول تلك المراحل في نهج مقارن على النحو التالي :

، في دولة الرسول الكريم ودولة الخلفاء الراشدين كان ثمة جيش واحد مهمته الأساسية تتمثل في حمل وتوصيل الدعوة — كما سبق الإيضاح - . إلا أنه في بداية خلافة أبي بكر الصديق برزت مهمة الجيش في إقرار الأمن الداخلي وسيطرة المركز على كافة الأقاليم والأمصار من خلال حروب الردة ، وبالرغم من بروز هذه المهمة للجيش واعتبارها ضمن مراتب الجهاد أو نماذجه وأشكاله ، إلا أنه لم يُحدد للقيام بها جيش خاص ، ولكنها اعتبرت ضمن مهام الجيش يتولى القيام بها عندما تطل الفتنة برأسها .

وكان تسجيل الجند في ديوان الجند الذي استنه الخليفة الراشد الثاني يتم في البداية بناءً على معايير سبق الحديث عنها ، ثم عُدل عنها إلي معايير أخرى مواءمة لتطور المجتمع والحياة ، وفي عهد الخليفة الراشد الثالث تم الاحتكام إلي معايير يغلب عليها طابع التفرقة من منطلقات عصبية قبلية عَدل عنها الخليفة الراشد الرابع كرّم الله وجهه إلي معايير تنحو نحو المساواة والموضوعية . وهذه المعايير تحدد مراتب الجند والعطاء المحدد لهم ولأسرهم .

• في الدولة الأموية برزت ظاهرة تنظيمية جديدة وهي تقسيم الجيش إلي تقسيمات ذات طبيعة تخصصية . فكان هناك جيش الجهاد أو جيش الفتح . وهو الجيش الرئيسي الموكل إليه مهمة حمل الدعوة وتوصيلها إلي النواحي والأرجاء . وكان هناك الجيش المكلف بحفظ الأمن وضمان هيبة الدولة والولاء لها وبالذات في المدن غير المستقرة . ثم كان هناك الجيش المرابط على حدود الدولة وفي الحصون والثغور والسواحل لصد هجمات الأعداء وحماية الدولة من الاعتداء الخارجي . وكانت هناك جيوش الولايات والأقاليم التي تتحدد مهامها حسب ظروف كل ولاية .

وكان تسجيل الجند في الجيش الأموي يتم بناءً على معايير عصبية قبلية في بداية نشأة الدولة . إلا أن ذلك النهج خفت حدته وقارب على الانتهاء والتلاشي عندما دخلت إلي الجيش الأموي وبالذات جيش الفتح عناصر عديدة ومتنوعة .

• في الدولة العباسية اختلفت الأوضاع بشكل واضح . فجيش الفتح الذي بدا قوياً ودائم الحركة في كافة الاتجاهات في العصر الأموي بدا في العصر العباسي محدود الحركة واقتصر دوره على مجاهدة الدولة البيزنطية وصد اعتداءاتها المتكررة . ولم يبادر إلي فتح مناطق جديدة وحمل وتوصيل الدعوة مثل نظيريه في الخلافة الراشدة والدولة الأموية . كذلك كانت هناك جيوش للدفاع عن حدود الدولة وثغورها . وكانت هناك جيوش لحفظ الأمن الداخلي وضمان هيبة الدولة . وهذه الأخيرة اختلطت بالجيش الأول إلي درجة يصعب معها فصل أحدهما عن الآخر . وكانت هناك أخيراً جيوش الولايات التي كانت نواة لجيوش مستقلة عندما انفصلت تلك الولايات عن الدولة العباسية في أواخر العصر العباسي الأول .

وكان تنظيم الجند في الجيش العباسي يتم بناء على معايير خاصة بالوطن . وإن كانت المعايير المتعلقة بالعصبية القبلية لم تهمل بشكل مطلق . وبصفة خاصة فيما يرتبط بالعنصر

العربي الذي دخل الجيش بشكل قوي بعد قيام الدولة مباشرة لموازنة نفوذ الفرقة الخراسانية وخوفاً من انفرادها بالأمور .

-- البعد العقيدي

كان البعد العقيدي دوماً يملأ فراغاً كبيراً في تعبئة أفراد الجيش الإسلامي على مر التاريخ ، ولكن كان يختلف في طبيعته وقوته من فترة إلي أخرى . وتفصيل ذلك كالآتي :

- في زمن الرسول الكريم كان البعد العقيدي أقوى وأشد في عملية استنفار الناس للجهاد وإقدامهم على القتال . وأسباب ذلك عديدة منها ما يرجع إلي وجود الرسول الكريم بين ظهراني المسلمين ، وقوة الإيمان والعقيدة . ورغبة المسلمين الصادقة في نشر الدعوة ، وولائهم المطلق للدولة الإسلامية كتعبير نظامي عن الإسلام .

- وفي زمن الخلفاء الراشدين كان البعد العقيدي على نفس وتيرته في زمن الرسول الكريم من القوة والشدة في شحن وتعبئة المقاتلين المسلمين ، وكان لذلك أهميته البالغة في دفع حركة الفتوحات ونشر الدعوة .

- وفيما يتعلق بالبعد العقيدي في استنفار وتهيئة الجيش الإسلامي في العصر الأموي ، يمكن القول أن ذلك البعد قد اتسم في بداية الدولة ببعض الفتور ، نظراً لكثرة المعارضين للدولة الأموية والتشكيك في شرعية نشأتها ووجودها . وفي صدقية مسعاها نحو الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية ، إلا أن ذلك الفتور لم يلبث أن اختفى وحل محله عزيمة ومضاء نتيجة دخول عناصر جديدة إلي الإسلام ، كانت بمثابة قوة دفع للجيش الأموي حركته بعنف نحو الجهاد ونشر الدعوة . وهذا يفسر اندفاع الجيش الأموي في سبيل حمل الدعوة وتوصيلها إلي أماكن ومواقع قاصية .

. أما في العصر العباسي فلم يكن البعد العقيدي على نفس قوته وشدته التي كان عليها في الجيش الإسلامي في العصور الثلاثة المذكورة . حيث أن الجهاد في العصر العباسي لم يكن يتجاوز مجاهدة البيزنطيين ثم الصليبيين في مرحلة تالية ، وإن كان جهاد الصليبيين قد وقع على كاهل ولايتي الشام ومصر

- البعد النفسي :

يرتبط البعد النفسي بالبعد العقيدي ارتباطاً وثيقاً . فالولاء للعقيدة والتفاني من أجل ترقيتها وإعلاء شأنها وحملها وتوصيلها إلي العالمين يخلق استعداداً وتهيئاً نفسياً لتحمل التبعات وتجشم كافة الصعاب من أجل تحقيق تلك المقاصد والغايات . وإذا كانت الدولة كتعبير نظامي عن كيان الجماعة وعقيدتها . وإذا كان الجيش كأداة من أدوات تحقيق تلك الأهداف بشكل شرعي ورسمي . إذا كان الاثنان بعكسان إجماع الجماعة ورغبتها في تحقيق أهدافها المذكورة. وضح الارتباط بين البعد العقيدي والبعد النفسي للمقاتل بجلاء وأقدم على الصراع العضوي في حماس ودون وجل . وهذا ما تابعناه في خصوص تحليل البعد النفسي في الجيش الإسلامي في دولة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين . أما إذا كان ثمة خلاف وعدم قبول أو رضا عن الدولة ومن ثم الجيش من فرق وجماعات داخل المجتمع ، فإن ذلك يعني تشكك هؤلاء في صدقية قيام الدولة والجيش بتحقيق المقاصد والأهداف سابقة التبيان فيما يتعلق بالعقيدة. وبالتالي تنتشر حالات الإعراض والعزوف عن الجهاد ، وهذا ما حدث في حالة الدولتين الأموية والعباسية ، مما أضطر الأولى إلي فرض التجنيد الإجباري ، وقلّص من رغبة وطموح جيش الثانية فيما يتعلق بحمل وتوصيل الدعوة . وتوقف حركة الفتوحات

❖ الأسطول في العصر العباسي :

نتعامل مع الأسطول في الدولتين الأموية والعباسية بوصفه أداة من أدوات الاستنفار في الجيش، وسبق لنا أن تابعنا نشأة الأسطول الإسلامي في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان وبمتابعة ورعاية معاوية بن أبي سفيان ، ثم واصلنا المتابعة لتطور الأسطول الإسلامي في العصر الأموي ، حيث وصل إلي أوج قوته وسيطرته على البحار والمحيطات التي تطل عليها الدولة الإسلامية . وفي هذه الجزئية نواصل المتابعة لنقف على تطور وضعية الأسطول الإسلامي في العصر العباسي ، وذلك من خلال ما يلي :

- إهمال الأسطول في العصر العباسي :

منذ بداية الدولة العباسية لم يلق الأسطول الاهتمام الكافي ، فتراجع في قوته وتنظيمه وتسليحه، وفقد المسلمون السيطرة على البحر المتوسط ، وكان من نتيجة ذلك نشاط حركات المعارضة في الغرب ، حيث نزعت العديد من الولايات إلي الاستقلال ، وظهرت دول الخوارج ثم الأدارسة ثم الأغالبة . واستمر ذلك الحال حتى خلافة الرشيد .

وفي خلافة الرشيد أولى الأسطول اهتماماً ملحوظاً ، فعهد بسواحل مصر والشام إلي حميد بن معبوف في عام ١٩٠ هـ . فاهتم بالأسطول وسيّر بعثات إلي كل من قبرص وكريت ، وبعد ذلك أهمل شأن الأسطول من جديد .

ترتب على إهمال الأسطول الإسلامي بعد خلافة الرشيد سيطرة الأسطول البيزنطي على البحر المتوسط ، وفي عام ٢٤٦ هـ غزا الروم مدينة دمياط المصرية وأنزلوا بسواحلها دمارا شديداً وعاثوا فيها فساداً . مما اضطر الخليفة المتوكل إلي حراسة السواحل المصرية والشامية وحشد فيها المقاتلين ، ولكن ذلك لم يؤد إلي الاهتمام بالأسطول الذي أهمل تماماً بعد ذلك ، إلي أن وهنت الدولة العباسية واستقلت عنها معظم ولاياتها .

وظهرت دويلات شبه مستقلة في مصر والشام أولت الأسطول اهتماماً ملحوظاً ، وسوف نعرّج على تفصيل ذلك في حينه .

- التحول إلي الاهتمام بالأسطول التجاري :

في الوقت الذي أهمل العباسيون الأسطول الحربي الإسلامي في البحر المتوسط والشمال الأفريقي اهتموا بالأسطول التجاري مع الشرق في منطقة الخليج والمحيط الهندي ، فأدى ذلك إلي قيام علاقات تجارية جيدة مع شرق أسيا . كما أدى كذلك إلي حدوث استقرار سياسي في هذه المناطق من الدولة الإسلامية ، واستتبع ذلك نشاط حركات نشر الدعوة الإسلامية من خلال التجار والدعاة . وتعددت التجمعات الإسلامية في المدن التجارية في الهند والصين وغيرها من دول الشرق الأقصى .

❖ عناصر الجيش العباسي :

نظراً لتعدد العناصر البشرية التي احتوى عليها الجيش العباسي ، فقد رأينا أن نرصد في عجالة هذه العناصر ، وموقع كل منها في الجيش والدور الذي أسند إليها :

- الفرقة الخراسانية [أهل خراسان] :

هذا العنصر هو أساس الجيش العباسي الذي تكون قبل قيام الدولة ، وظل كذلك يلعب دوراً مهماً في الجيش العباسي ، وهذا العنصر عبارة عن عرب قطنوا منطقة خراسان الفارسية لفترة طويلة ، فتكلموا الفارسية وتزوجوا من نساء فارس ولبسوا الزي الفارسي ، وتكيفوا مع البيئة الفارسية بتقاليدها وعاداتها وموروثاتها الثقافية والحضارية ، ولكنهم في ذات الوقت ظلوا يعتزون بأصولهم العربية .

وبعد أن كوّن أبو مسلم الخراساني الجيش ، أو بعبارة أكثر دقة التنظيم الثوري العسكري العباسي من أهل خراسان وزحف به نحو العراق ، اختلط هؤلاء مع العرب من جديد ، ومروا بمرحلة تعريب جديدة ، أيقظت لديهم انتماءاتهم العربية الكامنة ، والتقت هذه العملية مع التوجه الذي ساد الخلفاء العباسيين الأوائل ، والذي شجع الثقافة العربية والروح العربية .

وظل هذا العنصر الخراساني في الجيش العباسي يكن ولاءً وتفانياً للدولة العباسية ، وكان يمثل أهم أداة من أدوات الدفاع عن النظام ضد الثورات التي شبت في البصرة والموصل والشام وأفريقيا ، كذلك قام هذا العنصر بدور مهم في الدفاع عن الدولة العباسية ضد الهجمات البيزنطية التي كثرت في عهد العباسيين ، مستغلة ضعف دولتهم وأسطولهم الحربي مقارنة بالدولة الأموية والأسطول الإسلامي في عهدها .

وكذلك استثمر العباسيون ولاء أهل خراسان لهم في تحقيق مآرب سياسية فيما يتعلق بتوريث الخلافة ، حيث عمدوا إلي احتكار ولاية العهد لأبنائهم دون إخوانهم وأقربائهم مستغلين في ذلك تأييد أهل خراسان .

وكان الخليفة العباسي المنصور من أول الخلفاء العباسيين الذين اهتموا بأهل خراسان وقربوهم، فقد استعمل البارزين منهم في مناصب عالية للاحتفاظ بهم والحفاظ على ولائهم ، ويعتبر تعيين حازم بن خزيمة نائباً عن الخليفة المنصور على العسكر والميرة حينما ذهب إلي الحج في عام ١٤٤ هـ ذو دلالة في هذا الخصوص .

كذلك استعان الخليفة المنصور بالجيش الخراساني للقضاء على ثورة العلويين ، وقد وصى ابنه المهدي بالإحسان إلي أهل خراسان والتجاوز عن مسيئهم ، وقد أسكنهم في مدينة المنصور المدورة وضواحيها ، وفي ذلك دلالة على مكانتهم في الخلافة العباسية .

- العرب :

برزت أهمية العنصر العربي للعباسيين منذ خروج العباسيين على الدولة الأموية ، وزادت تلك الأهمية أثناء الحروب التي خاضها الجيش العباسي (الخراساني) ضد الجيش الأموي في الشام . فأثناء تقدم العباسيين في العراق ساعدت عناصر قبلية مختلفة الجيش الخراساني . بل إن سقوط الكوفة وواسط والموصل والبصرة ودمشق كان بفعل مساعدة شيوخ القبائل الذين انضموا إلي العباسيين .

من هنا أدرك العباسيون مدى التأثير الذي يمارسه شيوخ القبائل على قبائلهم ، فعاملوهم معاملة طيبة بما يتناسب مع عدد أفراد قبائلهم ! . وبالرغم من ذلك لم يكن العباسيون يولون الانتماءات القبلية اهتمامهم البالغ ، فقد كان الخليفة المنصور يعمد إلي ضرب التحالفات القبلية بشكل دائم .

ولم يتوان العباسيون في إدخال العنصر العربي إلي الجيش ، مستهدفين موازنة ثقل الفرقة الخراسانية تحسباً لاحتمالات تمردها أو ثورتها ، وتوفير بديل يمكن الاعتماد عليه في حالة انفلات الفرقة الخراسانية .

- الموالي :

وهم خليط من عناصر متعددة : من العرب ممن كانوا أسرى ، أو من قبائل مغمورة . أو ممن اصطنعهم الخليفة . ومن الفرس والترك والعبيد المحررين وغيرهم من العناصر الأخرى ، ويربط كل هؤلاء بالخليفة الولاء والتفاني والإخلاص الذي يخصونه فوق كل اعتبار .

وكان الخليفة العباسي المنصور هو أول من أدخل الموالي في البلاط والإدارة والجيش ، فجلب منهم الكثير بطريق الحرب أو الشراء ، واهتم بهم المنصور واعتنى بتدريب بعضهم من الأحداث [صغار السن] على السلاح ، وشكلوا فرقة كبيرة في الجيش العباسي

ومن ثم برزت ظاهرة ولاء الاصطناع ، الذي يعنى اختيار الخليفة لأفراد أو جماعات بغض الطرف عن أصلهم العنصري ، ثم يمنحهم الخلع والرتب ويعهد إليهم بالأعمال المهمة . واعتبرت هذه الشريحة نفسها كتلة مستقلة ومختلفه عن العرب وغير العرب . وهم يقولون بأفضليتهم على العرب ، لأن أصولهم أعجمية ، وأفضليتهم على العجم ، بسبب روابطهم مع العرب . ولكن الموالى حصلوا على هذه المكانة بسبب رعاية الخلفاء لهم ، وتعود هذه الرعاية إلي انتسابهم إلي أمهات غير عربيات في الأغلب .

ولقد زادت مكانة الموالى وأهميتهم في البلاط والإدارة والجيش منذ عهد الخليفة المنصور ، وكان أول خليفة عباسي يستعمل مواليه وغلمانه في أعماله ، وكذلك فعل الخلفاء المهدى والرشيد .

وسكن الموالى في مدينة المنصور المدورة في قطاع خاص بهم يسمى " درب الموالي " إضافةً إلي أماكن أخرى . كما كان لهم ديوان يسمى " ديوان الموالي والغلمان " .

– الأبناء :

وهم أبناء وأحفاد أهل خراسان ، وقد ظهر هذا الاصطلاح بمضمونه ودلالته في أواخر عهد المهدي وفي أيام الهادي والرشيد . وقد تركز الأبناء في بغداد وهاشمية الأنبار ، وشكل الأبناء كتلة واحدة منسجمة تأثرت بالتطورات الجديدة السياسية والحضارية . لكنهم لم ينسوا خراسان إقليم آبائهم ، وكما كان أهل خراسان من العرب والعجم كذلك كان الأبناء ، اشتهر منهم من العرب عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي ، ومن الفرس يحي بن

خالد البرمكي . وبمرور الزمن ازداد تأثير الأبناء في الدولة العباسية . وكان تأثيرهم في نزاع الأمين والمأمون واضحاً . كما ناصروا أهل خراسان في الأزمات والشدائد . وسكن الأبناء الأرياض من بغداد . ولذلك يسمون أهل الأرياض . وعليه فأهل خراسان كانوا من العرب المتأثرين بالتقاليد الفارسية بسبب سكناهم في بلاد فارس . أما الأبناء فقد تأثروا بتقاليد الخلافة العباسية في العراق .

- السودان والزنوج والعبيد :

كان للزنوج وجود في الجيش العباسي . كذلك وُجد فيه العبيد . فالثابت أن جيش يحيي بن محمد العباسي والي الموصل حين وصوله إليها كان يضم وحدة من الزنوج قوامها أربعة آلاف مقاتل وكان ذلك في عام ١٣٣ هـ . كما أن الجيش الذي أرسله الخليفة المنصور لإخماد ثورة إبراهيم أخي النفس الزكية كان يضم عدداً من السودان غير قليل ، وقد كانت في بغداد دار خاصة بالرقيق تسمى " دار الرقيق " ، وتمثلت أهم مصادر الرقيق في العصر العباسي في الشراء والسبي والهدايا وكجزء من ضرائب الأقاليم .

- الأعراب :

اعتاد قادة الجيش العباسي من أصحاب النفوذ القبلي أن يسيروا في جزء منهم من قبائلهم برفقة الجيش . عندما يبتعثون للفتح أو يُندبون لقمع ثورة أو تأديب الخارجين على الدولة ، وكان في هذه العادة نفع للدولة والقبائل معاً . فالدولة تستفيد من إنهماك هؤلاء الأعراب وانخراطهم في عمليات الصراع العضوي التي يخوضها الجيش ، فتأمن خروجهم عليها ، وتنعم بالأمن والاستقرار دون عناء . أما الأعراب فيتحصلون على الغنائم التي تسد حاجاتهم وتلبي طموحاتهم ، في الوقت الذي يشعر قادة الجيش بالاطمئنان لتفاني أفراد قبائلهم في نصرتهم .

- الشاكرية :

وينصرف اصطلاح الشاكرية كما ورد في كتب التاريخ إلي طائفة الخدم والمرتزقة المرتبطين بالقائد ، فهم جزء من مواليه وغلمانه وخدمه . وكانت مهمتهم تتحدد في شئون الخدمة والحراسة ، وكانت أسماؤهم تسجل مع المقاتلين في العصر العباسي الأول في ديوان الجند والشاكرية .

- الصعاليك

في العصر العباسي الأول انتشرت كلمة الصعاليك لتعني الفقراء عموماً . وقد عمد الخلفاء العباسيون إلي استيعاب فصيل عريض من هؤلاء بالجيش أواخر ذلك العصر ، حتى تأمن الدولة شرهم ، حيث كانوا ينخرطون في حركات المعارضة . ولوحظ أن مكان هؤلاء الصعاليك يكون دائما بين القوات المرابطة في الثغور .

- الزواقيل :

مع هذا المصطلح ظهرت مصطلحات كثيرة أطلقت على شرائح من المجتمع الإسلامي في العصر العباسي في فترة صراع الأمين والمأمون مثل الشطار والعيارين ، وكان هؤلاء يرجعون بأصولهم إلي العرب القيسيين ، الذين انحدروا من شبه جزيرة العرب وبلاد الشام ، وقد شايع هؤلاء الأمين في صراعه مع أخيه المأمون على الخلافة كغيرهم من التجمعات ذات الأصول العربية ، التي رأت ضرورة الوقوف مع الأمين صاحب الحق الشرعي في الخلافة ضد المأمون الذي استعان بجيش طاهر بن الحسين الفارسي ، وقد اكتسب هذا الصراع طابعاً ذا نزعة عنصرية . عندما ناصر العرب الأمين وشايع الفرس المأمون ، وبعد انتصار المأمون بقوة الجيش الفارسي بات هؤلاء جميعاً في صف المعارضة وحرمتهم الدولة من العطاء ، فلم يجدوا إلا أن يعثوا في الأرض مفسدين . فتعقبتهم الدولة كمجرمين خارجين

على النظام والقانون ، ثم رأت في إدخالهم إلي الجيش العباسي مع ما أدخلت من الفقراء والعوام حلاً لمشكلتهم في الحياة وجباً لما يثيرونه من الفتن والقلاقل .

- المغاربة :

في أواخر العصر العباسي الأول انضم إلي الجيش عناصر عديدة جُلبت من مصر والسودان والشمال الأفريقي ، وكوّن منهم المعتصم فرقة خاصة عُرفت بالمغاربة وكانوا في معظمهم من العرب اليمانية والقيسية .

- المشارقة :

في خلافة المعتصم ازداد عدد الأتراك الذين استخدمهم المنصور لأول مرة . إلا أن المعتصم قد آثرهم على العرب الذين اسقط أسماءهم من الديوان ، ثم بنى لهم مدينة سامراء شمالي بغداد، لتخليصهم من مضايقات أهل بغداد ، وصاروا يعرفون في جيش المعتصم بالمشارقة تمييزاً لهم عن المغاربة ، واستفحل خطر هذه الفرقة ، ولم يستطع الخلفاء بعد المعتصم الوقوف بوجه قادتها ، وقد ذهب الخليفتان المتوكل والمعتز ضحية ذلك الخطر .

- عناصر أخرى :

إضافةً إلي ما تقدم أنضم إلي الجيش العباسي العديد من العناصر الأخرى ، مثل الغراغنة والزط والأرمن والأكراد ، ولم تشكل هذه الجماعات فرقاً خاصة وإنما أدخلت للجيش ضمن المتطوعين والقوات غير النظامية .

❖ تمويل الجيش :

لعب العامل المالي دوراً مهماً في الجيش العباسي . فقد اعتمد على الدولة في تمويله ، وكانت موارد الدولة طيلة العصر العباسي الأول تفي باحتياجات الجيش مما جعله أكثر

قوة وتنظيماً ، وفي العصر العباسي الثاني تبدلت الأحوال ، إذ لم يتوفر المال الكافي لتأسيس جيش نظامي يتمكن من الدفاع عن الخلافة العباسية ضد نفوذ الفرس والأتراك ، وبقي اعتماد الجيش على المتطوعين ، بسبب عدم رغبة المقاتلين في الانخراط في جيش الخلافة لعدم منفعته مقارنة بجيوش أمراء الأطراف ، الذين أسسوا جيوشا خاصة بهم تمهيداً للاستقلال عن الدولة العباسية ، وهكذا كان العامل المالي والوضع الاقتصادي المتردي الذي عانت منه الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني ، سبباً رئيسياً في انهيار الجيش العباسي بل وانهيار الدولة بالكامل

وكان راتب المقاتل في العصر العباسي الأول بحدود ثمانين درهماً شهرياً ، أما صغار القادة فكانت رواتبهم تتراوح بين مائة إلي ألف درهما ، في حين كانت مخصصات القادة الكبار تتراوح بين ألف إلي ألفي درهماً سنويا .

واعتادت الدولة أن تزيد رواتب الجيش أو تقوم بصرف رواتب عدة اشهر مقدماً في أوقات الأزمات التي تواجه الخلافة ، كما توزع الأرزاق في مناسبة بيعة كل خليفة جديد ، وتعتبر رواتب الجيش العباسي أكثر إذا ما قورنت برواتب الجيش في صدر الإسلام .

❖ تسليح الجيش العباسي :

تطور تسليح الجيش العباسي عما كان عليه الحال في العصر الأموي وعصر الخلافة الراشدة ، ويمكن متابعة ذلك من خلال الآتي :

– أسلحة الجيش :

شهد الجيش العباسي أنواعاً من الأسلحة لم تكن موجودة في العصور التي سبقته ، كما تم تطوير أنواع أخرى من الأسلحة ، فكان هناك أسلحة الاستعمال الفردي مثل السيوف والخناجر والرماح والقسي والسهام وغيرها ، وكانت هناك أسلحة الاستعمال الجماعي

وأشهرها المنجنيق ، الذي صنعه سلمان الفارسي للرسول الكريم واستخدم في حصار الطائف سنة ٨ هـ ، ثم تطور هذا السلاح الجماعي الذي يستخدم في دك الحصون والأسوار . كما عرف الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأسلحة الكيميائية ممثلة في استعمالات النفط ، وكذا استعمال نترات البوتاسيوم [ملح البارود] . يضاف إلي ما تقدم ما عرفه الجيش الإسلامي من الأسلحة الوقائية أو الدفاعية لتفادى ضربات العدو ، مثل الترس الذي يقي من ضربات السيوف والرماح والسهام وعلى شاكلته كانت الدروع .

وظلت الخيل من أهم أدوات الجيش منذ عهد الرسول الكريم الذي قال فيها " الخيل معقود في نواصيها الخير إلي يوم القيامة " ، كذلك كانت الجمال تستخدم بكفاءة في نقل الأمتعة والمؤن والعتاد والآلات إلي جانب نقل المرضى والمصابين .

وفي العصر العباسي كذلك أتقن الجيش الوسائل الدفاعية مثل بناء الأسوار حول المدن وإنشاء الحصون وحفر الخنادق ، وأيضاً إقامة الاستحكامات في مناطق الحدود وفي الثغور والعواصم، وكان قادة الجيش يستثمرون العوامل الطبيعية والظواهر الجوية في عمليات الهجوم والدفاع ، كما يحرصون على دفع الروح المعنوية بالمبارزة وقرع الطبول والشعر الحماسي .

- تصنيع السلاح :

انتشرت مصانع السلاح في كافة الأمصار ، وتطورت بشكل ملحوظ في العصر العباسي ، كما ازداد عدد العاملين فيها واتسموا بالمهارة والإتقان . كذلك تطورت عمليات تخزين السلاح ، وارتبطت بعمليات الإمداد والتموين والنقل عبر الوسائل المتاحة في ذلك الوقت .

❖ تشكيل الجيش العباسي :

بالمقارنة مع وضعية الجيوش الإسلامية — التي سبق الحديث عنها — في صدر الإسلام والعصر الأموي يمكن الانتهاء إلي أن الجيش العباسي كان أكثر تنظيماً وتطوراً من حيث الشكل والتوزيع النوعي والوظيفي للقوات ، ويتضح ذلك مما يلي :

- قيادة الجيش ورتبه وتشكيله :

سبق الحديث عن عناصر الجيش العباسي ، ومن الحديث يستشف أن الجيش كان يوزع إلي فرق أو جيوش فرعية ، وكان على كل فرقة أو جيش فرعي قائد ، ثم كان هناك أمير الجيش أو قائد عام الجيش وهو نائب الخليفة ويعين من قبله ، وتأتي بعد ذلك رتبة أمير الجيش ويكون على عشرة آلاف أو أكثر ، ثم تأتي رتبة أمير الكُردوسة على كل عشرة من القواد ، ثم هناك رتبة القائد على كل عشرة من النقباء ، والنقيب على كل عشرة من الجند ، والجندي أو المقاتل هو الوحدة الأساسية في الجيش ، وأخيراً كانت هناك رتبة العريف وهو المسئول عن ضبط الجند وتنظيمهم وإن كان أحدهم ولكن يكون أقدمهم .

- التشكيل النوعي والوظيفي في الجيش العباسي :

• الفرسان : وهم قوام الجيش وأهم عناصره ، وتوكل إليهم المهام القتالية الأساسية . وهم راكبو الخيل ، وأسلحتهم فردية هجومية دفاعية أو وقائية . فالسيوف أداة القتال الأساسية ، والترس والدرع أداته الوقائية ، وقد يستخدمون الرماح .

• المشاة : وهم الراجلون الذين يكونون بصحبة الفرسان ، ويستخدمون نفس أسلحة الفرسان إلا أن استخدامهم للرماح كان أكثر .

- الرماة : وأسلحتهم الأقواس والنبال ، ويلبسون الخوذ والترس للوقاية ، ومهمتهم تتمثل في رمي جيش الأعداء بالأقواس والسهام .

- أصحاب الدبابة : وكانوا يهاجمون حصون الأعداء واستحكاماتهم الدفاعية ، مستترين وراء دبابات أو أبراج خشبية ضخمة يدفعونها لتدمير تلك الحصون والاستحكامات

- النفاطون : وكانت مهمة هؤلاء قذف النفط على الحصون وإشعال النيران فيها تمهيداً لاختراقها ومهاجمة المتحصنين بها .

. فرقة المنجنيق : وهم رماة المنجنيق ، وهذا السلاح عرفه المسلمون منذ زمن الرسول الكريم واستخدمه في حصار الطائف ، وهو عبارة عن إطلاق مقذوفات ملتهبة متجاوزة الحصون والأسوار والاستحكامات الدفاعية إلي داخل المدن والتجمعات المحصنة لتشعل فيها النار وتمهد بالتالي لاقتحامها .

- فرقة الزراقين : ومهمة هذه الفرقة تقتصر على العمل في الأسطول ، وتتولى قذف النار داخل الحصون المطلة على البحر أو على سفن الأعداء .

- العيارون : وهذا الفصيل من الجيش يتولى مهمة إلقاء الحجارة الضخمة على الحصون والأسوار لدكها وإحداث منافذ فيها حتى يتم اقتحامها .

- الفدائيون : ويتولى هؤلاء القيام بأعمال جرئيه داخل صفوف الأعداء ، وقد تم تطوير هذا السلاح بشكل فعّال فيما بعد .

- أفراد الخدمة والمهنيون : كذلك التحق بالجيش أصحاب المهن والحرف المختلفة مثل النجارين والبنائين والمهندسين والأطباء والبياطرة والجواسيس من رجال ونساء حيث يتنكرون في هيئات التجار . وكان هناك الإدلاء وجماعات خاصة للاستكشاف وجس نبض العدو قبل الهجوم . وكان هناك الموسيقيون وحملة الألوية والرايات .

- تدريب الجيش :

منذ زمن الرسول الكريم والجيش الإسلامي يعهد عملية التدريب بمستوييها الفردي والجماعي، فعلى المستوى الفردي كان التدريب يتم من خلال المبارزة والتدريب على الأسلحة بكافة أنواعها . وعلى المستوى الجماعي كان الجيش في معسكراته يتدرب بشكل جماعي ، وكذلك وهو في طريقه لملاقاة العدو .

ثالثاً : الجيش العباسي والحضارة الإسلامية :

في نهاية المطاف نخلص إلي إثارة السؤال التالي : ماذا قدم الجيش العباسي للحضارة الإسلامية بوصفه مقوماً من مقوماتها ؟ . لقد كانت علاقة الجيش العباسي بالحضارة الإسلامية علاقة مأساوية ، فلم يقدم لتلك الحضارة ما كان مأمولاً منه ، ويمكن تفصيل ذلك من خلال الآتي :

❖ لقد دافع الجيش العباسي الأول عن الحضارة الإسلامية باستماتة وتفان ، فعلى المستوى الداخلي تصدى لكافة حركات الثورة والتمرد على الدولة وحفظ للدولة كيانها ووحدتها . وانعكس ذلك على الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في ذلك العصر ، وقدمت ضروباً ونماذج يُشار إليها ، وعلى المستوى الخارجي واجه بصلابة وقوة اعتداءات العدو التقليدي للدولة الإسلامية وهي الدولة البيزنطية ، ولم يمكنها من النيل من الدولة الإسلامية أو من حضارتها .

❖ لم يقدر له الإجادة في حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية مثلما قُدّر للجيوش الإسلامية في العصور السابقة ابتداءً من عهد الرسول الكريم وحتى العصر الأموي مروراً بعصر الخلافة الراشدة ، فقد تمكنت الجيوش الإسلامية في العصور المذكورة من حمل وتوصيل الدعوة الإسلامية إلي أقصى ما وصلت إليه في التاريخ الإسلامي على الإطلاق .

❖ تقاعس الجيش العباسي منذ نهاية العصر العباسي الأول في الدفاع عن الدولة الإسلامية وحضارتها ، مما جعل تلك الدولة مغنماً ومطمعاً لاعتداءات الآخرين ، الذين اجترؤوا عليها وعلى حضارتها ، واقتطعوا أجزاءً منها ووضعوها تحت سيطرتهم ولو إلى حين ، وكان ذلك شأن الصليبيين ، وما ذاك إلا نذير شؤم بين يدي تفكك وانهيار بات وشيك الوقوع

❖ في العصر العباسي الثاني انهار الجيش ، ولم يستطع السيطرة على أجزاء الدولة ، التي تفلّتت الواحدة تلو الأخرى ، وبدأ عصر التفكك ، وكان انعكاس ذلك واضحاً على الحضارة الإسلامية ، التي بدا أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وتلملم أشلاءها في إعياء وخجل ، لتبحث لها عن مكان في أروقة التاريخ ولتصبح ماض وتراثاً .

❖ تسبب انهيار الجيش العباسي بشكل مهين إلى تسليم الدولة ، بل والحضارة الإسلامية إلى الغزو التتري الهمجي ، الذي أنهى وجود الدولة العباسية ، وأسدل الستار على آخر فصول الحضارة الإسلامية ، واقترن التفكك بانهيار أليم ، ومن ثم تم تدشين عصر التفكك والانهيار البئيس في التاريخ الإسلامي .